العربية / Arabic

جوامع الكلم

تأليف :

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

www.islamic-invitation.com

جـوامِـع الكلِـمِ

جوامِعُ الكلِمِ

الراجي عفو ربه

راشِد بن مُحمَّدِ بْنِ فَطِيسٍ الهاجِرِي

* * *

تقديم

الحَمدُ لله ربِّ العالَمِينَ وصلَّى اللهُ وسلَّم على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِه وصَحْبه أَجمعينَ، وبعدُ:

فإنَّ اللهُ تَعَالَى قَدِ اختَصَّ نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ بعَطايا وهِباتٍ ومِنحٍ تَليقُ بمَكانتِه، وفَضَّلَه على غيرِه مِنَ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، ومِنْ ذلكَ أَنَّه أُعطِيَ الحِكمةَ البالِغةَ في نُطْقه وبَيانِه، فكانَ ﷺ يَقولُ الكلامَ المُوجَزَ؛ القَليلَ في لَفْظه، الكثيرَ في مَعناه، وهذا مِنْ تَأْييد اللهِ له، فقَدْ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣- ٤].

وقَدْ أَخبرَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذلِكَ الفضلِ فقالَ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ**».

وبيَّن صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّه بُعِثَ بجَوامِعِ الكلِمِ فقالَ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**»، وقَدْ فسَّرَ البُخاريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ جوامِعَ الكلِمِ بقولِه: بلَغَني أَنَّ جوامِعَ الكلِمِ أَنَّ اللهَ يَجمَع الأُمورَ الكَثيرةَ الَّتي كانَتْ تُكتَب في الكُتُب قَبلَه في الأَمرِ الواحِدِ والأَمْرينِ أَوْ نحو ذلِكَ.

وقالَ الآثاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَلَّـت مَـدائِحُ خَلـقِ اللهِ قاطِبَـةً ... إِلَّا مَدائِحَـهُ جَلَّـت مِـنَ الْعِظَـمِ!
كَلامُهُ جامِعُ الخَيراتِ كَيفَ وَقَـدْ ... أُوتِي جَوامِعَ فَضلِ اللهِ فِي الْكَلِـمِ!
يُصَرِّفُ القَولَ بِالمَعروفِ مِنـهُ كَـما ... يُؤَلِّفُ اللَّفْظَ وَالمَعْنَى مِـنَ الْحِكَـمِ
لَفظُ الكِتابِ وَلَفظُ الشَّارِعِ ائْتَلَفَـا ... كَالشَّمْسِ وَالْبَدرِ فِي صُبْحٍ وَفِي ظُلَمِ
يَـدعُو إِلَى الخَـيرِ بِـالتَّكْرارِ أُمَّتَـهُ ... وَيَأْمُرُ الْأَهْـلَ بِـالمَعروفِ وَالْهِمَـمِ
الجُودُ وَالحُسنُ وَالخَيْرَاتُ قَدْ جُمِعَتْ ... فِيهِ مَعَ اللُّطْفِ وَالْإِحْسَانِ وَالْهِمَمِ
وَقَـدْ تَقسَّـمَ فِيـهِ الْفَضـلُ أَجْمَعُـهُ ... ذَاتًا وَمَعْنًى وَأَفْعَـالًا مَـعَ الْكَلِـمِ!

هذا، وقَدْ يسَّرَ اللهُ تعالى لي اخْتِيارَ ثلاثينَ حَديثًا مِنْ جوامِعِ كلِمِه ﷺ، اختَرْتُهم بعِنايةٍ ليَكونوا مادَّةً عِلميةً تُناسِبُ أَنْ أَخطُبَ بها، كلَّ جُمُعةٍ بحَديثٍ واحِدٍ، وقَدْ تَمَّ هذا بفَضلِ اللهِ وَحْدَه، إِذْ أَلْقيتُ هذه الخُطَبَ كلَّها في جامِعِ صاحِبِ السُّموِّ الأميرِ الراحِلِ الشيخِ عِيسَى بنِ سَلمانَ آل خَليفةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بمَدينةِ الرِّفاعِ الغَربيِّ بمَملَكةِ البَحرينِ على مَدى عامٍ بأَكمَلِه، وكان ذلِكَ في سَنةِ ١٤٣٧هـ.

ولَمَّا كُنتُ أُلقِي هذه الخُطَبَ ارْتِجالًا وحِفْظًا مِنْ ذاكِرتي، مُستَعينًا باللهِ وحدَه، ثُمَّ بما اطَّلَعت عليه مِنْ مَقالاتٍ وخُطَبٍ ومُؤلَّفاتٍ، وقَدْ أَشارَ عليَّ

بعضُ الأخيارِ بتَفريغِ هَذه الخُطَبِ في كِتابٍ واحِدٍ حِفظًا لها؛ ولِيَسهُلَ الوُصولُ إليها والاستِفادةُ مِنها.

وعلَيْهِ فأنا أُقدِّمُ هذه المَجموعةَ مِنْ خُطَب جَوامِعِ الكَلِمِ سائِلًا اللهَ أَنْ يَنفَعَ بها كاتِبَها و قارِئَها، وأَنْ يَجعَلَها صدَقةً جارِيةً يَتتابَعُ عليَّ وعَلى والِديَّ نَفعُها في الدارَيْنِ.

وكتبَهُ راجِي عَفْوَ ربِّه

راشِدُ بنُ مُحمَّدِ بْنِ فَطِيسٍ الهاجِرِيُّ

الرِّفَاعُ الغَرْبِي - مَمْلكَةُ البَحْرَيْنِ

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

o

(١)

مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ

o

عبادَ اللهِ! إنَّ بلاغةَ النبيِّ ﷺ من أَبرزِ مَظاهرِ عظمتِه، وأجلى دلائِلِ نبوَّتِه، فهو ﷺ صاحبُ اللِّسانِ المُبينِ، والمنطِقِ المستقيمِ، والحِكْمةِ البالغةِ، والكلِمةِ الصادِقةِ، والمُعجِزةِ الخالدةِ.

زكَّاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -في نُطقِه- فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

ومدحَ نفسَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال -كما جاءَ في (صحيح البخاريِّ)-: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ»[(١)]، وبيَّنَ فضلَه ومِيزتَه على سائِرِ الأنبياءِ فقال ﷺ -كما جاءَ في (صحيح مسلمٍ)-: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ...» ثُمَّ ذكرَ بَقيةَ السِّتِّ[(٢)].

إنَّ النبيَّ ﷺ مِمَّا أُعطِيَ: أُعطيَ جوامعَ الكلِمِ، ويُفسِّرُ البخاريُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، رقم (٧٠١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى «جَوامِع الكلِم» فيَقول: «وبلَغَني أن جوامعَ الكلِمِ: أن اللهَ يَجمعُ الأمورَ الكثيرةَ، الَّتي كانت تُكتَبُ في الكُتبِ قبلَه، في الأمرِ الواحدِ أو الأَمْرَيْن» أي: كانَ ﷺ يقولُ الجُملةَ الواحِدةَ فإذا بها يأتِي تحتَها كثيرٌ منَ المسائلِ، والأحكامِ، والتوجيهاتِ، والدروسِ، والعِبَرِ.

وبإذنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سنَقِفُ عندَ جملةٍ واحِدةٍ نطقَ بها النبيُّ ﷺ، ثُمَّ سنَمضي في هذا السِّياقِ في جُمَعِنا القادِمةِ -بإذنِ اللهِ- نَتحدَّثُ عن جوامعِ الكلِمِ، الَّتي نطَقَ بها النبيُّ ﷺ.

وحديثُنا في هذه الخُطبة هو ما جاءَ في (صحيح مسلمٍ) من حديثِ أبي هُريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1].

وهي جُملةٌ قَصيرةٌ إذا نظَرْت إلى مَبناها، ولكِنَّك إذا تَعمَّقت في مَعناها فإذا هو كبيرٌ وعظيمٌ.

وفيها مِنَ الفوائِدِ الشيءُ الكثيرُ:

الفائدةُ الأُولى:

أنَّ الناسَ كلَّ الناسِ في طريقِهم إلى اللهِ، وفي سَيْرِهم إليه يَتَّخِذون

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

مَطايا، فهذا يَتَّخِذُ العملَ الصالحَ مَطيَّةً، وذاك يَتَّخِذُ الحسَبَ والنسَبَ والأصلَ مَطيَّةً.

أمَّا مَنِ اتَّخَذَ العملَ الصالحَ مَطيَّتَه؛ فإنه سائرٌ وصائرٌ إلى خيرٍ، وأمَّا مَنِ اتَّخَذ مَطيَّتَه أنا ابن فُلانٍ، مِنْ آلِ فلانٍ، حسَبي ونسَبي كذا، دون عملٍ صالحٍ؛ فإنه سائرٌ وصائرٌ إلى شَرٍّ.

ونبيُّنا ﷺ يَقولُ -كما جاءَ في (صحيح مسلِم) من حديثِ أبي مالِكٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو**» أي: كلُّهم سائِرٌ «**فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»[1]، فمُعتقُها من عذابِ النارِ، أو مُوبقُها في عذابِ النارِ.

فكلُّ الناسِ يَغدو؛ فانظُرْ -يا عبدَ اللهِ- إلى مَطيَّتِكَ، أَمطِيَّتُكَ العمَلُ الصالحُ، أو مَطيَّتُكَ أنا ابنُ فلانٍ، مِنْ آل فلانٍ.

ثاني هذه الفوائِدِ:

أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلَقَ الخَلْقَ وجعَلَهم في تبايُنٍ، وفي تَمايُزٍ، مُختلِفِينَ، من أنسابٍ مُختلِفةٍ، وأصولٍ مُتعدِّدةٍ، وأعراقٍ مُختلِفةٍ، جعلَهم بهذا الشكلِ والهَيْئةِ ليَتآلَفوا لا ليَتناكَروا، ليَتراحَموا لا ليَتناحَروا، ليَتوافَقوا لا ليَختَلِفوا، ليَتعارَفوا لا ليَتفرَّقوا؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ثالثُ هذه الفوائد:

في هذا الدينِ لا مُحاباةَ، ولا مُجامَلةَ، ولا طَبقيَّةَ أبـدًا، أَنزلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على نَبيِّه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، كما جاء في (صحيح مسلمٍ) من حَديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقام ﷺ على جبَلِ الصَّفا قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ» يَعني: بِيعوها إلى اللهِ، والثمنُ الجَنةُ، كما قـالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ» يعني: في الدنيا «لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[1]؛ لأنه لا مُحاباةَ في هذا الدِّينِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦)، وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، رقم (٣٥٢٧).

رابعُ هذه الفوائدِ:

أنَّ المحمودَ والمَمدوحَ مَن حَمِدَه اللهُ ورسولُه ومدَحَه؛ فمَنْ حمِدَه اللهُ ومدَحَه فهو المحمودُ الممدوحُ، ومِن ذَمَّه اللهُ ورسولُه فهو المذمومُ.

في (مُسنَد أحمدَ) من حديثِ أبي نَضرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قامَ نبيُّنا ﷺ فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟**»، قالوا: بلَّغ رسولُ اللهِ ﷺ[(١)].

وعلَّقَ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في (مجموع الفَتاوى) وقال كلامًا عظيمًا، قال: «وبهذا» أي: بهذا الذي تَقدَّمَ في هذا الحديثِ « ليس في كِتابِ الله آيةٌ واحِدةٌ يَمدَح فيها أحدًا بنسَبِه، ولا يَذُمُّ أحدًا بنسَبِه؛ وإنما يَمدَح بالإيمانِ والتقوَى، ويذمُّ بالكُفْرِ والفُسوقِ والعِصيانِ»[(٢)].

ويَقولُ في موضِعٍ آخرَ من كُتبِه: «وإنما الفضلُ بالأسماءِ المَحمودةِ في الكتابِ والسُّنَّة مِثل: الإسلامِ، والإيمانِ، والبِرِّ، والتَّقوَى، والعِلمِ، والعمَلِ الصالحِ، والإحسانِ، ونحوِ ذلك، لا بمُجرَّدِ كونِه عربيًّا أو عجَميًّا، أو أسودَ أو أبيضَ، ولا بكَوْنه قَرويًّا أو بَدويًّا»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٣٠).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤١٥).

وخُلاصةُ هذه الفائِدةِ يَقولُها عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «وَاللهِ لَئِنْ جاءَتِ الأَعاجمُ بالأعمالِ وجِئْنا بغَيْرِ عمَلٍ فهُم أَوْلى بنَبيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ القيامةِ»[1].

الفائدةُ الخامِسةُ:

بهذا الدِّينِ يَسودُ الناسُ وبغيرِه لا تَحصُل لهمُ السِّيادةُ.

وقد دخلَ ابنُ شهابٍ الزُّهريُّ أحدُ علماءِ الأمَّةِ، وأستاذٌ مِن أَساتِذتِهم، وهو إمامُ العلماءِ، مِن طلَّابِه مالكٌ والأوزاعيُّ وغيرُهما، دخَل على أميرِ المُؤمِنين عبدِ الملِكِ بنِ مَروانَ فقالَ له: «يا زُهريُّ! مِن أينَ أتيتَ؟» قال: «أتيتُ من مكَّةَ»، قال: «فمَنْ خلَّفْتَ بها يَسودُ أهلَها؟» قال: «عَطاءَ ابنَ أبي رباحٍ»، قال: «فمِنَ العربِ أَمْ منَ المَوالي؟».

انظُرْ إلى أميرِ المُؤمِنين يَسأَلُ عن ماذا، لم يَسأَلْ عن عِلْمِه، ولا عن إتقانِه ودِيانتِه- قالَ: «فمِنَ العربِ أم منَ المَوالي؟» قالَ: «مِنَ المَوالي»، قال: «بِمَ سادَهُم؟» قالَ: «بالدِّيانةِ والرِّوايةِ» بالدِّينِ والعِلمِ «بالدِّيانةِ والرِّوايةِ».

فقالَ أميرُ المُؤمِنينَ: «إنَّ أهلَ الدِّيانةِ والرِّوايةِ يَنبغي أن يُسوَّدوا،

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٦).

فمَن يَسودُ أهلَ اليمَنِ؟» قال: «طاوسُ بنُ كَيْسانَ»، قالَ: «فمِنَ العربِ أم مِنَ المَوالي؟» قالَ: «مِنَ المَوالي». قالَ: «فمَنْ يَسودُ أهلَ مِصرَ؟» قالَ: «يَزيدُ بنُ أبي حَبيبٍ»، قالَ: «فمِنَ العربِ أم مِنَ المَوالي؟» قال: «منَ المَوالي». قالَ: «فمَن يسودُ أهلَ الشامِ؟» قال: «مَكحولٌ»، قالَ: «فمِنَ العربِ أم منَ المَوالي؟» قال: «منَ المَوالي عبدٌ أَعتقَتْه امرأةٌ من هُذيلٍ».

قال: «فمَن يَسودُ أهلَ الجَزيرةِ؟» قال: «ميمونُ بنُ مهرانَ»، قالَ: «فمِنَ العرَبِ أم مِنَ المَوالي؟» قالَ: «مِنَ المَوالي». قالَ: «فمَنْ يَسودُ أهلَ خُرسانَ؟» قال: «الضحَّاكُ بنُ مُزاحمٍ»، قالَ: «فمِنَ العربِ أم منَ المَوالي؟» قالَ: «منَ المَوالي»، قالَ: «فمَنْ يَسودُ أهلَ البَصرةِ؟» قالَ: «الحسنُ بنُ أبي الحسَنِ»، قالَ: «فمِنَ العربِ أم منَ المَوالي؟» قالَ: «منَ المَوالي»، قالَ: «وَيلَكَ، فمَنْ يَسودُ أهلَ الكوفةِ؟» قالَ: «إبراهيمُ النخَعيُّ»، قالَ: «فمِنَ العربِ أم منَ المَوالي؟» قالَ: «منَ العربِ»، قال: «وَيحكَ يا زُهريُّ! لقَدْ فرَّجْت عَنِّي».

فقالَ الإمامُ الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمةً تُكتَب بماء العُيونِ تُلخِّصُ ما ذكَرْتُ هنا، ولو لم نَخرُجِ إلَّا بهذه الجُملةِ لكَفَى قال: «يا أميرَ المُؤمنين إنَّما هو أمرُ اللهِ ودِينُه، مَنْ حفِظَه سادَ، ومَن ضيَّعَه سقَطَ»[1].

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٩٤).

هذه خُلاصةُ الدنيا والعيشِ فيها، فمَنْ أَرادَ السُّؤددَ والعزَّ والرِّفعةَ والتمكينَ فلْيَعمَلْ على حِفظِ هذا الدِّينِ وإلَّا فالسقوطُ نَتيجةٌ حَتميةٌ لمَنْ ضيَّعَ هذا الدِّينَ.

لعَمْـــرُكَ مـــا الإِنســـانُ إِلَّا بدِينِـــهِ
فَـلا تَـتْرُكِ التَّقـوَى وتَتَّكِـلْ عـلى النسَـبْ
لَقَـــدْ رَفَـــعَ الإِسْـــلامُ سَـــلمانَ فـــارِسٍ
وقَـدْ وضَـعَ الشِّـرْكُ الشَّـقيَّ أَبـا لَـهَبْ[1]

o

= وانظر أيضا: تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٨٥).

(١) الأبيات ذكرها الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (١/ ٤١٤) غير منسوبة، ونسبها ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١/ ٤٢٦) لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونسبها أبو بكر بن خميس في مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار (ص:٢٣٠) لعبد الله بن الرية المالقي.

(٢)

مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ

o

عبادَ الله! حديثُنا عن جُملة أُخرى قالها النبيُّ ﷺ الَّذي لا يَنطِق عنِ الهَوَى، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»[١]، كلِماتُها قليلةٌ ومعانيها عظيمةٌ كثيرةٌ.

فكلَّما أَخرجَ هـذا العبدُ مـن مالِه صدَقة فإنَّـه عِند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَنقُص، لا في الدُّنْيا، ولا في الآخِرة.

نَعَم، إنَّ نبيَّنا ﷺ يَقولُ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ» والسببُ أنَّك -يا عبدَ الله- حينَما تَتصدَّق فإنَّما تُخرجُ مالَكَ من حِسابٍ لكَ في الدنيا إلى حسابٍ لكَ في الآخِرةِ، وكِلا الحسابَيْن لك، ومسجَّلانِ باسمِكَ، هذا هو فِقْه الحديثِ.

فحينما يَتصدَّق المسلِمُ بصدَقتِه إنما يَسحَبُ مالًا من هذا الحسابِ فيَضَعه في هذا الحِسابِ إِذَنْ هو لا يَنقُص.

وقد فهِمَ السلَفُ الصالِحُ هذا المَفهومَ، وأَدرَكوه على الحقيقةِ؛ لذا

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كان أحَدُهم إذا رأى السائِلَ مُقبِلًا عليه قال: مرحَبًا بمَن جاء يُحوِّل مالَنا من دُنيانا لأُخْرانا، فهُو إذَنْ من حِسابٍ إلى حِسابٍ.

بل إنَّ المُتأمِّلَ في نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ يَجِد أنها لا تَتَحدَّث عن هذا المفهومِ فحَسْب، بَلْ إنها تَتحدَّث أن الصدَقةَ تَزيد المال، قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

وفي مَوضِعٍ آخَرَ من نَفْس السورة في سورة البقَرة يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

وفي موضِعٍ ثالِثٍ في نَفْس السورة يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وفي مَوضِعٍ رابعٍ في سُورة سَبأ يَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

إذَنْ صدَق النبيُّ ﷺ وهو الصادِقُ المَصدوقُ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ».

فكيف يَنقُص المال! وهـو يَقولُ ﷺ -والحَديثُ في البُخـاريِّ ومُسلِمٍ- قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ» كلَّ يَوْم على مَدار العامِ « إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[(١)].

فهَذا الَّذي يُنفِق ويَتصدَّق يُخلَف عليه بخيرٍ بدَعْوةِ هذا الملَكِ.

وفي سُنَن التِّرْمذيِّ من حديث أُمِّنا عائِشةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهَا: يُفرِّق أهلُ بَيتِ النبيِّ ﷺ شاةً -ذبَحوا شاةً ففرَّقوا لَحْمها- فدخَلَ النبيُّ ﷺ يَسأَل عائِشةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهَا: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟» بعد هذا التَّوزيعِ والصدَقاتِ؛ قالت: ما بَقِيَ مِنها إلَّا كتِفها -ادَّخَروه للنبيِّ ﷺ لأنَّه يُحِبُّ الكتِفَ- قال: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[(٢)].

إنَّه يَفهَم ويُفهِّم أنَّ الصدَقةَ على هذا الفَهمِ: أن الَّذي يَذهَب هو الَّذي يَبقَى، أمَّا الَّذي نَصرِفه على أَنفُسِنا أكلًا وشُربًا ولِباسًا فإنه إمَّا يَفنَى ويَبلَى، وما نَدَّخِره فإنَّما هو مالٌ للورَثة، وما نُقدِّمه هو الَّذي يَبقَى، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (١٤٤٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٥٠)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٧٠).

«بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا».

وفي صَحيح مُسلِمٍ من حَديثِ أبي مسعودٍ الأَنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ بناقةٍ مَخطومةٍ -جاهِزةٍ- فقال: يا رَسولَ الله، هذه في سَبيلِ الله. قال ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِئَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[1].

وهو لَـمَّا أَخَذ هذه الناقةَ من قَطيعِ الإبِلِ الَّذي يَملِكه فهو نقَص، يَرى المِئَة نقَصَت، ويَرَى العشَرة نَقَصَت، ونَبيُّنا ﷺ يَقول: ما نقَصَت. «لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِئَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ».

وأيضًا في الحديثِ القُدسيِّ -عندَ البخاريِّ ومسلِمٍ- يَقول ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»[2].

وفي شُعَب الإيمانِ عِند البيهقيِّ من حديثِ أبي هُريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقول نَبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ لِصَدَقَةٍ أَوْ صِلَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَا كَثْرَةً»[3].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله، رقم (١٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٤٦٨٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) شعب الإيمان رقم (٣١٤٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أيضا أحمد (٢/ ٤٣٦).

رأَى النبيُّ ﷺ -والحديثُ عِند الطبَرانيِّ- عِند بِلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَوْمةُ تَمْرٍ، قال: «مَا هَذَا يَا بِلَالُ؟» قال: ادَّخَرْته لكَ يا رَسولَ اللهِ -قليلٌ منَ التمرِ- قال: «أَنْفِقْ بِلَالُ، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلَالًا»[١].

فإذا وضَح هذا المَفهومُ في نَفْس العبدِ المُسلمِ جادَتْ يدُه بالعَطيَّةِ، وإذا علِم قَدْر الصدَقة عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وشَأْنها كم عَظيمٌ، كما قال عُمرُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ، يَقولُ عُمرُ -كما جاء عِند الحاكِمِ في مُستَدرَكه-: «ذُكِرَ لِي أَنَّ الأَعْمَالَ تَتبَاهَى» الصلاةُ، الصيامُ، الصدَقةُ «فتَقُولُ الصَّدَقَةُ: أَنَا أَفْضَلُكُمْ»[٢].

كما جاءَ في صَحيحِ مسلِمٍ حينَما قال نَبيُّنا ﷺ: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَاليَدُ العُلْيَا المُنْفِقَةُ، وَاليَدُ السُّفْلَى السَّائِلَةُ»[٣].

نعَمْ شَأنُ الصدَقةِ، شَأْنٌ عَظيمٌ، تَتابَعت فيه الآثارُ عن النبيِّ ﷺ، وأعظَمُ ما جاءَ فيها: أن الصدَقةَ سببٌ رئيسٌ في مَحْو الذُّنوب وغَسْل الخَطايا.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٣٤٢، رقم ١٠٢٥)، والبيهقي في الشعب رقم (١٢٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٤٣٣)، والحاكم (١/ ٤١٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (١٠٣٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمَا قَرَأْتُم يا عبادَ اللهِ قولَ الحَقِّ سبحانَه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١].

وفي سُنَن التِّرمِذيِّ يَقولُ ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ»(١).

ومن عَظيمِ شأنِ الصدَقةِ أنها تَدخُل مع المُتصدِّقِ في قَبْرِه، وتَظلُّ تُظلِّله يومَ القِيامةِ على رأسِه، صحَّ عنه ﷺ في حديثِ عُقبةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كما هو عِند الطبَرانيِّ في (مُعجَمِه الكبير)-، وهو حديثٌ عظيمٌ قَلَّتْ هذه الصدَقةُ أو كثُرَتِ، انظروا هذا الوعدَ العَظيمَ منَ النبيِّ الكَريمِ ﷺ قال: «وَإِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القُبُورِ، وَإِنَّمَا يَسْتَظِلُّ المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ»(٢). تَدخُل معه في قَبْرِه، تُدخِل عليه بَرْدًا وسَلامًا بنَسمات الخَيرِ والبرَكاتِ إذا كانت خالِصةً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتُظلِّله يومَ القِيامةِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ٢٨٦، رقم ٧٨٨).

والصدَقةُ مِفتاحٌ لتَيْسيرِ الأُمورِ، فإذا رأَيْت في أمرِكَ تَعسيرًا فتَصدَّقْ وأنت تَذكُرُ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠] بابٌ من أبوابِ التَّيْسيرِ تِلكَ الصدَقاتُ الَّتي يَبذُلُها العِبادُ.

إِذَنْ صدَقَ نبيُّنا ﷺ: «**مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ**» إنَّما أنت تُخرِجها من مالِكَ في الدُّنْيا من حِسابِكَ في الدُّنْيا إلى حِساب الآخِرة.

ومِن جَميلِ ما قرَأْت في بابِ الصدَقةِ ما ذكَرَه ابنُ القيِّم -رَحمهُ اللهُ تعَالَى- في كِتابِه (الوابِل الصَّيِّب) وهو يُحدِّثُنا عن فائِدةٍ عَظيمةٍ من فوائِدِ الصدَقةِ قالَ: «فإنَّ للصدَقةِ تأثيرًا عجيبًا في دَفْعِ أنواعِ البَلاءِ، ولو كانت مِنْ فاجِرٍ أو ظالِـمٍ، بل من كافِرٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يَدفَعُ بها عنه أنواعًا منَ البَلاءِ»[(١)].

فحينما يَتصدَّق هذا الإنسانُ حتَّى وإن كان فاجِرًا أو ظالِمًا أو كافِرًا؛ فإن بَلاءَ الدُّنْيا يُصرَف عنه بقَدْر هذه الصدَقةِ، وهذا من عَظيمِ شَأنِ الصدَقةِ.

---

(١) الوابل الصيب (ص:٣١).

ولكِنْ تَبقى قَضيَّةٌ واحِدةٌ، إذا صدَّق الإنسانُ وآمَنَ بمِثْل هذه النصوصِ الوارِدةِ في كِتابِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعلى لسانِ نَبيِّه ﷺ، بحَجْم ما يُوجَد في نَفْسِه منَ التَّصديقِ سيَجودُ بالعَطيَّةِ، كما قال الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ أَيْقَنَ بالخَلَفِ جادَ بالعَطيَّةِ»[1] فالَّذي يُصدِّقُ بمِثلِ هذه النصوصِ الوارِدةِ في كِتابِ الله وعلى لِسانِ رَسولِ الله ﷺ يَجود بالعَطيَّةِ؛ لأنَّه يَنتظِرُ الخلفَ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

o

(١) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء رقم (ص:٢٤٢). وأخرجه مرفوعا القضاعي في مسند الشهاب رقم (٣٦٦)، من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (ص:٦٤).

(٣)

الدِّينُ النَّصيحةُ

o

عبادَ اللهِ! إنَّ الأُخوَّةَ تَقتَضي المَحبَّةَ، والمَحبَّةُ تَقتَضي بَذْلَ النَّصيحةِ للمَحبوبِ، والنَّصيحةُ شأنُها عظيمٌ، وهي حديثُنا في هذه السِّلسلةِ المُباركةِ الَّتي بدَأْنا بِها، وهي الحَديثُ عن جَوامعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا عن قولِه ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**».

وهُما كلِمتانِ فيهما كثيرٌ منَ الدروسِ والعِبرِ والفوائدِ والأحكامِ:

«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» أصلُها جاءَ في حديثِ تَميمٍ الدارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عِندَ مُسلمٍ- قال ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلنا: لِمَنْ؟ قال: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1].

فالنَّصيحةُ حقٌّ لكلِّ مُسلمٍ على غيرِه منَ المُسلمينَ، جاء في (صَحيحِ مُسلِمٍ) من حديثِ أبي هُريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطِسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ**» أَيْ: شمِّتْه فقُلْ: يَرحَمُك اللهُ «**وَإِذَا**

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٥٥).

مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ» والشاهدُ فيه: «وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ»[١].

والنصيحةُ شأنُها عظيمٌ؛ لذا كان النبيُّ ﷺ عِند البيعةِ يُبايعُ بعضَ الصحابةِ على النَّصيحةِ لكلِّ مسلِمٍ، كما جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ) من حديثِ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ قالَ: «بَايعتُ النبيَّ ﷺ عَلى إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنصحِ لكُلِّ مسلِمٍ»[٢].

والمُجتمعاتُ بأَسْرِها لا يَتحقَّقُ لـها الأمانُ إلَّا إذا بُذِلت فيها النصيحةُ، وبَذَلَها الناصِحون وقَبِلَ بها المَنصوحون، يقولُ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَبَنو آدَمَ لا يَعيشونَ إلَّا باجْتِماعِ بعضِهم إلى بعضٍ، وإذا اجتَمَعَ اثنانِ فصاعِدًا فلا بُدَّ لهم مِنِ ائْتِمارٍ بأمرٍ وتَناهٍ عن أمرٍ»[٣] أيْ: فلا بُدَّ أن يَكون فيهم واجِبُ النصيحةِ.

والنصيحةُ هي بذلُ الخيرِ للغيرِ، فالناصحُ إنَّما يبذُلُ الخيرَ للغيرِ ويَدُلُّه عليه، وهي عمَلُ الأنبياءِ والمُرسَلينَ، ما مِنْ نبيٍّ إلَّا ووقَفَ في قومِه ناصِحًا، فهذا المَوْلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُبيِّنُ لنا شأنَ نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيثُ قالَ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، رقم (٢١٦٢).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: « الدين النصيحة..»، رقم (٥٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٦٨).

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٢].

وفي شأنِ هودٍ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨].

وفي شأنِ صالحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩].

وفي شأنِ شُعيبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

فالنصيحةُ شأنُها عَظيمٌ، ويَبلُغُ مِنْ عظمةِ شأنِ النَّصيحةِ أنه جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ) مِنْ حديثِ مَعقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥٠)، وبنحوه عند مسلم: كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم (١٤٢).

فأنا على أهلِ بَيتِي راعٍ، وأهلُ بَيتي عِندي رَعيَّةٌ، وكلُّكُم راعٍ وكلُّ راعٍ مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، فلا بدَّ لهذا الراعِي أن يَنصَحَ لرَعيَّتِه وإلَّا كان الإثمُ.

فشأنُ النصيحةِ عظيمٌ، قال أميرُ المُؤمِنين عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «لا خيرَ في قومٍ ليسوا بناصِحينَ، ولا خيرَ في قومٍ لا يُحِبُّون الناصِحينَ»[(١)].

وتُبذَلُ النصيحةُ لأسباب:

أوَّلًا: لتحقيقِ مَبدأِ العُبوديةِ في الأرضِ، ليُعبَّد الخلقُ للخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فخيرُ ما بُذِلَت فيه النصيحةُ نصيحةُ الناسِ إلى عِبادةِ اللهِ، والأخذُ على أيديهم لتَحقيقِ مَبدأِ العُبوديةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القائلِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والنصيحةُ هي احتِسابٌ، والناصحُ مُحتسِبٌ، والاحتسابُ ولايةٌ في الإسلامِ، وجميعُ الولاياتِ في الإسلامِ مقصودُها إقامةُ الدِّينِ كما قال ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ: «جميعُ الولاياتِ في الإسلامِ مقصودُها أن يكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ، وأن تَكونَ كلِمةُ اللهِ هي العُليا»[(٢)].

---

(١) انظر: رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي (ص:٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١).

ثانيًا: للأخذِ على يدِ المُنحرِفين، لتَطهيرِ المُجتمعاتِ مِنهم؛ لأنَّ المُجتمعاتِ لا تَأمنُ إلَّا حينَما يُؤخذُ على يدِ المُنحرِفين بنَصيحتِهم.

نعَمْ هُناكَ ثقافةٌ سائدةٌ خاطِئةٌ تقولُ: لا تَتدخَّلْ في خُصوصياتِ الناسِ، فيقولُ أحدُهُم: لا تَتدخَّل في خُصوصيَّتي، لا تَكُنْ عليَّ ناصحًا، وهذه ثقافةٌ خاطئةٌ، بل أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى العبادَ أن يَنصحَ بعضُهم بعضًا.

وأصلُ النصيحةِ مَأخوذةٌ منَ المنصحةِ، والمنصحةُ هي إبرةُ الخِياطةِ -أداةُ الخِياطةِ-؛ لأنَّ هذا المُنحرِفَ إنما قامَ على خَرْقِ دِينِه، وأنتَ أيُّها الناصحُ إنما جئتَ لتَخيطَ هذا الخرقَ في ثوبِ المنصوحِ بمنصحتِكَ هذه.

قامَ الخليفةُ الراشدُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ -الحديثُ عندَ ابنِ ماجَهْ في سُننِه- قال: «يا أيُّها الناسُ إنَّكم تَقرَؤُون هذه الآيةَ، وتَضَعونها في غيرِ موضِعِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]».

فاليومَ إذا قُمتَ على بعض الناس تَنصحُ لهم، تَرى في أخيكَ خطأً فتَنصَحه، أو تَرَى على أهلِ بيتِه خطأً فتَقومُ ناصِحًا تقولُ: يا فلانُ، في أهلِ بيتِكَ كذا وكذا. يَقولُ: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ يا أخي لا تَتدخَّلْ في خُصوصيَّاتِ الناسِ. لا، قال أبو بكرٍ: إنَّكم تَقرؤُون هذه الآيةَ، فتَضَعونها في غيرِ مَوضِعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ وإنَّا سمِعْنا رسولَ الله ﷺ يَقولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا المُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُونَهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ»[1] لهذا قامتِ قامتِ النصيحةُ.

فالإنسانُ إذا رأَى مِنْ غيرِه خطأً نصَحَ له، وهـذا واجبٌ منَ الواجِباتِ.

وهذه النصيحةُ لإصلاحِ حالِ المُجتمعاتِ.

ثُمَّ اعلَموا يا عبادَ اللهِ أنَّ على الناصحِ وهو يَبذُلُ هذه النصيحةَ أن يَتأدَّبَ بأدَبِ النصيحةِ، وأَنْ يَأخذَ بضوابِطِ النَّصيحةِ.

وأعظمُ آدابِ النصيحةِ أن تَنصَحَ للهِ، لا تَنصَحْ ليُقالَ عنكَ: ناصحٌ. ولا ليُشارَ إليكَ بالبنانِ على أنَّك أنتَ الناصحُ الأمينُ، ولا لتكتُبَ عنكَ الصحُفُ من مقولتك، ولا لتَجمعَ أكثرَ عددٍ منَ الأصواتِ، وتَنصَحُ في العلانيةِ ولا يَضُرُّك في الخفاءِ، اجعَلْ نَصيحتَكَ للهِ، لا يَلتفِتْ قلبُك إلى غيرِ اللهِ.

وثاني هذه الآدابِ: إذا نصَحْتَ فلا يُخالِفْ فعلُك نصيحتَكَ،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٣٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم (٢١٦٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم (٤٠٠٥).

فلا تكُنْ نصيحتُكَ في وادٍ وفعلُكَ في وادٍ آخرَ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فهذا ليس مِنَ العقلِ أن تَنصحَ غيرَكَ بالصوابِ فتُخالِف أنتَ، كما قال الرجلُ الصالحُ النبيُّ الصالحُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

وتَذكَّرْ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

يَـــا أَيُّهَـــا الرَّجُـــلُ المُعَلِّـــمُ غَـــيْرَهُ
هَـــلَّا لِنَفْسِـــكَ كَـــانَ ذَا التَّعْلِـــيمُ
تَصِـفُ الـدَّوَاءَ لِـذِي السَّـقَامِ وَذِي الضَّـنَا
كَـــيْمَا يَصِـــحَّ بِـــهِ وَأَنْـــتَ سَـــقِيمُ
لَا تَنْـــهَ عَـــنْ خُلُـــقٍ وَتَـــأْتِيَ مِثْلَـــهُ
عَـــارٌ عَلَيْـــكَ إِذَا فَعَلْـــتَ عَظِـــيمُ[1]

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص:٣٤)، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ٦٧٤)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ١٥٩)، وشرح شذور الذهب لابن هشام (ص:٣١٠)، ونسبها لأبي أسود الدؤلي.

ومِنْ أدَبِ النصيحةِ أن تكونَ سِرًّا قدرَ الإمكانِ، لتكُنْ نصيحتُكَ للمَنصوحِ في السِّرِّ قدرَ الإمكانِ؛ حتَّى لو كان هذا المنصوحُ أحدَ أبنائِكَ، فإن النفسَ قد جُبِلت على عدمِ مَحَبَّتِها للنصحِ في العلانيةِ، حتى لو كان هذا المنصوحُ صبيًّا صغيرًا، بقَدْرِ الإمكانِ أن تُسديَ له النصيحةَ سِرًّا، فقد كان نبيُّنا ﷺ في غالبِ أمرِه إذا أرادَ أن يَنصحَ لفلانٍ وفلانٍ وفلانٍ قام على المنبَرِ فقال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا؟!**»[(١)].

يَقولُ الفُضَيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كلِمةٌ في غايةِ الرَّوْعةِ- قالَ: «المُؤمنُ يَستُرُ ويَنصحُ، والفاجرُ يَهتِكُ ويَفضحُ»[(٢)]، فبعضُ الناسِ ينصحُ ولكِنَّه قصَدَ أن يَفضحَ، يَنصحُكَ في مَجلسٍ فيُنبِّه غيرَكَ ممَّنْ لا يَعلمُ بخطَئِكَ، ينصحُكَ في المَلَأ يقصدُ فضيحتَكَ، وهذا لا يَفعلُه إلَّا الفُجَّارُ، هو فعلُ الفُجَّارِ هؤلاءِ الَّذين يَقصِدون الفضيحةَ لا النصيحةَ.

وانظُروا إلى أكثرِ نصائِحِ الناسِ اليومَ أين تكونُ؟ على مواقعِ النِّتِّ، ففي مواقعِ التواصُلِ يَنصحُ بعضُهم بعضًا، ولكن الأصلُ فيها أنَّه يَفضحُ بعضُهم بعضًا.

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد، رقم (٤٥٦)، ومسلم: كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، رقم (١٥٠٤)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**ما بال أقوام يشترطون شروطا، ليس في كتاب الله**..».

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٢٥).

يقولُ العالِمُ التَّقيُّ الإمامُ الشافِعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ وعَظَ أخاهُ سِرًّا فقَدْ نصَحَه وزانَهُ، ومَن وعَظَه عَلانيةً فقَدْ فضَحَه وشانَهُ»[١].

ويَقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِ ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الجَمَاعَهْ

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ ضَرْبٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي ... فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ[٢]

نعَمِ، الدِّينُ النصيحةُ، فقوامُ الدِّينِ كلِّ الدِّينِ بذلُ النصيحةِ للآخَرينَ.

o

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٤٠).

(٢) انظر: ديوان الإمام الشافعي (ص:٧٥) ط. دار الكتب العلمية.

(٤)

اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ

o

التسامحُ دُرَّةُ الخِصالِ الحميدةِ، ونـورٌ يَتلأْلأُ في طريـقِ السائِـرين إلى اللهِ.

التسامحُ خُلُقٌ كريمٌ مِنْ أخلاقِ الكِبارِ تَعجزُ عنه هِمَمُ الكَسالَى المُبطِلين.

التسامحُ سَحابةُ خيرٍ ملؤُها الغيثُ المُباركُ.

التسامحُ انتِصارٌ وقوةٌ، وعزيمةٌ وشموخٌ في وجهِ طُغيانِ النفسِ وتَمَرُّدِها.

التسامحُ ظلٌّ ظليلٌ يَتفيَّؤُه السائِرون في مَفاوزِ الحياةِ.

التسامحُ هو حديثُنا في ظلِّ هذه السلسةِ المُباركةِ في الحديثِ عن جوامِعِ الكلِمِ في حَديثِه ﷺ.

وحديثُنا المُختارُ هو ما جاء في (مُسنَدِ أحمدَ) من حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ**»[1].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨).

نعَمْ هو مِنْ جوامعِ الكلِمِ «اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ» جُملةٌ قصيرةٌ، كلِماتُها قليلةٌ، بيدَ أنَّ المعانيَ والدروسَ والتوجيهاتِ فيها كثيرةٌ.

فالسَّماحةِ إذا تَأمَّلْت في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وفي حَديثِ رسولِه ﷺ وجَدْت أنَّ لِـهَذا الخُلُقِ شأنًا عظيمًا، يُسـأَلُ ﷺ: أيُّ الأَدْيانِ أحبُّ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ فيَقولُ: «الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»[1].

السماحة يُقصدُ بها السُّهولةُ والليونةُ والهونُ في التعاملِ معَ الآخَرين.

السماحةُ يُقصدُ بها العفوُ والصفحُ و التجاوزُ والتغاضي والتغافُلُ عن زَلَّاتِ الآخَرين.

والتسامحُ لا يَكونُ إلَّا منَ الأقوياءِ الأَتْقياءِ الكُرَماءِ؛ لذا قالَتِ الناسُ: «المُسامِحُ كَريمٌ»؛ لأنَّه تَنازلَ عن حقِّه، وبذَلَه للناسِ؛ لأنَّه يَنظُر بعينٍ في الدُّنْيا وبعينٍ أُخرى إلى الآخِرةِ.

فلماذا نَتَسامحُ؟ ولماذا أدعو نَفْسي وأَدعوكَ إلى أن تَكونَ في مَصافِّ المُتسامِحِينَ؟

الجواب: أولًا: أُسامحُ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمَرَنا جميعًا بالتسامُحِ.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٨٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وعلقه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (١/ ١٦).

نَقرَأُ في سورةِ النور يَقولُ الحقُّ سبحانَه: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

نَقرَأُ في سورةِ التَّغابنِ: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١٤].

نَقرأُ في سورةِ المائِدةِ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة:١٣].

إنَّه أمرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى!

أُسامحُ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُريدُ مِنِّي أَنْ أكونَ مُتسامِحًا مُتغافِلًا عَنْ زَلَّاتِ الآخَرين.

ثانيًا: لأَتأسَّى برَسولي ﷺ.

فيا مَنْ تُريدُ أن تَتأسَّى بالنبيِّ ﷺ، تَأسَّ به في جميعِ أَحوالِه، ومن أحوالِه أَنَّه كانَ مُتسامِحًا ﷺ، تُسأَلُ عائِشةُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهَا أُمُّنا أُمُّ المُؤمِنين والحديثُ عِندَ التِّرْمذيِّ تُسأَلُ عن خُلُقِ النبيِّ ﷺ، فتَقولُ: «لم يَكُنْ فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا ولا صخَّابًا بالأسواقِ، ولا يَجزِي بالسَّيِّئةِ السيِّئةَ، ولكِنْ يَعفو ويَصفَحُ»[1] هذا هو رسولُنا ﷺ!.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٧٤)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، رقم (٢٠١٦).

ثالِثًا: لأن القاعدةَ تَقولُ: إذا سَمَحْت سُمِحْت.

وهذا هو الحديثُ الَّذي نَتحدَّث عنه «**اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ**» إنَّ الَّذي يُسامِحُ في الدُّنيا يُسامِحُه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، والحَديثُ واضحٌ «**اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ**».

لكِنِ انظُروا الحديثَ العظيمَ؛ الَّذي أَورَدَه ابنُ خُزيمةَ في كِتابه (التَّوحيدِ): أنَّ النبيَّ ﷺ ذكَرَ -في حديثٍ طويلٍ- أحوالَ أهلِ الجَنَّةِ وأحوالَ أهلِ النارِ إلى أَنْ قال فيه: «**فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: انْظُرُوا فِي النَّارِ هَلْ تَلْقَوْنَ مِنْ أَحَدٍ عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ؟**» رحمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَشمَلُ حتَّى الذينَ في النارِ «**قَالَ: فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامِحُ النَّاسِ فِي البَيْعِ وَالشِّرَاءِ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَسْمِحُوا لِعَبْدِي كَإِسْمَاحِهِ إِلَى عَبِيدِي. فَأَخْرَجَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

أَخرَجَه بهذا العملِ أنه كان سهلًا لَيِّنًا قريبًا، يُسامحُ الآخَرينَ لا عن ضَعفٍ، ولكِنْ عن قُوَّةٍ.

رابِعًا: أُسامِحُ لأنَّني أنظرُ إلى الأجرِ، ليسَ عندَ مَن أُسامحُه، ولكِنْ أَنظرُ إلى الأجرِ عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿فَمَنْ عَفَا

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤-٥)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٧٣٥-٧٣٧)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] لا تَنتظِرِ المُكافأةَ مِمَّنْ تُسامحُ، ولا تَنتظِرْ أَنْ تَجِدَ عندَه الجميلَ، قد يَكونُ لئيمًا، لا، انظُرْ إلى الأجرِ عندَ اللهِ، فاللهُ يقولُ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

خامسًا: لأن المُسامحَ أقربُ من غيرِه إلى التَّقوَى، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٧].

سادِسًا: لأن المسامِحَ مَرحومٌ، فالذِي يعيشُ بينَ الناسِ بسَماحَةٍ مَرحومٍ.

وفي (صحيحِ البخاريِّ) مِنْ حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ يَقولُ نَبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى**»(١).

سابِعًا: لأنَّ المُسامحةَ سُلَّمُها لا يَصعدُه إلَّا الكبارُ والسادةُ، تَرى المسامحَ ليس ضعيفًا وليس بَسيطًا وليس بساذَجٍ، بلِ المسامحُ كبيرٌ، فالَّذي يَتنازلُ ويَعفو ويَتغافلُ، ولا يَبحثُ في زَلَّاتِ الآخَرين لا يَفعلُها إلَّا كُبراءُ الناسِ وعُظماؤُهم؛ لِهذا أَنشَدَ أحدُهم قائلًا:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، رقم (٢٠٧٦).

وَإِنَّ الَّـــذِي بَيْنِـــي وَبَـــيْنَ بَنِـــي أَخِـــي
وَبَـــيْنَ بَنِـــي عَمِّـــي لَـــمُخْتَلِفٌ جِـــدَّا
فَـــإِنْ أَكَلُـــوا لَـــحْمِي وَفَـــرْتُ لُـــحُومَهُمْ
وَإِنْ هَـــدَمُوا مَجْـــدِي بَنَيْـــتُ لَـــهُمْ مَجْـــدَا
وَلَا أَحْمِـــلُ الحِقْـــدَ الـــدَّفِينَ عَلَـــيْهِمُ
وَلَـيْسَ رَئِـيسُ القَـوْمِ مَـنْ يَحْمِـلُ الحِقْـدَا[1]

يَقومون على هَدْمِ مجدِه، وهو يَقومُ على بِناءِ مجدٍ لهُم، يَأكُلون في لَحْمِه ويوفرُ لحومَهم، ولا يَفعلُ ذلكَ إلَّا كبارُ الناسِ وعظماءُ الناسِ.

وقفَ رجلٌ في وجهِ الشعبيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسبَّه وشتَمَه، فقالَ الشعبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنْ كُنْتَ صادِقًا فغفرَ اللهُ لي، وإِنْ كنتَ كاذبًا فغفرَ اللهُ لكَ»[2]، لا يَجمَعُ الكلِمةَ ليَرُدَّ بها على الكلِمةِ، وإنما يَجِدُ في سكوتِه عن زَلَّاتِ الآخَرين عِزًّا وشرَفًا.

(١) نسبها في روضة العقلاء (ص:١٧٣-١٧٤) لمحمد بن مقيس الأزدي، ونسبها في ديوان الحماسة بشرح المرزوقي (ص:٨٢٩)، وتاريخ بغداد (٢٠/ ١٢٠) للمقنع الكندي.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإشراف رقم (٢٥٩)، والدينوري في المجالسة رقم (٨٠٠، ٣٣٢٤).

لِذا قالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالُوا سَكَتَّ وَقَدْ خُوصِمْتَ قُلْتُ لَهُمْ
إِنَّ الجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ
فَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ
وَفِيهِ أَيْضًا لِصَوْنِ العِرْضِ إِصْلَاحُ
أَمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وَهْيَ صَامِتَةٌ
وَالكَلْبُ يَخْسَى لَعَمْرِي وَهْوَ نَبَّاحُ[1]

ثامنًا: لأنَّ المسامحَ جاءَ بأفضلِ الأعمالِ، ففي (شُعبِ الإيمانِ) للبيهقيِّ -والحديثُ حديثُ جابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- يُسأَل ﷺ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «**الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ**»[2].

ولا يَستطيعُ الإنسانُ أن يَكونَ مُتسامِحًا إلَّا إذا أوجَدَ عندَه مادَّةَ الصبرِ.

تاسِعًا: لأنَّ المتسامحَ في راحةٍ، فالَّذي لا يُسامحُ هو الَّذي يعيشُ

(١) ديوان الشافعي (ص:٥١).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٦١١)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٩٢٦٠).

الهمَّ والنكَدَ، أمَّا المتسامحُ فهو في راحةٍ، كما قالَ أنسٌ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ -والحديثُ في مسلِمٍ- قال: «خدَمْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تِسعَ سِنينَ، فما أَعلَمُه قالَ لي قَطُّ: لم فَعَلْتَ كَذا وكَذا؟ ولا عابَ عليَّ شيئًا قطُّ»(١).

فالَّذي لا يسامحُ لا يَكونُ مُرتاحًا، فهو دائِمًا في حالِ عتابٍ معَ الآخَرين، يُعاتبُ زوجتَه تأخَّرَت عليهِ في الغَداءِ، ويُعاتبُ صاحبَه تأخَّرَ عن موعِدِه خمسَ دقائقَ، ويعاتبُ زميلَه لمَّا دعا زملاءَه لزواجِ ابنِه ولم يَدْعُه، فيعيشُ في حالةِ معاتبةٍ معَ الناسِ، يَبحثُ عَنْ زَلَّاتِ الآخَرين، يُريدُ أَنْ يعيشَ حالةَ المَظلوميَّةِ كأنَّه دائِمًا في حالةِ ظلمٍ قد وقَعَ عليه.

أجملُ كلِمةٍ قالَها أميرُ المؤمِنينَ الخليفةُ الراشدُ الفاروقُ عمرُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ ، قال: «إذا سمِعتَ الكلِمةَ تُؤذيكَ فطَأْطِئْ لها حتَّى تَتخطَّاكَ»(٢) قاعدةٌ في التعامُلِ مع الآخَرين.

فلا تَتعرَّضْ لزَلَّاتِ الآخَرين؛ لأنَّ الناسَ الَّذين حولَكَ، بشَرٌ مِثلُكَ يقعُ منهمُ الخطأُ، فكما أنَّكَ تُريدُ أن يُسامِحَكَ الآخَرون فسامِحْهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، رقم (٢٣٠٩).

(٢) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢/ ١٤٠).

قالَ الأوَّلُ:

لَـــمَّا عَفَـــوْتُ وَلَـــمْ أَحْقِـــدْ عَـــلَى أَحَـــدٍ

أَرَحْـــتُ نَفْســـي مِـــنْ هَـــمِّ العَـــدَاوَاتِ

فهو في راحةٍ يَعفو:

إِنِّي أُحَيِّي عَـدُوِّي عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ لِأَدْفَعَ الشَّـرَّ عَنِّـي بِالتَّحِيَّـاتِ

وَأُظْهِرُ البِشْرَ لِلْإِنْسَانِ أُبْغِضُـهُ كَأَنَّمَا قَدْ مَلَأَ قَلْبِي بِـالمَوَدَّاتِ[1]

أمَّا إذا عاتَبت وأكثَرْت العِتابَ فكَما يقول الشَّاعر:

إذا كُنْـــت في كـــلِّ الأُمـــورِ مُعاتبًـــا

صَـــدِيقَكَ لَـــمْ تَلْـــقَ الَّـــذِي لَا تُعَاتِبُـــهُ[2]

فأينَ تَجِدُ إنسانًا لا يقعُ منه الخطأُ، فسامِحْ يُسمَحْ لكَ.

عاشرًا: أُسامحُ لأنالَ الأجرَ المُترتِّبَ على المُسامحةِ، كما جاءَ في (سُنَن أبي داودَ) من حديثِ سهلِ بنِ معاذٍ عن أبيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ

(١) انظر: روضة العقلاء (ص:١٦٩)، والبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٨/ ١٩٠)، وأدب الدنيا والدين للماوردي (ص:١٨٢) ونسبها للشافعي.

(٢) البيت لبشار بن برد، انظر: ديوانه (١/ ٣٢٦) بشرح الطاهر بن عاشور.

الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ»[١].

فهو قادرٌ على أن يَرُدَّ على الكلمةِ بعشرِ كلِماتٍ، وقادرٌ على أَنْ يُمارسَ الهجرَ بدَلَ اليومِ عشَرةَ أيامٍ، ولكِنَّه يَتغاضَى ويَتغافلُ ويَتجاوزُ؛ لأنَّه يُريدُ هذا الأجرَ العظيمَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ».

وقد شتَمَ رجلٌ عُمرَ بنَ ذرٍّ فقالَ فيه كَلامًا سيِّئًا، فقالَ عُمرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا أَخي لا تُفرِطَنَّ في شَتْمنا، ودَعْ للصلحِ موضِعًا، فإنَّا لا نُكافئُ مَن عصَى اللهَ فينا إلَّا أَنْ نُطيعَ اللهَ فيه»[٢].

فردِّدْ هذه الكلِمةَ في نفسِكَ:

«اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ».

o

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من كظم غيظا، رقم (٤٧٧٧)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحلم، رقم (٤١٨٦).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٨١٠٦).

(٥)

أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ

o

حديثُنا هو ما جاءَ في (معجَمِ الطبَرانيِّ الكبيرِ): أنَّ النبيَّ ﷺ سأَلَه سائلٌ: يا رسولَ اللهِ ما النَّجاةُ؟ قال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»(١)، وحديثُنا عَنْ هذا الشطرِ الأوَّلِ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**».

أيُّها الباحثُ عنِ النجاةِ! النجاةُ في الدُّنْيا تَكون بإمساكِ اللسانِ، والنجاةُ في الآخِرةِ تَكونُ بإمساكِ اللسانِ، فالسائلُ حينَما سأَلَ النبيَّ ﷺ قالَ: ما النَّجاةُ؟ ولم يُفصِّلْ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، قال: ما النجاةُ؟ قال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**».

فاللسانُ به يَسعدُ المرءُ ويَشقَى، بـه يسلَمُ ويَعطبُ، بـه يفوزُ بأعلى الجِنانِ، وبه يَكونُ في قَعرِ النيرانِ.

واللسانُ أخطرُ أعضاءِ الجِسمِ، فهو يَحصدُ والنتيجةُ يومَ القيامةِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ٢٧٠، رقم ٧٤١)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٩-٨٠]، أَيْ: سنكتُب ما يقولُ، وسيرِثُ ما يقولُ.

حتَّى وإِنْ كان هذا الكلامُ في الخفاءِ، خلفَ الستورِ المُرخاةِ، حتَّى لو كان هذا الكلامُ خلفَ الأسماءِ المُستعارةِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] هؤلاءِ الَّذين يَتكلَّمون بجُبنٍ، فيُقابلونَكَ بقولٍ ومِنْ ورائِكَ يَقولونَ قولًا آخرَ.

وكلُّ كلِمةٍ تَخرجُ منَ الفمِ مَكتوبةٌ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وقد جاءَ في حديثِ معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ التِّرمذيِّ -حديثٌ طويلٌ- قال معاذٌ في آخِرِه: فأخَذَ النبيُّ ﷺ بلِسانِه وقال: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، قُلتُ: يا نَبيَّ اللهِ وإنَّا لَمُؤاخَذونَ بما نَتكلَّمُ بهِ؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[(١)].

فيا مَنْ تَبحثُ عنِ النجاةِ، وتبحثُ عَنْ طريقِها، اعلَمْ أن النجاةَ تكونُ بإمساكِ اللِّسانِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

فإذا سأَلْتَ: لماذا؟

قلتُ: أمَّا الجوابُ الأوَّلُ: لأنَّ الطريقَ الأمثلَ للجَنَّةِ هو إمساكُ اللسانِ.

ففي (صحيحِ البخاريِّ) يقولُ نبيُّنا ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ» أَيْ: لِسانَه «وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ» أَيْ: فرجَه «أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[1].

ودخَلَ أميرُ المُؤمِنين عُمرُ الفاروقُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ، دخلَ على إمامِ المُسلمينَ وخليفتِهم أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ وقَدْ مدَّ لسانَه، قالَ عُمرُ: ما تَصنعُ يا خليفةَ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قالَ: «هذا الَّذي أَوْرَدَني المَوارِدَ»، هذا أبو بكرٍ يَقولُ عن نفسِه: «هذا الَّذي أَورَدَني الموارِدَ»، إن رسولَ الله ﷺ قالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الجَسَدِ إِلَّا وَيَشْكُو مِنْ ذربِ اللِّسَانِ»[2].

واللسانُ الذربُ: هو اللسانُ الفاحشُ، السليطُ، هو الَّذي لا يقولُ إلَّا شِرًّا، فمِنَ الخطَأ أن تَقولَ: فُلانٌ لسانُه ذربٌ. فأنتَ تَذمُّه وأنتَ تقصِدُ مدحَه. فاللسانُ الذربُ: هو الفاحشُ البذيءُ المتسلِّطُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٤)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٥٩٦).

يقولُ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الجَسَدِ إِلَّا وَيَشْكُو مِنْ ذَرْبِ اللِّسَانِ» أي: مِنْ شَرِّه وفُحْشِه وشِدتِه.

وفي كِتابِ (الأدَبِ) لابنِ أبي شَيبةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقولُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما على الأرضِ شيءٌ أحوجُ إلى طولِ سِجنٍ مِنْ لِسانٍ»[(١)]، فهو أحوجُ ما يَكونُ إلى السجنِ.

وهي وَصيَّةُ النبيِّ ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ».

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ
فَالمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
وَزِنِ الكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ
ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ وَادٍ تَخْطُبُ[(٢)]

بعضُ الناسِ لا يَعرفُ إلَّا أن يَتكلمَ، فتَراهُم في كلِّ مجلِسٍ في كلِّ مكانٍ يَأخذُ الحديثَ، يُثرثِرُ بكلِّ شيءٍ وفي كلِّ شيءٍ، وفي كل وقتٍ؛ لذا يَقولُ يُونُسُ بنُ عبيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خِصْلتانِ إذا صلَحَتا مِنَ العَبدِ صلَحَ

(١) الأدب لابن أبي شيبة رقم (٢٢١)، وفي المصنف (١٣/ ٤٨٩)، وأخرجه أيضا أبو داود أبو داود في الزهد رقم (١٤٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٤٩، رقم ٨٧٤٤).
(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس من القصيدة الزينبية، انظر: مجاني الأدب في حدائق حدائق العرب (٤/ ٩١)، ومجموعة القصائد الزهديات (٢/ ٤٨٠).

ما سِواهُما مِنْ أَمرِه: صلاتُه ولِسانُه»[١].

وفي كِتابِ (المُوطَّأ) للإمامِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُذكرُ أنَّ عيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مَرَّ بخِنزيرٍ فقالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للخِنزيرِ: «انْفُذْ بِسَلامٍ» -يَعنِي: مُرَّ بسَلامٍ-، قيلَ: يا نبيَّ اللهِ: تَقولُ هذا لِخنزيرٍ؟ قال: «إنِّي أَكرَهُ وأخافُ أَنْ أُعوِّدَ لِسانِي النُّطقَ بالسُّوءِ»[٢]؛ لأنَّه يُريد أن يُربِّيَ نفسَه ﷺ على ألَّا يُعوِّدَ لسانَه إلَّا أن يَقولَ حقًّا، وألَّا يَقولَ إلَّا حسَنًا منَ القولِ.

ولا تَكونُ النجاةُ إلَّا بإمساكِ اللِّسانِ؛ لأنَّ الَّذي انفلَتَ لسانُه وبَعُدَ عنِ الحقِّ بعُدَ عَنْ مجلسِ النبيِّ ﷺ في يومِ القيامةِ، في حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ عندَ التِّرْمذيِّ يَقولُ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ**» يَكونونَ بعيدينَ عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَكونونَ أبغضَ الخلقِ لَهُ «**وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، قد علِمْنا الثَّرثارين والمُتشدِّقين فما المُتفيهِقونَ؟ قال: «**المُتَكَبِّرُونَ**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٠).

(٢) الموطأ (٢/ ٩٨٥، رقم ٤).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (٢٠١٨).

ولا تكونُ النجاةُ إلَّا باستِقامةِ اللِّسانِ وبإمْساكِه عنِ الشرِّ؛ لأنَّ اللسانَ يَقودُ البدَنَ، فإنِ استقامَ استقامَ البدَنُ، وإنِ اعوَجَّ اعوَجَّ البدَنُ، ففي (سُنَنِ التِّرْمِذيِّ) من حَديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَقولُ ﷺ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ» في كلِّ صباحٍ «فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ»، أي: تَخضَعُ له وتَذِلُّ «تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[1]، هو القاطرةُ الَّتي تَجُرُّ القطارَ إن صلَحَ صلَحَ البدنُ.

وفي الحديثِ الآخَرِ عندَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ في (مُسنَدِه) حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ يَقولُ ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»[2].

فإذا استَقامَ اللِّسانُ استَقامَ القلبُ، واستقامَ الإيمانُ.

إذَنْ هي وَصيَّةٌ خالِدةٌ من جوامِعِ كلِمِه ﷺ: مَنْ أَرادَ النجاةَ فلْيُمسِكْ عليهِ لِسانَه.

وقَد لقِيَ سُفيانُ بنُ عبدِ اللهِ الثقَفيُّ رسولَ الله ﷺ، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ: ما أخوفُ ما تَخافُ عليَّ؟ فأخذَ رَسولُ اللهِ ﷺ بلِسانِ نَفْسِه ثُمَّ قال:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩٦)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨).

«هَذَا»[1] أي: هذا أخوفُ شيءٍ أخافُ مِنْه؛ لأنَّ بهذا اللسانِ قد تَذهَبُ كلُّ الحسَناتِ، حسَناتُ الصلاةِ، والصيامِ، والحَجِّ، والصدَقاتُ كلُّها قد تَذهَبُ بهذا اللِّسانِ.

وحديثُ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ عن تِلكَ المَرأةِ الَّتي ذُكِرَت للنبيِّ ﷺ: يـا رسولَ اللهِ فُـلانةٌ تَقومُ الليلَ، وتَصومُ النهارَ، وتَفعَلُ، وتَصدَّقُ، وتُؤذِي جِيرانَها بلِسانِها، قال: «لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» «تقومُ الليلَ» يَعنِي: تُصلِّي القِيامَ، و«تَصومُ النهارَ» غير رمَضانَ، فتصومُ السِّتَّ من شَوَّالٍ، وتصومُ يومَ عرَفةَ، ورُبَّما صامَتِ الأيامَ البِيضَ، فعِندها صيامٌ، وعِندَها قيامٌ، وعندَها صلاحٌ يُرَى، لكنَّها ضعُفَت أمامَ هذا العضوِ وهو اللسانُ، تُؤذِي جِيرانَها بلِسانِها، قال: «لَا خَيْرَ فِيهَا» فأينَ الصيامُ؟ وأينَ القيامُ؟ أينَ فِعلُ الخيرِ؟ أينَ الصدَقاتُ؟ قال: «لَا خَيْرَ فِيهَا! هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

في الحديثِ نفسِه قالوا: يا رَسولَ الله: وفُلانةٌ لا تُصلِّي إلَّا المَكتوبةَ، حتَّى السُّنَنُ الرواتِبُ ليسَتْ عندَها، ليسَ عِندَها سُنَنٌ، لا تُصلِّي إلَّا المَكتوبةَ، وتَصدَّقُ بأثوارٍ -أي: تَتصدَّقُ بالأَقطِ الشيءِ اليسيرِ- ولا تُؤذِي

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤١٠)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٢).

أحَدًا، قال: «هِيَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[١].

ولذا فلا يَغتَرَّ أحَدُنا بصلاتِه، وصيامِه، وصلاحِه، وتَدَيُّنِه، فيَسمحَ لنفسِه أَنْ يَتكلَّمَ في فلانٍ وفُلانٍ وفُلانٍ؛ لأنَّ بعضَنا يَرَى صلاحَه ودِينَه وتَدَيُّنَه مُبرِّرًا أن يَتكلَّمَ في الآخَرين، وهذا منَ الخطَأِ الفاحشِ، والمُصيبةُ أنَّ البعضَ يَتكلَّمُ في الآخَرين، وهو يَزعُمُ أنه بهذا الكلامِ يُطيعُ اللهَ، يَقولُ: أنا أَتكلمُ في الناسِ من أجلِ الدِّينِ، أَتكلَّمُ في الناسِ من أجلِ الدَّعْوةِ، أَتكلَّمُ في الناسِ من أجلِ الصَّلاحِ، وهو إنما يُرضِي غرورَ نفسِه، إنما يَتكلَّمُ من أجلِ نفسِه!.

وكَمْ أَعجبَني كلامٌ لابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَختمُ به، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والعجَبُ أنَّ الإنسانَ يَهُونُ عليه التحفُّظُ والاحترازُ من أكلِ الحرامِ، والظلمِ، والزِّنا، والسرِقةِ، وشُربِ الخمرِ، ومنَ النظرِ المُحرَّمِ وغيرِ ذلِك»، هذا كلُّه يَهون عليه، فلا يَشربُ خمرًا، لا يَزني، لا يَسرقُ، لا يَأكلُ الحرامَ، لا يَظلمُ، قال: «ويَصعُب عليه التحفُّظُ مِنْ حرَكةِ لسانِه، حتَّى تَرَى الرجلَ يُشارُ إليه بالدِّينِ والزهدِ والعِبادةِ، وهو يَتكلَّمُ بالكلِماتِ مِن سَخَطِ اللهِ لا يُلقِي لها بالًا، يَنزلُ بالكلِمةِ الواحدةِ مِنها أبعدَ مِمَّا بينَ المَشرِقِ والمَغربِ،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (١١٩).

وكم تَرَى مِنْ رجُلٍ مُتورِّعٍ عنِ الفواحِشِ والظلمِ، ولِسانُه يَفرِي في أعراضِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا يُبالِي ما يَقولُ»[1] إنها مُصيبةٌ عظيمةٌ.

وقد قيل: يا رسولَ اللهِ، ما النجاةُ؟ فقالَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**».

أَخي المُبارَكُ! أَنْ يُقالَ لكَ في المجلسِ: يـا فـلانُ، لماذا لم تَتكلَّمْ؟ أفضلُ مِنْ أن يُقالَ لكَ: يا فلانُ، لماذا تَكلَّمْتَ؟

o

(١) الداء والدواء (ص:١٥٩).

(٦)

مَنْ يُحرَمِ الرفقَ يُحرَمِ الخيرَ كلَّه

o

مَعاشرَ الأحبَّةِ!

إنَّ الرفقَ خُلُقٌ كريمٌ يُحِبُّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إنَّ الرفقَ زَيْن في كلِّ شيءٍ، وهو يَزينُ كلَّ شيءٍ.

إنَّ الرفقَ لا يَأتي إلَّا بخيرٍ.

إنَّ الرفقَ يَعودُ على صاحِبِه بخيرَيِ الدُّنْيا والآخِرةِ.

إنَّ الرفقَ مِفتاحُ القلوبِ.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

لا يَزالُ حديثُنا مُتَّصِلًا في بيانِ جوامعِ كلِمِ النبيِّ ﷺ، وحديثُنا الَّذي نحنُ بصدَدِه اليومَ ما جاءَ في (سُنَنِ أبي داودَ) أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرفق، رقم (٤٨٠٩)، من حديث جرير

هذا الحديثُ مِنْ جُملةِ جوامعِ كلِمِ النبيِّ ﷺ يُبيِّنُ فيه أنَّ الَّذي يُحرمُ الرفقَ هو محرومٌ من كلِّ خيرٍ، هذا الَّذي لا يَعرفُ طريقَ الرفقِ، ولا يَفتحُ على نفسِه بابَ الرفقِ فإنَّه مَحرومٌ مِنْ كلِّ خيرٍ؛ لأنَّ نبيَّنا ﷺ بيَّن أنَّ الرفقَ إذا دخَلَ في شيءٍ زانَهُ كما قالت أُمُّنا عائِشةُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا -والحديثُ عندَ مسلِمٍ في (صحيحِه)-: قال ﷺ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُرْفَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»(١).

فكلُّ شيءٍ يَدخلُ فيه الرفقُ يَزينُ، وكلُّ شيءٍ يُنزعُ منه الرفقُ يَشينُ، وكذا يَقولُ ﷺ كما جاءَ في (مُسندِ أحمدَ) -وهو حديثٌ عظيمٌ- مِنْ حَديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا أيضًا قالَ: «يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ»(٢).

لذا فإنَّ البيوتَ الَّتي يَكثُرُ فيها الرفقُ هي بيوتٌ مَرحومةٌ، والبيوتُ الَّتي ليس فيها إلَّا العُنفُ والشِّدةُ والغِلظةُ فهي مَحرومةٌ، أمَّا الأُولى فهي مَرحومةٌ محبوبةٌ عندَ اللهِ.

= ابن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أيضا مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٤).

جاءَ في كِتابِ (ذمِّ الغضبِ) لابنِ أبي الدُّنيا مِنْ حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ»[1] أيِّ بيتٍ هذا، مُؤسَّسةٌ، بيتٌ سَكنِيٌّ، مجلسٌ فيه إِخوةٌ، إذا أحبَّهمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَدخلَ عليهمُ الرفقَ، فإذا رأَيْتَ الرفقَ ليسَ له وُجودٌ في هذا المُكوَّنِ فاعلَمْ أن هذا المجتمعَ غيرُ محبوبٍ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

عبادَ اللهِ! ميادينُ الرفقِ مُتعدِّدةٌ، ومجالاتُه متعدِّدةٌ، ولو عدَدْناها لطالَ المقامُ؛ لكنِ العاقلُ يَكفيهِ المثالُ الواحدُ أوِ الاثنانِ، ومعَ ذلك فهناك أربعةُ نماذجَ؛ لأنَّنا نَحتاجُ إلى الرفقِ نَموذجًا:

المَيدانُ الأوَّل مِن مَيادِين الرِّفق: نحتاجُ إلى الرفقِ معَ المخالفِ، والخِلافُ أمرٌ واقعٌ، قد تَختلفُ مع القريبِ قبلَ البعيدِ، قَدْ تَختلفُ معَ الحبيبِ قبلَ العَدوِّ، قد تَختلفُ مع المسلمِ قبلَ الكافرِ، فهذا الخلافُ لا بُدَّ أن يكونَ مَمزوجًا بالرفقِ؛ لأن الرفقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلَّا زانَه، وتَصوَّرْ خلافًا بينَكَ وبينَ أخيكَ لكِنَّه خلافٌ زينٌ دخَلَ فيه الرفقُ فزانَه.

وقد جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ) أنَّ أُمَّ المؤمِنين أُمَّنا عائِشةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا تقولُ: كانَ اليهودُ -واليهودُ كُفَّارٌ، والنصارَى كُفَّارٌ، ومعَ ذلكَ

(١) انظر: كنز العمال (٣/ ٥٢، رقم ٥٤٤٩).

انظُرْ إلى الرفقِ- يُسلِّمون على النبيِّ ﷺ فيَقولون: السامُ عليكُمْ، السامُ عليكَ. يَعني: الموتُ عليكَ، قالَتْ عائشةُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهَا: ففَطِنْتُ لقولِهم فقُلتُ: عليكُمُ السامُ واللعنةُ إخوانَ القِردةِ والخَنازيرِ. فقالَ نبيُّنا ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» قالَتْ: يا نَبيَّ اللهِ، أَوَلَمْ تَسمَعْ ما يَقولونَ؟ قال: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي أَنِّي أَرُدُّ ذَلِكَ عَلَيهِمْ، فَأَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ»[1] انتهى المَوضوعُ، هم يَقولونَ: السامُ عليكَ. وأنا أقولُ: وعلَيْكُم، ويَنتهي الموضوعُ.

فلماذا الخروجُ عن هذا الرفقِ؟

هي دَعوَة، إنما أَتوجَّهُ بها إلى نَفْسي، وإليكم عِبادَ الله، إذا اختَلَفْت فلا تَبتَعِدْ عن الرفقِ، رِسالةٌ أَتوجَّهُ بها إلى الخُطباءِ، إلى الإعلامِيِّين، إلى الكُتَّابِ، إلى غيرِهم، لنَبتعِدَ عن السبِّ والشتمِ والازدِراءِ، والتحقيرِ للمُخالِفِ وإن كنتَ على يَقينٍ أنه مُخطِئٌ، لا تحتاجُ إلى هذه العباراتِ، ولا تحتاجُ إلى هذا المنهجِ؛ خاصَّةً في زمنٍ نَعيشُه اليومَ؛ زمَنِ فِتنةٍ، ومثلُ هذه الكلماتِ تزيدُ الانقِسامَ إلى انقِسامٍ، نحنُ في حاجةٍ إلى مَن يَدعو إلى الوئامِ، وإلى التَّلاحُمِ، لا إلى مَن يَدعو إلى المَلاحمِ، في زمَنٍ نَدعو فيه إلى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، رقم (٦٣٩٥)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، رقم (٢١٦٥).

التكاملِ لا التلاكُمِ.

يَقولُ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ» ما رَدَّ على اليهودِ، وإنما رَدَّ على عائِشةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهَا قالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» يَكفِي هم يَقولونَ: السامُ عليكَ. وأنا أقولُ: وعَلَيْكُمْ. وانتهى المَوضوعُ، فهذا مِيزانٌ نحتاجُ أن نَعيشَه ليس على المِنبَرِ هنا، بل نَعيشُه في حياتِنا.

فالرِّفقُ مع الزوجةِ حينما تَختلِف مَعي، ومع الولَدِ حينَما يَختلفُ معي، أَحتاجُه في طريقي حينَما أَلتقِي بمَنْ يَختلِف معِي، رِفق بالمُخالِفِ.

مَيدانٌ ثانٍ منَ المَيادينِ: رِفقُ القائدِ برَعيَّتِه، حاكمًا مع المحكومِ، وزيرًا في وَزارتِه، قائدًا في وحدتِه، والدًا في بيتِه، نَحتاجُ إلى الرفقِ، إنما نُشاهِدُ مشاهِدَ منَ العُنفِ والغِلظةِ والشِّدةِ هي أبعدُ ما تكونُ عن مَنهجِ النبيِّ ﷺ، اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُخاطِبُ كلَّ قائِدٍ يَقولُ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

يَقولُ جابرٌ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ -والحديثُ عندَ أبي داودَ- وانظروا إلى هذا الَّذي يَتكلَّمُ إنَّه ﷺ يُوجِّهُنا بقولِه وبفِعْله، يَقولُ جابرٌ: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَتخلَّفُ في المَسيرِ» يَعنِي في القافِلةِ «فيُزجِي الضعيفَ،

ويُردفُ، ويَدعو لَهُم»[١].

يَذهَبُ في آخِرِ القافِلةِ يُنادِي على الدابَّة ويُزجِيها أي يَضرِبها حتَّى تُسرعَ، والَّذي ليسَ عندَه شيءٌ يُركَب يُردِفُه ﷺ، ثُم يَدعو للجميعِ.

بَلْ كانَ ﷺ يَدعو لِمَنْ ولِيَ مِنْ أمرِ هذه الأُمةِ شيئًا فرفَقَ بِهِمْ أن يَرفُقَ اللهُ بِهِ، فانظروا ماذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالَ: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**»[٢] أيًّا كانت هذه الولايةُ، أنت وَليٌّ في بيتِكَ، والإمامُ وليٌّ في محرابِه، لا بُدَّ أن يَرفُقَ، والخطيبُ وليٌّ على مِنبَرِه لا بُدَّ أنْ يَترفَّقَ، والمَسؤولُ والحاكمُ وكلُّ والٍ، إذا شَقَّ على الأُمَّةِ أصابَتْه دعوةُ النبيِّ ﷺ، وإذا رفَقَ بهم أَصابَتْه دعوةُ النبيِّ ﷺ.

مَيدانٌ ثالثٌ من ميادينِ الرفقِ: الرفقُ بالنَّفْسِ، هذه النفسُ لها حقٌّ «**وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[٣] فارْفُقْ بهذه النفسِ، وحديثٌ أخُصُّ به أبنائي

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في لزوم الساقة، رقم (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم (١٨٢٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، رقم (١٣٦٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وبنحوه عند البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم (١٩٦٨)، من حديث سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشبابَ: إنَّ هذه النفسَ لا بُدَّ أَنْ نَترفَّقَ بها، ومِنْ أَعظمِ صورِ الرفقِ بالنفسِ أَنَّكَ تَجعَلُها طيِّعةً للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومِنْ أعظَمِ صُورِ العُنفِ معها هو إبعادُها عن طريقِ اللهِ، وإيقاعُها في معصيةِ اللهِ، وجَعْلُها تَتعاطَى ما حرَّمَ اللهُ؛ لهذا فإنَّ الَّذي يَتجرَّأُ على تعذيبِ نفسِه في طريقِه، في قيادتِه، في تَحسِّيه للخمرِ والمخدِّراتِ وغيرِ ذلكَ؛ فإنَّه لا يَكونُ رفيقًا بنَفْسِه.

وهذا نبيُّنا ﷺ يقولُ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ» وهذا يَصلُحُ لبعضِ أبنائِنا الشبابِ الَّذين يَتسلَّقون الجبالَ بسَيَّاراتِهم قَدْ يَسقطُ ويَموتُ، وهو لم يُرِدِ الموتَ، لكِنْ هذا أمرٌ مُحتمَلٌ، قال: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، أو يقطعُ الإشارةَ الحمراءَ مُستهتِرًا، فيَقتُلُ نفسَه أو يَقتلُ غيرَه، أو يَتجاوَزُ السرعةَ القانونية هو يَقتلُ نفسَه في الحقيقةِ، أو هذا الَّذي يَتعاطَى، وكم نَسمَعُ يوميًّا عنِ الَّذي يَموتُ متعاطِيًا للمُخدِّراتِ، يقولُ نبيُّنا ﷺ: «وَمَنْ تَحَسَّى سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمُّهُ فِي يَدِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَحَسَّاهُ، فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، قال: «وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٢٩-٣٠].

ومِنْ مجالاتِ الرفقِ: الرفقُ بالضُّعَفاءِ، هذا الضعيفُ قد يَكونُ خادِمًا في بيتِكَ، عامِلًا في مَعملِكَ، قد يَكونُ زوجةً -والزوجةُ ضعيفةٌ- قد يَكونُ ابنًا، الرفقُ بهؤلاءِ مطلوبٌ.

وحينما أَتحدَّثُ عن هذا الأمرِ أَستحضِرُ وأَستذكِرُ وإيَّاكم صورًا منَ العُنفِ نَراها في مُجتمعاتِنا، والدٌ لا يحملُ في قلبِه ذرَّةً منَ الرحمةِ والشفَقةِ فيَضرِبُ أبناءَه حتى الموتِ، وقَد قرَأْتُ في الصحُفِ خَبَرَ اعتداءِ والدٍ على ابنتِه هو وزوجتُه حتَّى الموتِ، وهذا ليسَ في مُجتمعٍ بعيدٍ، إنما في بلادِنا مَوجودةٌ هذه الصورةُ، وما عليكُم إلَّا أن تَزوروا بعضَ المراكِزِ الَّتي تُعنَى بهذا البابِ فإنَّكم ستَجِدون العجبَ مِنْ تعنيفِ الآباءِ لأبنائِهم، فهؤلاءِ لم يَرفُقوا.

أو بمَجموعةٍ منَ الشبابِ يَعتَدون على عامِلٍ في الطريقِ، ويُصوِّرون هذا الاعتِداءَ ويَنشُرونه من بابِ التَّفاخُرِ، وبيانِ أنَّ هذا منَ الرُّجولةِ، وليسَ منَ الرجولةِ في شيءٍ، بل هَؤلاءِ سقَطَتْ رجولتُهم حينَما فعَلوا هذا

الفِعلَ، وذهَبَت مروءتُهم.

هذا الَّذي يَعتَدِي على زوجتِه حينما تَشتكي تَقولُ: أنا ليسَ لي في هذه البلادِ إلَّا الله، ليسَ لي فيها والِدٌ ولا ولدٌ، وزَوجي يَعتدِي عليَّ بالضربِ يَعلَمُ أني ضَعيفةٌ، فهؤلاءِ لم يَعرِفوا الرفقَ.

وقد مرَّ نبيُّنا ﷺ -والحديثُ في صحيحِ مُسلمٍ- على أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ أبو مَسعودٍ الأنصاريُّ: كُنتُ أَضربُ غُلامًا لي فسمِعتُ صوتًا مِن خَلفي يَقولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» قالَ: فمِنْ شِدَّةِ الغضبِ لم أَتعرَّفْ على الصوتِ، فالتَفَتُّ فإذا هو رسولُ اللهِ ﷺ، فسقَطَ السوطُ مِن يَدي، قال: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَلَّـهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»[1] اللهُ أقدرُ عليكَ مِنكَ علَيْه، أنتَ الآنَ في حالِ قُوَّةٍ، لكِنَّ اللهَ أقوَى منكَ، وستَصيرُ في يومٍ منَ الأَيَّامِ في حالةِ ضَعفٍ وسيَتسلَّطُ عليك مَن هو أَقوَى مِنكَ.

فكُلُّ قويٍّ يَغترُّ بقُوتِه وسُلطانِه ومَركزِه ولِسانِه وجاهِه ومالِه، ليعلَمْ أن هذا كلَّه زائلٌ، ويَبقَى القويُّ سبحانه يَأخذُ لهذا الضعيفِ حقَّه في الدُّنيا قبلَ الآخِرةِ، يَأخذُ لهذا الضعيفِ حقِّه في الدُّنيا، وقد يَراهُ هذا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، رقم (١٦٥٩).

الضعيفُ وقد لا يَراهُ، لكِنَّ التاريخَ يُسجِّلُ لنا ما حصَلَ لهؤلاءِ الَّذين اغتَرُّوا بقُوَّتِهم؛ فما كان في قلوبِهم رِفقٌ ولا رحمةٌ بهؤلاءِ الضُّعفاءِ.

إذَنْ فقد صدَقَ رسولُنا ﷺ: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ**».

o

(٧)

تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ

o

أيُّها الأخيارُ! حديثُنا الَّذي نَتحدَّث فيه هو ما جاءَ في (سُنَن التِّرْمِذيِّ) أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»(١).

وصِلةُ الرحِمِ شأنُها عظيمٌ، فهي ضَرورةٌ شرعيةٌ، وحاجةٌ فطريةٌ اجتِماعيةٌ، أمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها في كِتابِه الكريمِ، ورغَّبَ فيها، وامتدحَ مَن أخَذَ بها، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١].

وحذَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن قَطيعةِ الرحِمِ فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥].

وفي (صَحيحِ مُسلمٍ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ مِنَ القَطِيعَةِ. قَالَ: نَعَمْ،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعليم النسب، رقم (١٩٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَنْ أَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكَ لَكِ»، ثُم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٢-٢٤]»[(١)].

وفي (صَحيحِ البُخاريِّ) مِنْ حديثِ أبي أيُّوبَ الأنصارِيِّ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ قَال: أتَى رجُلٌ يَقولُ: يا رسولَ اللهِ، أَخبِرْني بعمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ. قال: «تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»[(٢)].

فصِلةُ الرحِمِ شأنُها عظيمٌ، والواصِلُ لرحِمِه شأنُه عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَظيمٌ، وكذا قَطيعةُ الرحِمِ ذنبٌ وكبيرةٌ عظيمةٌ.

نَرَى اليومَ مِنْ مَشاهِدِ صِلةِ الرحمِ ما تُرفع بها رأسُكَ، ونَرَى في المُقابِلِ أيضًا مِن قَطيعةِ الرحِمِ ما تُطأطِئُ به رأسَكَ تَخشَى أَنْ تَرَى هذه المَشاهدَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم، رقم (٥٩٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، رقم (١٣).

وصِلةُ الرحِمِ هي ليسَتْ تلكَ الصورةَ الَّتي نُعلِّقُها على جُدرانِ المَنازلِ والمَجالسِ وفيها شجَرةُ العائِلةِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرها.

صِلةُ الرحِمِ ليسَ أَنْ تَحرِصَ على أن تَكونَ أنتَ وأولادُكَ في أصلِ هذه الشجَرةِ.

إنما صِلةُ الرحِمِ هي أن تَصلَ أرحامَكَ، ثُمَّ قبلَ ذلِكَ تَتعلَّمُ هذه الأنسابَ، تَتعلَّمُ أبناءَ عُمومتِكَ مَنْ هُمْ، وهذا الفخذُ مَن هو؛ لأَجْلِ أن تَصِلَ إليه لا أَنْ تَفتخِرَ عليه؛ لهذا يَقولُ ﷺ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ» لا لتَغتَرُّوا بهم، ولا لتَتكاثَروا بهم، ولا لتَترفَّعوا عليهم، بل: «مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ».

وقاطِعُ الرحِمِ هو عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرتكِبٌ لذنبٍ عظيمٍ، وهذا الذنبُ له أثَرٌ في أرضِ الواقعِ في الدُّنْيا والآخِرةِ، وأُذكِّرُكم ونَفْسي ببعضِ هذه الآثارِ:

الأثرُ الأولُ لقطيعةِ الرحِمِ: الإصابةُ باللَّعنةِ والصَّممِ والعَمَى.

فالإصابةُ باللعنةِ، أي: الإبعادِ مِنْ رحمةِ اللهِ، والإصابةُ بالصممِ فلا يسمعُ الحقَّ هو يسمعُ ما يَدورُ حولَه، لكِنَّه لا يسمعُ الحقَّ، والعمَى عن رؤيةِ الحقِّ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

فهذا الَّذي قطَعَ رحِمَه يصابُ بهذا الأثَرِ العظيمِ، كيف إذا كانت هذه الرحِمُ المَقطوعةُ هي أقربَ الأرحامِ أُمًّا كانت أو أبًا، إنكَ تَعجَبُ حينَما يَهجرُ الولدُ والدَه ويَقطعُ رحِمَه، يقولُ: أنا لا أُكلِّمُ الوالدَ، ولا أُكلِّمُ الوالدةَ، ولا أكلِّمُ أخي شَقيقي، ولا أُكلِّمُ ابنَ عمَّتي، فهذا يَعيشُ مَطرودًا مِنْ رحمةِ اللهِ.

أثَرٌ ثانٍ: عدمُ قَبولِ العملِ:

وهذه مُصيبةٌ أكبرُ، فهذا هو كلامُ النبيِّ ﷺ، في (مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «**إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ**»، وهذا حديثٌ حسَنٌ حسَّنَه شُعيبٌ الأرناؤوطُ في (مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ) قال: «**إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ**»[1]، أيًّا كانَ هذا الرحِمُ قريبًا أو بَعيدًا؛ لذا صِلْ رحِمَك ولو بالسَّلامِ، وبعضُ الأرحامِ يُسبِّبُ الاقترابُ منهم المشاكلَ، ومعَ ذلك اقتَرِبْ منه، صِلْ هذه الرحِمَ ولو بسَلامٍ لا يَحصُلُ الهجرُ حتَّى يُقبَلَ العملُ.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَثَرٌ ثالثٌ خطيرٌ: أنَّ قاطعَ الرحمَ تُصيبُه العقوبةُ في الدُّنْيا قبلَ الآخِرةِ.

ولا نَعلمُ كيفَ تَكونُ العقوبةُ، فقد يَكونُ الفقرُ عُقوبةً، وقد يَكونُ الهمُّ والحُزنُ عُقوبةً، وقد يَكونُ تَعسيرُ الأمورِ عُقوبةً.

لا نَدرِي ما هي العُقوبةُ، الَّذي نَعلَمُه أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ -كما جاءَ عندَ البُخاريِّ في كِتابِه (الأدبِ المُفردِ) حديثُ أبي بَكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالبَغْيِ**»[(١)].

فكَمْ مِنْ شخصٍ قد قطَعَ رَحِمَه، هذا الكلامُ لي ولكَ، نُريدُ أن نُعيدَ هذه المِياهَ إلى مَجراها الصحيحِ، وإلَّا حصَلَتِ العُقوبةُ.

ومنَ العُقوباتِ ما جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ) وهي أخطَرُ هذه العُقوباتِ، يَقولُ حبيبُنا ﷺ -في حديثِ جُبيرِ بنِ مُطعمٍ رضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ- قالَ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**»[(٢)].

هذه الآثارُ الأربعُ إذا سمِعها العاقلُ قالَ: تُبْتُ إليكَ رَبِّي. لأنَّها

---

(١) الأدب المفرد رقم (٦٧)، وأخرجه أيضا أحمد (٥/ ٣٦)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم (٤٩٠٢)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١١)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب البغي، رقم (٤٢١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٩٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

ذنوبٌ، بل هي مِنْ كبائِرِ الذنوبِ، والعاقلُ المُخطئُ يَعقِلُ نفسَه في الدُّنيا في فترةِ الإمهالِ قبلَ أَنْ يُحالَ بينَكَ وبين هذه التوبةِ.

ولكِنَّني لا أريدُ أن نَقِفَ عندَ هذه النُّقطةِ، أُريدُ أن أَتجاوزَها إلى المُحسِنين مِنْ أمثالِكم، أُريدُ أَنْ أَتجاوزَها إلى الواصِلِين مِنْ أمثالِكم، الَّذين وصَلوا أرحامَهم، وبرُّوا أرحامَهم، وأَحسَنوا إلى أرحامِهم، لا بُدَّ أن يَسمَعوا ماذا أعَدَّ اللهُ لهم، فكما أنَّ هناكَ مَنْ قطعَ رحِمَه فإنَّ الأكثرُ -ولله الحمد- مِمَّنْ وصلَ رحِمَه.

فلْيَسمَعْ ولْيَرفَعْ رأسَه بهذه الأُجورِ الَّتي أعَدَّها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للواصِلين لأرحامِهم.

الثمرةُ الأُولى: لكَ أيُّها الواصلُ:

أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُبارِكُ لكَ في الأعمالِ ويُنمِّي لكَ في الديارِ في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا -عندَ البَيهقيِّ في (شُعبِ الإيمانِ)- يقولُ نَبيُّنا ﷺ: «**صِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يُعَمِّرْنَ الدِّيَارَ، وَيَزِدْنَ فِي الأَعْمَارِ**»[1].

وهذا أمرٌ عظيمٌ، انظُرْ أيُّها الواصلُ إلى عُمَّار الديارِ فقَد يَتصوَّرُ

(١) شعب الإيمان رقم (٧٥٩٩).

البعضُ أنَّ عُمَّارَ الدارِ بأَنْ تكثُرَ له هذه الدُّورُ والمنازلُ، ولكِنها باتِّساعِ الصدورِ بالفرحِ والسرورِ.

ثمَرةٌ ثانيةٌ منَ الثِّمارِ العَظيمةِ:

أنَّ الواصلَ يَصِلُه اللهُ، يَصِلُه بالقوةِ، يَصِلُه بالعطاءِ، يَصِلُه باللُّطْفِ والرحمةِ، يَقولُ ﷺ في حديثِ أُمِّنا عائشةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا أيضًا عندَ البُخاريِّ قالَ: «الرَّحِمُ شَجْنَةٌ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»[1]، فالواصلُ موصولٌ حبلُه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمَرةٌ ثالِثةٌ وهي عَظيمةٌ جِدًّا:

أَنَّ أَعجَلَ الطاعاتِ ثوابًا هي صِلةُ الرحِمِ، يَقولُ حبيبُنا ﷺ في حديثِ أبي بَكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ ابنِ حِبَّانَ في (صحيحِه) -وتَدبَّروا هذا الحديثَ العظيمَ، فهو يَحتاجُ إلى تَأمُّلٍ وتَدبُّرٍ، يحتاجُ إلى أَنْ تَعيشَ هذا الحديثَ واقِعًا، وهي ثمَرةٌ غاليةٌ- يَقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا صِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ البَيْتِ لَيَكُونُوا فَجَرَةً» ما هُمْ بمُؤمِنين، ما هُمْ بصالِحين، إذِ الغالبُ على أمرِهمُ الفجورُ «فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا تَوَاصَلُوا، وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَتَوَاصَلُونَ فَيَحْتَاجُونَ»[2] وخُذْها قاعِدةً

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم (٥٩٨٩).
(٢) صحيح ابن حبان رقم (٤٤٠).

«وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَتَوَاصَلُونَ فَيَحْتَاجُونَ»؛ لهذا تَجِدُ الأُسَرَ المُترابطةَ في خيرٍ، وفي نَماءٍ، وفي عِزٍّ، فإذا شَذَّ أحَدُ أفرادِ هذه الأسرةِ تاهَ وضاعَ، وتَعذَّرَت عليه دُروبُ الحياةِ «وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَتَوَاصَلُونَ فَيَحْتَاجُونَ» ثِمارٌ عَظيمةٌ للواصِلين لرَحِمِهم.

ثَمَرةٌ رابِعةٌ من آثارِ صِلةِ الأرحامِ:

مَغفرةُ الذُّنوبِ، وكم نَحنُ في حاجةٍ إلى هذه الثمَرةِ، ففي (سُنَنِ التِّرْمذيِّ) من حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُما جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ قالَ: يا رَسولَ اللهِ إنِّي أصَبْتُ ذنبًا عظيمًا فهَلْ لي تَوبةٌ؟ قالَ ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قالَ: لا. قالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟» قالَ: نعَمْ. قالَ: «فَبِرَّهَا»[1].

فالسبيلُ إلى مغفرةِ الذنوبِ أن تَبرَّ خالتَكَ، يَعنِي: أَنْ تَصِلَ هذه الرحمَ، أَنْ تَبرَّ عمَّتَكَ، أَنْ تَصِلَ هذه الرحِمَ، أَنْ تَبرَّ أخاكَ الأكبرَ الَّذي رعاكَ وأَشفقَ عليكَ، ورَبَّاكَ حتَّى كبِرْتَ وتَخَرَّجْتَ منَ الجامِعةِ، أَنْ تَصِلَ فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا مِنْ أرحامِكَ، فهذا الوَصلُ يعودُ عليك بمَغفرةِ الذنوبِ.

o

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة، رقم (١٩٠٤/ م١) [طبعة بشار].

(٨)

وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ الحَسَنُ

o

عِبادَ اللهِ! ما أَحوجَنا إلى حديثٍ نُخاطِبُ به البائِسِين، اليائِسِين، القانِطِين مِنْ رحمةِ ربِّ العالَمِين!.

ما أَحوجَنا إلى حديثٍ نَبعَثُ به إلى صاحبِ كلِّ همٍّ وغمٍّ، ومَنِ اجتَمَعت عليه همومُ الدُّنيا ولَأْواؤُها!.

ما أَحوجَنا إلى حديثٍ يَحملُ في طَيَّاته تَباشيرَ الفرَجِ بعدَ الكربِ، واليُسرِ بعدَ العُسرِ!.

ما أَحوجَنا إلى أَنْ نُردِّدَ جميعًا بيقينٍ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦].

أَنْ نُردِّدَ بيقينٍ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

ما أَحوجَنا أَنْ نَقولُ كما قالَ الأوَّلُ:

وَلَـــرُبَّ نَازِلَـــةٍ يَضِـــيقُ بِهَـــا الفَتَـــى
ذَرْعًـــا وَعِنْـــدَ اللهِ مِنْهَـــا المَخْـــرَجُ

ضَـــاقَتْ فَلَـــمَّا اسْـــتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَـــا

فُرِجَـــتْ وَكُنْـــتُ أَظُنُّهَـــا لَا تُفْـــرَجُ![1]

ما أَحوجَنا في مثلِ هذه الأيَّامِ الَّتي ارتفَعَ فيها صوتُ مُتشائِمٍ وتَسخُّطُه أَنْ نَتحدَّثَ عنِ الأمَلِ، وأَنْ نَتحدثَ عنِ الفألِ!.

ما أحوجَنا إلى لُغةِ التَّفاؤُلِ في مِثلِ هذه الأيامِ الَّتي شاعَتْ فيها لُغةِ التَّشاؤُمِ!.

حديثُنا موصولٌ يا عبادَ اللهِ في هذه السِّلسلةِ مِنْ جَوامعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا هو ما جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ) مِنْ قولِه ﷺ: «**وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ الحَسَنُ**»[2] أي: الكلِمةُ الصالِحةُ.

إنَّها دَعوةٌ لإشاعةِ التَّفاؤُلِ المَقرونِ بحُسنِ الظنِّ باللهِ سبحانه، وحُسنِ التَّوكُّلِ عليه.

دعوةُ التفاؤُلِ؛ لأنَّ هذه النفوسَ هي في أجسادٍ كالمعادِنِ تَتأثَّرُ بما حولَها، فإنها تَصدَأُ وتَضيقُ بالمَلَلِ، وتَتسِعُ وتَتمدَّدُ بالتفاؤُلِ والأمَلِ.

---

(١) البيتان ينسبان لإبراهيم بن العباس الصولي، انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/ ١٥)، ومعجم الأدباء للحموي (١/ ٨١)، وخزانة الأدب للبغدادي (٦/ ١١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الفأل، رقم (٥٧٥٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، رقم (٢٢٢٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إنَّ المُتأمِّلَ في سيرةِ نَبيِّنا ﷺ يَرَى كَمْ مرَّ به ﷺ من خُطوبٍ وأذًى، كانَ يَنظرُ إليها بنظرِ المُتفائلِ الَّذي يُحسنُ الظنَّ باللهِ سبحانه، يَقولُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ، وهو يَشرحُ ذلكَ الموقفَ -المشركون على فمِ الغارِ، والنبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ في الغارِ-، يَقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو أنَّ أحَدَهم نظَرَ تحتَ قدَمَيْه لأَبصَرَنا. قالَ: فقُلْتُ: يا نَبيَّ اللهِ لو أنَّ أحَدَهم نظَرَ تحتَ قدَمَيْه لأَبصَرَنا. قالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» إنَّه يَفتحُ على نَفْسِه نافِذةَ الأملِ وأقدامُ المشركين عندَ رأسِه، يَفتحُ على نفسِه بابَ الفألِ، ومَنْ يُطاردُه على رأسِه، يَقولُ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١).

يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ يا أيُّها المُكتئِبُ المَهمومُ لا تَحزَنْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إنَّ الطريقَ إلى الفألِ الحسَنِ أن يكونَ جِبِلَّةً وطبيعةً في الإنسانِ، قائمٌ على سِتَّةِ أركانٍ أَذكُرُها بإيجازٍ:

الركنُ الأوَّلُ للتفاؤُلِ:

اليقينُ بأَنَّ المُقدَّرَ كائِنٌ لا مَحالةَ، لتَمتلِئَ هذه النفوسُ، فلا حُزنَ يُذهِبُه، ولا اكتئابَ يُعالِجُه، ولا تَسخُّطَ ولا تَذمُّرَ يَدفعُه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ لَنا في سُورةِ الحديدِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، فماذا نَفعلُ يا رَبَّنا؟ قالَ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣].

اليَقينُ بأَنَّ المُقدرَ كائنٌ، علَّمَه نبيُّنا ﷺ لابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما جاءَ في (سُننِ التِّرْمِذيِّ)، وتَعلَّمْناه صِغارًا وكِبارًا، ولا يَزالُ هذا الحديثُ يَتردَّدُ على مَسامِعِنا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(١)].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فاليقينُ بهذا يزرعُ في نفسِكَ نَبتةَ التفاؤلِ.

ثاني هذه الأركانِ:

اليقينُ بأنَّ الدُّنْيا دارُ ممرٍّ لا مَقرٍّ، وضريبةُ المرورِ بهذه الدُّنْيا أَنْ تُصابَ مِنْ لَأْوائِها وكدَرِها ونكَدِها وأذاها، لا بُدَّ مِنْ هذه الضريبةِ، يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣] هذه الدُّنْيا جُبِلت خُلِقت.

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ[1]

رُكنٌ ثالثٌ:

اليقينُ بأنَّ لكلِّ حالٍ عبوديةً، ففي حالِ السراءِ والرخاءِ عُبوديةُ الشُّكْرِ، وفي حالِ الضرَّاءِ والبَأساءِ عُبوديةُ الصبرِ، ولكلِّ حالٍ عُبوديةٌ؛

(١) البيتان لعلي بن محمد التهامي، انظر: تاريخ بغداد (١٩/ ٣٨)، ودمية القصر للباخرزي (١/ ١٤٠)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٣٨٠).

فلْتَظهَرْ عليكَ هذه العُبوديةُ، فإذا أَتَتْكَ الدُّنيا فكُنْ شاكِرًا، وإذا أَدبَرَتْ عنكَ كُنْ صابِرًا، وإذا أَتاكَ ما تُريدُ فكُنْ شاكِرًا، وإذا أَدبَرَ عنك ما تُريدُ فكُنْ صابرًا، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَقولُ لَنا: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تكتئِبْ، ولا تَتَضايَقْ ولا تَحزَنْ ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨].

يَقولُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنَبيِّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

هُنا عُبوديةٌ، وهُناك عُبوديةٌ كما قالَ ﷺ في حديثِ صُهيبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1]، هكذا هو حالُ المُؤمِنِ في كلِّ حالٍ له عبوديةٌ.

رابعُ هذه الأركانِ:

ابتَعِدْ قدرَ الإمكانِ عنِ اليائِسين القانِطين؛ فإنَّهم يَبعثون إليكَ بطاقةٍ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

سلبيةٍ، فالجلوسُ معَهم، والاستِماعُ إليهم يَبعَثُ إليكَ بطاقةِ التَّشاؤمِ؛ فلا تَستمِعْ إليهم ولا تَجلِسْ معَهم قدرَ الإمكانِ، ولا تَسمَعْ أخبارَهم.

إنَّ لُغةَ التشاؤُمِ اليومَ في كلِّ مكانٍ، في مجلسٍ تَسمَعُها، في التليفزيونِ تُشاهِدُها، في جوَّالِكَ تَقرؤُها، في الصحيفةِ تَقرؤُها، كلُّها لُغةُ تَشاؤمٍ تَبعثُ إلى النظرةِ السوداءِ لِما أنتَ عائِشٌ فيه وما يَقدَمُ عليك!

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ انظروا لُغةَ التخويفِ، هذا جاءَ في سورةِ آلِ عمرانَ، المُشرِكون يَبُثُّون، والمُنافِقون يَبُثُّون في الصحابةِ إشاعةَ التخويفِ منَ المُستقبَلِ، بِلادُكم ذاهِبةٌ، والإسلامُ إلى ضَعفٍ، وأنتُمْ إلى خُسرانٍ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ فماذا نَفعلُ؟ قالَ: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يُريدونَ مِنَّا الخشيةَ والعجزَ والجُبنَ، فماذا فعَلوا ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

فلا تَستمِعْ لهم وابتَعِدْ قدرَ الإمكانِ، كما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ الأحزابِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أصحابَ الإعاقاتِ النفسيةِ والفِكريةِ الَّذين لا هَمَّ لهُمْ إلَّا إشاعةُ العوائِقِ ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٨]، لا تَراهُمْ في المَناشِطِ الَّتي تَنهَضُ بالأُمَّةِ، إذْ يَخافون ويَتراجَعون؛ لهذا يَقولُ ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» أو «فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ»[١] أيْ: هُو الَّذي تَسبَّب في هَلاكِهم.

وبعضُ الناسِ هكذا، لا تَسمَع منه إلَّا: هلَكَ الناسُ، راحَتْ علينا، المُستقبَلُ أسودُ، المُستقبلُ مُظلِمٌ، اللهُ يُعينُ عيالَنا، الغربُ يُخطِّطُ، الغربُ سيَفعَلُ. لا تَسمَعُ منه إلَّا هذه العباراتِ.

لكِنِ افعَلْ وَصيةَ النَّبيِّ ﷺ الَّتي تَدعو إلى التَّفاؤلِ، قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ كَانَ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[٢].

خامسُ هذه الأَرْكانِ:

تَفاءَلوا بالخيرِ تَجِدوه، هذا ليسَ حديثًا وليسَ آيةً، لكِنِ العامَّةُ يُردِّدون

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن قول هلك الناس، رقم (٢٦٢٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا المأثورَ الصحيحَ: تَفاءَلْ بالخيرِ تَجِدْه؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ في الحديثِ القُدسيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[(١)] إنْ ظَنَّ خيرًا فخيرٌ، وإنْ ظنَّ شرًّا فشرٌّ، تَفاءَلْ بالخيرِ تَجِدِ الخيرَ، تَفاءَلْ بالخيرِ بالعمَلِ لا بالقعودِ والكسَلِ، تَفاءَلْ بالخيرِ وأنتَ تُحسِنُ الظنَّ باللهِ، وأنتَ تُحسِنُ التوكُّلَ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كانَ نَبيُّنا ﷺ يُعجِبُه إذا خرَجَ لحاجتِه أَنْ يَسمَعَ: يا راشِدُ، يا نَجيحُ[(٢)]. كان يُعجِبُه أَنْ يسمعَ هذه الأسماءَ يُنادِي بعضُها على بعضٍ، يَتفاءَلُ بهذه الأسماءِ.

لذا لَمَّا جاءَهُ جدُّ سَعِيد بنِ المُسيَّبِ قال له النبيُّ ﷺ: «مَا اسْمُكَ؟» قالَ: اسمِي: حزَن-هذا اسمٌ له طاقةٌ سلبيةٌ تُؤثِّرُ عليه وعلى أهلِه- قال ﷺ: «لَا، بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ» -غيَّرَ اسمَه من حزَنٍ إلى سهلٍ- قال: «أَنْتَ سَهْلٌ»، فقال: لا أُغيِّرُ اسمًا سمَّانيه أبي -رفضَ أمرَ النبيِّ ﷺ- يقولُ الحفيدُ سعيدُ ابنُ المسيَّبِ، يَقولُ: «فما زالَتِ الحُزونةُ فينا بَعدُ»[(٣)] ما ذهَبَت، إِذَنْ تَفاءَلْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم (١٦١٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب اسم الحزن، رقم (٦١٩٠)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالخيرِ تَجِدْه عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

رُكْنٌ سادسٌ مِنْ أركانِ التَّفاؤُلِ في الحياةِ، تَتغلَّبُ به على مصائبِ الحَياةِ:

أَرشَدَك إليه مَن هو عالِمٌ بهذه الحياةِ، بما علَّمَه ربُّه سبحانه، وهو رسولُ اللهِ ﷺ، فقَد جاءَ في (مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ) أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»[1].

وبالدعاءِ بهذه الألفاظِ تكونُ النتيجةُ: «إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا» لا يُذهِبُ الحزنَ والهمَّ فقَطْ، بَلْ ويُبدِلُهما فرحًا، فأينَ نحنُ مِنْ هذا الدعاءِ؟! احفَظْ هذا الدعاءَ، وعلِّقْه في بيتِكَ، كلَّما علَتْ نفسَكَ سَحابةُ التشاؤُمِ والتَّسخُّطِ والمَلَلِ والضيقِ ردِّدْ هذا الدعاءَ،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واحفَظْه، واكتُبْه، وعلِّمْه غيرَكَ تَنزَحْ عنكَ الهمومُ والأحزانُ، ويَبقَ لك الفرحُ.

يَـا صَـاحِبَ الـهَمِّ إِنَّ الـهَمَّ مُنْفَـرِجٌ
أَبْشِـرْ بِخَـيْرٍ فَـإِنَّ الفَـارِجَ اللهُ
اليَـأْسُ يَقْطَـعُ أَحْيَانًـا بِصَـاحِبِهِ
لَا تَيْأَسَـنَّ فَـإِنَّ الكَـافِيَ اللهُ
إِذَا بُلِيـتَ فَثِـقْ بِـاللهِ وَارْضَ بِـهِ
إِنَّ الَّـذِي يَكْشِـفُ البَلْـوَى هُـوَ اللهُ[1]

o

(١) الأبيات تنسب لابن الغماز البلنسي، انظر: حاشية إحسان عباس على نفح الطيب (٤/ ٣١٦). وهي في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص:١٥٧)، وأدب الدنيا والدين للماوردي (ص:٢٩٧)، غير منسوبة.

(٩)

لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ

o

عبادَ اللهِ! حديثُنا مُتَّصلٌ بسابِقِه في الحديثِ عَنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ، والحَديثُ المختارُ هنا هو حديثُ كَعْبِ بنِ عُجرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذي جاءَ في (مُسندِ الإمامِ أحمدَ) قالَ فيه نبيُّنا ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ»[1].

وهو حديثٌ جامِعٌ، فمَنْ نبَّتَ جسدَه أو جسَدَ أولادِه مِن سُحتٍ، أَيْ: مِنْ حرامٍ، فهو يَحكُمُ عليهِم بعدمِ دُخولِ الجَنَّةِ، هذا الَّذي يَتجرَّأُ على الحرامِ تعاطيًا، أكلًا، شَرابًا، تعاملًا يُنبِّت جسدَه وجسدَ أبنائِه منَ الحرامِ، يقولُ نبيُّنا ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ».

وقَدْ عظَّمَ اللهُ شأنَ المالِ، ورغَّبَ في الحلالِ مِنه، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٢١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨].

وفي المُقابِلِ بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شأنَ الحرامِ، وحذَّرَ منَ المالِ الحرامِ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠].

وفي موضِعٍ آخرَ يَقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

ويقولُ حبيبُنا ﷺ والحديثُ عندَ مُسلمٍ في (صحيحِه) مِنْ حديثِ عَديِّ الكِنديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقولُ ﷺ: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ» يَعنِي: على وَظيفةٍ، في مُؤسَّسةٍ حُكوميةٍ، في مُؤسَّسةٍ أهليةٍ، هو مَسؤولٌ أو غيرُ مَسؤولٍ «عَلَى عَمَلٍ» أيَّ عمَلٍ كانَ «فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

«فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا» أَيْ: أكَلَ ما مِقدار إبرةٍ، قيمةَ إبرةٍ فما فوقَها كانَ غُلولًا يَأتِي كأنَّه سارقٌ يومَ القيامةِ، غلَّ مِنْ غنائمِ الحربِ «كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم (١٨٣٣).

بَلْ جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ) مِنْ حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»، فقالَ له رجُلٌ: وإِنْ كانَ شيئًا يَسيرًا يا رَسولَ اللهِ؟ -أي: لو كانَ الَّذي أَخَذْته شيئًا يسيرًا- قالَ: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[1] ولو عُودَ مِسواكٍ، فقَدْ أَوجَبَ اللهُ له النارَ وحرَّمَ عليهِ الجَنَّةَ، الَّذي يَأخذُ مِسواكًا ليسَ مِنْ حقِّه ولكِنْ هو مِنْ حُقوقِ الآخَرين، سواءٌ هوَ منَ الحقِّ العامِّ، أو مِنَ الحقِّ الخاصِّ، فقَدْ أوجَبَ اللهُ لهُ النارَ وحرَّمَ عليهِ الجنَّةَ.

لذا كانَ سلَفُ الأُمَّةِ يَخافونَ مِنَ الحرامِ، ويَحذَرون مِمَّا فيهِ شُبهةٌ؛ لذا يَقولُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كُنَّا» يَعنِي: يَتحدَّثُ عن جيلِه «نَدَعُ تِسعةَ أعشارِ الحلالِ مَخافةً منَ الوقوعِ في الحرامِ»[2] يَخافونَ منَ الحرامِ، فيَدَعون تِسعةَ أعشارِ الحلالِ مَخافةً منَ الوُقوعِ في الحرامِ.

نعَمْ قَدْ تَسمعُ مَنْ يُبرِّرُ لكَ الحرامَ، ويُجرِّئُكَ على الحرامِ، ويَفتحُ لكَ أبوابًا ومخارجَ ويَقولُ: خُذْ منَ الحرامِ وتَصدَّقْ، خُذْ منَ الحرامِ وتَقرَّبْ بِهِ إلى اللهِ، عادِلْ بينَ الكفَّةِ، وهذا فَهمٌ منكوسٌ، ومَنْ قالَ لكَ: إنَّ هذا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم، رقم (١٣٧).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ١٥٢)، والبلاذري في أنساب الأشراف (١٠/ ٣٢٨).

الَّذي تَتصدَّقُ به هو مَقبولٌ عندَ اللهِ، فإنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبلُ إلَّا طيبًا.

يقولُ ابنُ المباركِ -وما أجملَ مَقولتَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ!- قالَ: «لأَنْ أَرُدَّ درهمًا مِنْ شُبهةٍ» مِنْ شُبهةٍ ليس مِنْ حرامٍ «أَحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَتصدَّقَ بمِئةِ ألفٍ ومِئةِ ألفٍ ومِئةِ ألفٍ» حتَّى بلغَ سِتَّ مِئةِ ألفٍ[1].

رسالةٌ للَّذي يَأكلُ منَ الحرامِ ويَقولُ: أُطهِّرُه بالعملِ الصالحِ. أقولُ: هذا فَهمٌ مَنكوسٌ انتَبِهْ، الَّذي يأكلُ الحرامَ سواءٌ هو منَ الحقِّ العامِّ، أو منَ الحقِّ الخاصِّ، ويقولُ: أَتصدقُ به، هذِه الأيامُ أيامُ حجٍّ أُحجِّجُ به عَشَرةَ أشخاصٍ، أو عِشرين شخصًا، أُذكِّرُه بمَقولةِ سُفيانَ الثوريِّ يَقولُ -كما جاءَ في كتابِ (الزواجِرِ) لابن حجَرٍ الهَيْتَمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، يقولُ: «مَنْ أنفقَ الحرامَ في الطاعةِ فهو كمَنْ طهَّرَ الثوبَ بالبولِ»[2] أَجلَّكُمُ اللهُ!.

بعضُ الناسِ يأكلُ أموالَ الآخَرين ظُلمًا له حقوقٌ وعليه حقوقٌ، وفي موسمِ الحجِّ مثلًا يسرقُ المال ليحجَّ بهِ، وقديمًا كانَ الآباءُ والأجدادُ إذا أرادَ أحَدُهم أَنْ يحجَّ دارَ على الناسِ يَتحللُ مِنهم، يَطرقُ أبوابَهم، يعودُ مجالِسَهم، ويقولُ لهم: أنا مُسافرٌ للحجِّ حلِّلوني، إنْ كانَ فلانٌ له شيءٌ،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع رقم (٢٠٦). وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٢٦).

(٢) الزواجر لابن حجر الهيتمي (١/ ٣٨٦).

وفلانٌ له شيءٌ، لكِنِ الآنَ يسرقُ هذا المال يحجُّ بهِ، فهذا المحَلُّ يُطالبُه مالًا، وصاحبُ هذه الشقَّةِ الَّتي يَسكنُ فيها يُطالبُه مالًا، وصاحبُ هذا المحلِّ الَّذي استَنظرَه يُطالبُه مالًا، يقولونَ له: ادفَعْ أُجرتَكَ ثُمَّ سافِرْ إلى الحجِّ. فيَمتنعُ، وفوقَ امتناعِهِ يقولُ: أنتُمْ تَمنعونَني مِنْ بيتِ اللهِ، سأَدعو عليكُم في بيتِ اللهِ!. وهوَ لا يعلمُ ما جاءَ في الأثَرِ: «أَطِبْ مَطْعَمَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ»[1]، وهذا المَطعمُ حرامٌ، فالدَّعوةُ لا تُستجابُ.

ويَقعُ الناسُ في أكلِ الحرامِ لأَسبابٍ:

السببُ الأولُ:

عدمُ الحياءِ منَ اللهِ، والعبدُ إذا لَمْ يَستحِ مِنَ اللهِ وقعَ في الحَرامِ، في حَديثِ ابنِ مَسعودٍ عندَ التِّرْمذيِّ يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ» قالوا: يا رَسولَ اللهِ إنَّا نَستَحْيِي -والحمدُ للهِ-. قالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنِ الِاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٦٤٩٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٨).

هو على وَظيفةٍ لا يُؤدِّيها على أكملِ وَجهٍ، فإذا عُوتبَ أو حُوسبَ، قالَ لرئيسِه ومَسؤولِه: أنتَ تَقطعُ رِزقي ورِزقَ عِيالي. قالَ لهُ: أنتَ لم تُؤدِّ وظيفتَكَ بحقٍّ، أنتَ مُقصِّرٌ فيها تَأكلُ الحرامَ، أنتَ على وَظيفةٍ لا تُؤدِّيها كما يَجِبُ. وهَذا كلُّه بدواعِي عدمِ الحياءِ مِنَ اللهِ.

السببُ الثاني:

أنَّهم يَأكُلون الحرامَ؛ لأنَّهم يَبحثون عنِ الكَسبِ السريعِ، والبيئةُ تُساعدُ على ذاكَ، الإعلاناتُ تَدعوكَ إلى الثراءِ السريعِ ومُضاعفةِ دخلِكَ، وبعضُ البرامجِ الَّتي تَطرَحُها المؤسَّساتُ الماليةُ كالبنوكِ وغيرِها تدعوكَ إلى الثراءِ السريعِ، فيَقَعُ الإنسانُ في الحرامِ رغبةً في الكسبِ السريعِ، ونبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المُناسبةِ يُوجِّهُ بيانًا عظيمًا يُردِفُه بتَوصياتٍ عندَ الحاكمِ في (مُستدركِه) مِنْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَأتِي هذا الحديثُ العظيمُ، الذي قالَ فيه النبيُّ ﷺ لهؤلاءِ الراغِبينَ في الكسبِ السريعِ، والكسبُ السريعُ كمَنْ يَأكلُ رِبًا، أو يدخلُ في (يانَصِيبٍ)، أو يَتحايلُ على الناسِ، أو يُوهمُ بعضَ السُّذَّجِ منَ الناسِ بمَشاريعَ وهميةٍ، يُريدُ الكسبَ السريعَ وهو غافلٌ عنِ الحَديثِ الأصلِ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ**».

قالَ النبيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**» هَذا هو البيانُ «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ**

حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ» وهذا هو البيانُ، أمَّا التوصياتُ فقالَ: «فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَخُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرَّمَ»[(١)]، بيانٌ وتوصياتٌ في هذا الحديثِ.

فلا تَخَفْ، لكِنْ لا تَقعُدْ، بَلْ تحرَّكْ، لكِنْ تَحرَّكْ ضمنَ هذا المنهجِ: أجمِلْ في الطلبِ، خُذْ ما حلَّ، ودَعْ ما حُرِّمَ.

السببُ الثالثُ:

أنَّهم يَأكُلون الحرامَ لعدَمِ المُبالاةِ، وهو داءٌ عضالٌ أَنَّ الإنسانَ لا يُبالي مِنْ أينَ أخَذَ هذا المال، في (صحيحِ البُخاريِّ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المال، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟!»[(٢)].

وإِنْ كانَ مِنْ خاتمةٍ لهذا الأمرِ ولهذا التوجيهِ، فهُوَ أثرٌ عَنْ سهلٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ قالَ فيهِ: «مَنْ أكلَ الحرامَ عصَتْ جوارِحُه، شاءَ أَمْ أَبَى، علِمَ أَمْ لم يَعلَمْ»، فأيُّ لُقمةٍ حرامٍ تَدخُلُ في البطنِ تُحرِّكُ هذه

(١) المستدرك (٢/ ٤)، وأخرجه بنحوه ابن ماجه: كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، رقم (٢١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾، رقم (٢٠٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجوارِحَ إلى الحرامِ «ومَنْ كانَتْ طعمتُه حلالًا أطاعَتْه جوارحُه ووُفِّقَتْ للخيراتِ»[١].

o

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٩١).

(١٠)

لا إيمانَ لِمَنْ لا أَمانةَ لَهُ

o

أمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأداءِ الأَمانةِ فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨].

وامتدَحَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمِنينَ بما فيهِمْ منَ الصفاتِ، وذكَرَ مِنْ ذلكَ حِفْظَهم للأماناتِ فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وحذَّرَ عَزَّوَجَلَّ منَ الخِيانةِ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧].

والحديثُ الجامعُ الَّذي نَحنُ بصدَدِه هُو ما جاءَ في (مُسندِ الإمامِ أحمدَ) مِنْ حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ**»[1].

وهو حديثٌ جامعٌ، فالعِبرةُ بأداءِ الأماناتِ، وهيَ دليلٌ صادقٌ على

(١) مسند أحمد (٣/ ١٣٥).

وجودِ هذا الإيمانِ، وارتِباطٌ وثيقٌ بينَ الإيمانِ والأمانةِ، فمَنْ أدَّى الأمانةَ دلَّ ذلكَ على قُوَّةِ إيمانِه، ومَنْ رأَيْناه قَدْ ضَعُفَت أمانتُه دلَّ ذلكَ على ضَعفِ إيمانِه.

يَقولُ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والحديثُ عندَ التِّرْمِذيِّ-: «**المسلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**»[(١)].

فهذا ارتباطٌ بينَ الإيمانِ والأمانةِ؛ لأهمِّيَّةِ هذا الخلقِ العَظيمِ الَّذي يَرتبطُ مُباشرةً بالإيمانِ.

فالإيمانُ لهُ عَلاقةٌ وُثقَى بالأمانةِ، لذا يَقولُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى صِيَامِ أَحَدٍ وَصَلَاتِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَأَمَانَتِهِ إِذَا ائْتُمِنَ، وَوَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى»[(٢)] أي: إذا مُكِّنَ وفُتِحَت له الخزائنُ، وأُعطيَ الحقَّ في التصرُّفِ، تَجِدُه ورِعًا «إذا أَشفَى» أي: إذا تَمكَّنَ.

ويَتبيَّنُ مما يَلي لنا أنَّ الأمانةَ ليسَتْ مَحصورةً في حِفظِ المال، فحافِظُ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٩)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون، رقم (٢٦٢٧)، والنسائي: كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة المؤمن، رقم (٤٩٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد رقم (٦٤)، وابن أبي الدنيا في الورع رقم (٢١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٨٨).

المال يُسمَّى أمينًا للصندوقِ، وصُورُ الأمانةِ مُتعدِّدةٌ، فالحاكِمُ في ملكِه أمينٌ والحُكمُ أمانةٌ، وصاحبُ المنصِبِ في مَنصِبِه أمينٌ والمنصِبُ أَمانةٌ، والموظَّفُ على رأسِ وظيفتِه أمينٌ والوظيفةُ أمانةٌ، وصاحبُ القلَمِ في مَقالِه أمينٌ والكتابةُ أمانةٌ، والرجُلُ مِنَّا في بيتِه أمينٌ وولايتُه في بيتِه أمانةٌ.

فهذا أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -والحديثُ في (صحيحِ مُسلمٍ)-: أَتَى إلى النبيِّ ﷺ يَقولُ: يا رسولَ اللهِ أَلَا تَستَعمِلني؟ -أُريدُ أَنْ تُعيِّنَني في مَنصِبٍ، أَيِ: اجعَلْني عامِلًا ووالِيًا على ولايةٍ منَ الولاياتِ- قالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فضرَبَ ﷺ بيَدِه على مَنكِبي، وقالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّك ضَعِيفٌ**» أبو ذرٍّ الصحابيُّ الكريمُ المحمودُ على لسانِ النبيِّ ﷺ، «**وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا**»[1].

فلا تَفرَحْ أيُّها المؤمنُ بولايةٍ منَ الولاياتِ، فهِيَ أمانةٌ ثقيلةٌ، فإذا نُزِعَت منكَ فافرَحْ واسعَدْ واستبشِرْ، فقَدْ أُزيحَ عَنْ كاهِلكَ شيءٌ عظيمٌ.

والأمانةُ خُلُقٌ ربانيٌّ تَتعاملُ به مع الخلقِ على وَفقِ ما يُرضِي الخالقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تُبرِّرْ لنفسِكَ أَنْ تقولَ: فلانٌ خانَني إِذَنْ أخونُه، فالمجتمعُ مَليءٌ بالخياناتِ! إِذَنْ أكونُ منهم!! فنبيُّنا ﷺ يقولُ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ**

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[١].

وهذا ليسَ خُلقَ المُؤمنِ، وإِنْ عُوملَ بالخِيانةِ فلا تفعَلْ، «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ».

والأمانةُ أوَّلُ ما يُرفعُ منَ الدِّينِ، وأنتُمْ تَعلَمون أنَّ عُرَى الدِّينِ ستُنْقَضُ عُروة تَتلوها عُروةٌ، يَقولُ نبيُّنا ﷺ والحديثُ عندَ الطبرانيِّ في (مُعجمِه): «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ»[٢].

فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فإنَّ لضياعِها في المُجتمعاتِ أثرًا، وأثرُ ضَياعِها في المُجتمعاتِ مَلموسٌ محسوسٌ، وأوَّلُ آثارِ ضَياعِ الأمانةِ ضَعفُ الإيمانِ، وقَدْ دلَّ على ذلكَ قوله ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ» هكَذا يَقولُ ﷺ؛ فالمُجتمعُ حينَما تَكثرُ فيه الخيانةُ فهذا دليلٌ على ضَعفِ الإيمانِ.

أثرٌ ثانٍ لضياعِ الأمانةِ:

فشُوُّ آفـةِ النفـاقِ، وهي أخطَرُ الآفـاتِ، إذا ضُيِّعَتِ الأمانـةُ كثُرَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٥)، والترمذي: كتاب البيوع، رقم (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المعجم الكبير (٧/ ٢٩٥، رقم ٧١٨٢)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٦٣)، وابن أبي شيبة (١٩/ ٥٥٥)، والحاكم (٤/ ٥٠٤)، عن ابن مسعود موقوفا.

المُنافِقونَ في المجتمَعِ، فإذا رأَيْتَ هذه العَلامةَ قد وُجِدَت وهي كثرةُ المُنافِقينَ؛ فاعلَمْ في المقابِلِ أنَّ الأمانةَ قَدْ ضاعَتْ، يَقولُ نبيُّنا ﷺ -والحديثُ في البُخاريِّ-: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[1]، فهَذِه آفةٌ تتواجَدُ في المجتمعِ إذا ضُيِّعتِ الأمانةُ وهي آفةُ النفاقِ.

علامةٌ ثالِثةٌ -وهيَ أَخطرُها-:

وهي نَتيجةٌ حَتميةٌ لوُجودِ الأثَرَيْنِ السابقَيْن فإذا ضعُفَ الإيمانُ، وكثُرَ النفاقُ جاءَ هذا الأثرُ الثالثُ وهو اختِلالُ المفاهيمِ، فإذا ضاعَتِ الأمانةُ اختَلَّتِ المفاهيمُ، وقُلِبَتِ الحقائقُ، وصارَ المعقولُ غيرَ معقولٍ، وصارَ غيرُ المعقولِ هوَ المعقولَ، فتَختلُّ المفاهيمُ.

يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قيلَ: وما الرُّوَيْبضةُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: «الرَّجُلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ»[١]، وهذا مِن اختِلالِ المفاهيم، الكاذِبُ المعروفُ بكذِبِه يُرى أنه صادِقٌ، والصادقُ الناصحُ يُرى أنَّه كاذبٌ، الخائنُ الَّذي تُرى خيانتُه ليلَ نهارٍ هو المُؤتَمَنُ، والأمينُ يُخوَّنُ، والَّذي يَقودُ الجماهيرَ الرُّويبضةُ؛ لأنَّه هو الَّذي يَنطقُ.

وفي حديثٍ آخرَ يَقولُ نبيُّنا ﷺ: **«إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**، قيلَ: يا رسولَ اللهِ، وكيفَ إضاعتُها؟ قالَ: **«إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**[٢]، وهذا مِن اختِلالِ المفاهيم.

إذَنْ حينَما يَقولُ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديثِ الجامعِ: **«لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ»** نَعلمُ أنَّ هذه المجتمعاتِ يَعلو فيها الأمرانِ، الإيمانُ إذا عَلا علَتِ الأمانةُ ووُجِدَت في المُجتمعاتِ.

ولَمَّا جيءَ بالغنائمِ إلى أميرِ المُؤمنين عمرَ الفاروقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، جُمِعَت الغنائمُ بينَ يديهِ، فإذا به يَرَى مِنْ جملةِ الغنائمِ تاجَ كِسرى وسوارَيْه مُرصعَيْن بالذهَبِ والأحجارِ، فاستغرَبَ أَنْ يَكونَ هذا مِنْ جُملةِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب شدة الزمان، رقم (٤٠٣٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم (٦٤٩٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الغنائمِ، فقـالَ -والصحابـةُ يَسمَعونَ-: «وَاللهِ إِنَّ الَّذِي أَدَّى إِلَيْنا هَتذا لَأَمِينٌ»، يَعنِي: الَّذي جاءَ لنا بهذا التاجِ وهو قادرٌ على إخفائِه، وسرِقته، والاحتِفاظِ به لنفسِه. فقالَ رجلٌ: يا أميرَ المُؤمِنين، أنتَ أمينُ اللهِ، يُؤدُّون إليكَ ما أَدَّيْت إلى اللهِ، فإذا رتَعْتَ رتَعوا[1]، وهكذا هي القاعدةُ المطَّرِدةُ: إذا رتَعَت رَتَعوا.

o

(١) أخرجه الشافعي في الأم (٥/ ٣٥٢- ٣٥٤)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٥٧).

(١١)

مَن لا يَرحمُ لا يُرحَمُ

يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»[١] وهو حديثٌ جامعٌ مَفادُه أنَّ الرحمةَ، كلَّ الرحمةِ، بيَدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فمَنْ أَرادَ أَنْ يَظفرَ بها فلْيَرحَمِ الخلقَ، فعلى قَدْرِ ما تَرحمُ تُرحمُ، فمَن يَرحمُ يُرحَمُ، أي: على قَدرِ ما تَرحَمُ تُرحَم؛ إنَّه حديثٌ جامعٌ أورَدَه البُخاريُّ في (صحيحِه) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأنتُمْ تَعلَمون أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ كتَبَ على نَفسِه الرحمةَ، فقالَ في مَواضِعَ مِنْ كِتابِه في سُورةِ الأنعامِ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢].

وفي موضعٍ آخَرَ يَقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقَدْ وصَفَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى نفسَه بالرَّحمةِ، فقالَ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

وقالَ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧].

وبيَّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنَّ بيَدِه الرحماتِ، وهوَ المُتفضِّلُ على عبادِه بالرحماتِ، بَلِ المُتفضِّلُ على جميعِ الناسِ بالرحماتِ، قالَ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

وبيَّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على لِسانِ نبيِّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنَّ رحمتَه غلَبَت غضبَه، أنَّ رحمتَه سبَقَت غضَبَه كما في رِوايةٍ أُخرى عندَ البُخاريِّ، وكِلا الرِّوايتَيْن عندَ البُخاريِّ، يَقولُ ﷺ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**»(١)، وفي رِوايةٍ: «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، رقم (٣١٩٤)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١/ ١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٧٤٥٣)، ومسلم: رقم (٢٧٥١/ ١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنَّ مِنْ أعظمِ ما يُذكَّرُ به في شأنِ الرحمةِ، أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدِ ادَّخَرَ عندَه الجُزءَ الأكبرَ منَ الرحمةِ يَرحمُ به عِبادَه، وأنزلَ رحمةً واحِدةً يَتراحَمون بها في الدُّنْيا.

وقد جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ) أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ للهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا**»[1]، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهُ مِئة رحمةٍ أَنزلَ رحمةً واحِدةً، مُذْ خلقَ السمَواتِ والأرضَ إلى قيامِ الساعةِ أَنزلَ رحمةً واحِدةً، فما نَراهُ منَ الرحمةِ عندَ الإنسِ، وعندَ الجِنِّ، وعندَ البهائمِ، وعندَ الهوامِّ، عندَ كلِّ خَلْقِ اللهِ هو رحمةٌ واحدةٌ.

ثُمَّ قالَ ﷺ -وهي البِشارةُ، فافرَحوا بها، وحاوِلوا الظفرَ بِها- قالَ: «**وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، رحمةٌ واحِدةٌ نَراها في الدُّنيا فتَضطرِبُ قلوبُنا في جُزءٍ مِنْ هذه الرحمةِ، وتَدمعُ عيونُنا، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدِ ادَّخَرَ عندَه تِسعًا وتِسعينَ رحمةً يَرحمُ بها عبادَه يومَ القِيامةِ.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم (٦٠٠٠).

اللهُمَّ يا مَنْ بيَدِكَ الرحماتُ اشمَلْنا برحمتِكَ في الدُّنْيا والآخِرةِ!.

إنَّ موجباتِ الرحمةِ مُتعدِّدةٌ، والعاقلُ مَنْ أخذَ بهذه المُوجِباتِ لتَشملَه هذه الرحماتُ، وإنِّي أُذكِّرُ نَفسِي وإيَّاكُمْ بستِّ أمورٍ، وهيَ مِنْ مفاتيحِ الرحمةِ.

ومِنْ موجباتِ الرحمةِ:

الأمرُ الأولُ:

تَحقيقُ الإيمانِ والتَّقوى، فعلى قدرِ ما عِندكَ منَ الإيمانِ والتَّقوَى تَظفرُ برَحمةِ اللهِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩٩]؛ فلأنَّهم حقَّقوا الإيمانَ، وحقَّقوا التَّقوَى سيَرحَمُهمُ اللهُ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية:٣٠].

ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إيمانٌ وتَقوَى ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

ومِنْ مُوجِباتِ الرحمةِ:

طاعةُ الرسولِ ﷺ، وتَقفِّي أثَرِه، والأخذُ بسُنَّته، فإنَّ ذلكَ موجِبٌ مِنْ مُوجباتِ الرحمةِ، فإذا قيلَ لكَ عَنْ أمرٍ: إنَّه سُنَّة. فاظفَرْ به ولا تَترُكْه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢].

وقالَ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، فطاعتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمَرَ موجِبٌ من مُوجِباتِ الرحمةِ.

ومِنْ مُوجِباتِ الرحمةِ:

ما دلَّ عليه الحديثُ في بداية الكلام صراحةً، وهو الرحمةُ بالخَلقِ، أَنْ تَكونَ رحيمًا، تَرحمُ أهلَ بيتِكَ؛ زوجتَكَ وأولادَكَ وخدَمَكَ، تَرحمُ جِيرانَكَ، ترحمُ الناسَ في الشارعِ، ترحمُ إذا بِعتَ وإذا اشتَرَيْت، وإذا اقتَضَيْتَ، تَكونُ رَحيمًا في مَعمَلِكَ، في حقلِكَ، في وظيفتِكَ، تُفيضُ منكَ الرحمةَ، فإذا رَحِمْتَ رُحِمْتَ، إنَّه مُوجبٌ مِنْ موجباتِ الرحمةِ، على قدرِ ما عِندَكَ منَ الرحمةِ تُجاهَ الخلقِ تُرحمُ.

قالَ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[1]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ويَقولُ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[(١)].

هذه هي رِسالةُ الإسلامِ يا أبناءَ الإسلامِ، يا شَبابَ الإسلامِ هذا هوَ الإسلامُ «ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ» كلَّ مَنْ في الأرضِ «ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، فعلى قَدْرِ ما تَرحَمُ في الأرض تُرحَمُ مِمَّنْ في السماءِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وليسَتِ الرحمةُ محصورةً في البشَرِ، بَلْ هي في كلِّ الخَلقِ، في هذه الدوابِّ الَّتي سخَّرَها اللهُ لَنا، في هذه الدوابِّ الطوَّافينَ علَيْنا.

يَأتِي رجلٌ كما جاءَ في حديثِ مُعاويةِ بنِ قُرةَ يُحدِّثُ عَنْ أبيهِ، عَنْ رجلٍ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ قالَ: يا رَسولَ اللهِ -انظُروا إلى هذا الرجُلِ كيفَ فاضَتِ الرحمةُ مِنْه، ووجَدَ حرجًا كبيرًا، ووجدَ ضيقًا كبيرًا- قالَ: يا رَسولَ اللهِ إنِّي لأَذبحُ الشاةَ فأَرحَمُها، -يَأكُلُها يُطعِمُها نفسَه وأولادَه وضيفَه- فقالَ نبيُّنا ﷺ: «وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ»[(٢)].

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦).

حتَّى في حالِ الذبحِ! ليسَ في حالِ الرِّعايةِ، ليسَ في حالِ السِّقايةِ، بل في حالِ الذبحِ، في حالِ إمرارِ السِّكِّينِ على رقبتِها! إذا رحِمْتَها رحِمَكَ اللهُ، فأيُّ دِينٍ أعظمُ من هذا الدِّينِ؟!

فحينَما يُشوِّهُ الغربُ الكافرُ دِينَنا أنَّه دِينُ إرهابٍ، فهذا كذِبٌ، إنَّما دينُنا دِينُ رحمةٍ.

تَأتِي امرأةٌ إلى بيتِ النبيِّ ﷺ -والحديثُ عندَ البُخارِي في (الأدبِ المُفرَد) مِنْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- تَأتِي هذه المرأةُ الفقيرةُ، مِسكينةً تَتسوَّلُ ليسَ عِندَها شيءٌ تَأكلُه، وتَأتِي ومعَها صَبيَّانِ صَغيرانِ يَتضوَّرانِ جوعًا، فيَقِفُ الجميعُ عندَ بابِ بيتِ النبيِّ ﷺ، فتَخرجُ لهم عائشةُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا فلا تَجِدُ في بيتِها غيرَ ثلاثِ تَمراتٍ -هذا الموجودُ في بيتِ النبيِّ ﷺ ثلاثُ تمراتٍ- فتَدفَعُها في يدِ الفَقيرةِ السائِلةِ، فتُعطِي صغيرَها تمرةً، وتُعطي الصغيرَ تَمرةً، وترفعُ الثالِثةَ إلى فمِها، فإذا بالصَّبيَّينِ يَأكُلانِ تَمرَهما ويَلحَظانِ أُمَّهما، كأنَّهما يَقولانِ: والَّتي في يدِكِ. فما كانَ مِنْ قلبِ هذه المرأةِ الوالِدةِ الرحيمةِ إلَّا أَنْ شقَّتِ التمرةَ، ودفَعَتْ بشِقِّها إلى هذا، وبالشِّقِّ الآخَرِ إلى هَذا، ومضَتْ دونَ أَنْ تَأكلَ، فدخلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأَخبَرَتْه عائِشةُ بما صنَعَتِ المرأةُ معَ صبيِّيها فقالَ

ﷺ: «وَمَا يُعْجِبُكِ مِنْ ذَلِكَ؟!» -يَعنِي: ليس هذا مَحَلَّ العجَبِ، فمحلُّ العجبِ شيءٌ آخرُ- «لَقَدْ رَحِمَهَا اللهُ بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّهَا»[١].

فالرحمةُ الَّتي تَفيضُ منكَ أيُّها الوالدُ على ولدِكَ هيَ موجِبٌ مِنْ موجِباتِ الرحمةِ؛ لهذا لَمَّا جلَسَ ذاك الرجلُ الأعرابيُّ عندَ النبيِّ ﷺ ووجَدَه يُقبِّلُ أبناءَه، قالَ: أَو تُقبِّلون صِبيانَكُم؟ فوَاللهِ إنَّ لي عشَرةً منَ الولَدِ ما قبَّلْت مِنهم أحَدًا، قالَ ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ!»[٢].

فموجِبٌ رابعٌ على قدرِ ما تَرحَم تُرحَمُ وهو رحمةُ الخَلقِ.

أمَّا الموجبُ الخامسُ:

فهوَ الاجتِماعُ على كِتابِ اللهِ إنصاتًا واستماعًا وقِراءةً ومُدارسةً في بيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ -كما جاءَ في (صحيحِ مُسلِمٍ)-: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دون قوله: «إنَّ لي عشَرةً منَ الولَدِ..» وهي عند البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[1] إنَّها موجِباتُ الرحمةِ.

أَسألُ المولَى الكريمَ بأَسمائِه الحُسنَى وصِفاتِه العُلى أَنْ يَشمَلَني وإيَّاكم ووالِدينا برَحمةٍ مِنْ عندِه وفضلٍ.

موجِبٌ سادسٌ مِنْ موجِباتِ الرحمةِ:

الصبرُ على البلاءِ، والاسترجاعُ عندَه، ومَنْ مِنَّا لا يُصابُ بالبلاءِ؟ مَنْ مِنَّا بغيرِ بلاءٍ؟ مَنْ مِنَّا بغيرِ مُصيبةٍ، عظُمَت هذه المصيبةُ أو صغُرَتْ، ولكِنَّ العاقلُ الَّذي يَبحثُ ويَرجو على إِثْرِ هذا البلاءِ، وعلى إِثْرِ هذه المُصيبةِ أَنْ يُفتحَ له بابٌ مِنْ أبوابِ الرحمةِ، عليهِ أَنْ يَصبرَ ويَسترجِعَ مُستذكِرًا قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

إِذَنْ «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»، وعلى قَدْرِ ما تَرحمُ تُرحمُ، فأيُّها الباحثُ عنِ الرحماتِ عليكَ ببَذْلِها لغيرِكَ مِنْ خلقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

o

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٢)

أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ

o

إنَّ للأذكارِ الشرعيةِ مَكانةً عاليةً في الدِّينِ، ومَنزِلةً عَظيمةً في قلوبِ المُؤمِنين، فالأذكارُ الشرعيةُ مِنْ أجلِّ القرُباتِ، وأعظمِ الطاعاتِ؛ لذا أمَرَ المَولَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالإكثارِ منها فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وفي (صحيحِ البُخاريِّ) مِنْ حديثِ أبي موسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ كَمَثَلِ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[1].

وحديثُنا عَنْ ذِكْرٍ منَ الأذكارِ العظيمةِ، ذِكرٌ أمرَ نبيُّنا ﷺ بالإكثارِ مِنْه، ذِكرٌ نَضُمُّه إلَى سابِقِه في هذِه السِّلسلةِ المُباركةِ في بَيانِ جوامِعِ كلِمِه ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦٤٠٧).

وهذا الذِّكرُ الَّذي نُؤمَرُ فيه بالإكثارِ مِنْه هوَ ما جاءَ في (مُسندِ أحمدَ) مِنْ قولِه ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ»(١).

«لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» أَيْ: لا تَحوُّلَ إلَّا بعَوْنِ اللهِ وتوفيقِه وتَسديدِه.

«لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» كما قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما: أي: لا تَحوُّلَ بِنا إلى العملِ بالطاعةِ إلَّا باللهِ، ولا تَحوُّلَ عَنْ تركِ المَعصيةِ إلَّا باللهِ(٢).

فهذا الحولُ والقُوةُ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ» لا يُدفعُ شَرٌّ إلَّا باللهِ، ولا يُحصلُ مِنْ خيرٍ إلَّا باللهِ كما حَكاهُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ(٣).

«لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ» كلِمةٌ يُقصَدُ بها طلبُ الإعانةِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩٣)، وعزاه لابن أبي حاتم في التفسير.
(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٢٦- ٢٧).

«لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ» تُفهَمُ خطأً عندَ كثيرٍ منَ الناسِ أنَّها تُقالُ عندَ المصائِبِ، وهذا خطأٌ، يَقولُها الناسُ عندَ نزولِ المصائبِ فيَقولونَ: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ، إنَّما الذِّكرُ الَّذي يُقالُ عندَ نُزولِ المصائبِ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ. تلكَ كلِمةُ استِرْجاعٍ، وهذه كلِمةُ دُعاءٍ بالإعانةِ، فـ«لا حولَ ولا قُـوةَ إلَّا باللهِ» تُقالُ عندَ طلبِ الإعانـةِ، لا عندَ نُـزولِ المصائبِ.

«لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» يَأمُرُنا ﷺ بالإكثارِ مِنها لِما اكتَنَفَتْه منَ الفضائِلِ، **وإنِّي أَذكرُ بعضَ هذه الفضائِلِ:**

الفضلُ الأوَّلُ:

أنَّها سببٌ في تَكفيرِ الذنوبِ، وقالَ نبيُّنا ﷺ -كما في (مُسندِ أحمدَ) مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «**مَا عَلَى الأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ البَحْرِ**»[1] أرأَيْتُم هذا الفضلَ؟! إنَّه فضلُ اللهِ الواسعُ، إنَّهُ فضلُ اللهِ العظيمُ، هذا فضلٌ تُكفَّرُ به الذنوبُ.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل، رقم (٣٤٦٠).

فضلٌ آخرُ:

أنَّها كنزٌ مِنْ كنوزِ الجَنَّةِ، ففي حديثِ أبي موسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ البُخاريِّ يَقولُ له نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم: «**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ**» هذا اسمُ أبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**»[1] هو كنزٌ مُدَّخرٌ لكَ عندَ اللهِ في الجَنَّةِ، كلَّما قلتَ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ، فإنَّكَ تَدخرُ أجرًا وطاعةً نَفيسةً أشبهَ ما تكونُ بكنوزٍ لكَ في الجَنَّةِ

ثالثًا منَ الفضائلِ:

أنَّها مِنْ غِراسِ الجَنَّةِ، ففي الدُّنيا يُحِبُّ أحدُنا الزرعَ والغرسَ، فيَغرِسُ أحسَنَ الثِّمارِ، وأفضلَ الزروعِ، وإنَّ غراسَ الجَنَّةِ لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ، والبخيلُ المُقصِّرُ هو الَّذي يَبخلُ ويُقصِّرُ على نَفْسِه.

وفي (صحيحِ ابنِ حِبَّانَ) مِنْ حديثِ سالِمِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ، عَنْ أبي أَيُّوبَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُم جميعًا، أنَّ النبيَّ ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به مرَّ بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ مَعَكَ يَا جِبْرِيلُ؟**»

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، رقم (٦٣٨٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤).

مَنْ هذا الَّذي معَكَ؟ قالَ: هذا مُحَمَّدٌ ﷺ، فقالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَا مُحَمَّدُ مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يُكثِروا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ».

فحينَما يَأمُرُنا نبيُّنا ﷺ بالإكثارِ مِنْ قولِ: لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ فإنَّها وصيَّةٌ أخَذَها مِنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلةَ أُسريَ بهِ، قالَ: «مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يُكْثِرُوا أَنْ يَقُولُوا: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، ثُمَّ قالَ -حينَما سألَه نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «يَا إِبْرَاهِيمُ وَمَا شَأْنُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؟»- قالَ: «إِنَّهَا مِنْ غِرَاسِ الجَنَّةِ، فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ، وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ»[1] الجَنَّةُ تُربتُها طَيِّبةٌ، وأرضُها واسعةٌ، كلَّما غرِسَت فالأرضُ واسِعةٌ والتُّربةُ طيِّبةٌ.

ومِنْ فضائلِ (لا حَولَ وَلا قُوةَ إلَّا بـاللهِ):

أنَّها بابٌ مِنْ أبوابِ الجَنَّةِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ على قيسِ بنِ سعدِ ابنِ عُبادةَ، وهو يَخدُمُ النبيَّ ﷺ، دفَعَ به أبوه لِخدمةِ النبيِّ ﷺ، قالَ: مَرَّ بي النبيُّ ﷺ ثُمَّ قالَ لي: «يَا قَيْسُ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ؟ أَنْ تَقُولَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[2].

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٨٢١)، وأخرجه أيضا أحمد (٥/ ٤١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم (٣٥٨١).

فإذا كانَتْ هذه الفضائلُ وغيرُها كثيرٌ، فإنَّنا نَجِدُ في شَرعِنا أنَّ هذه الجُملةَ: «لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ» تَرتبطُ بِنا ارتِباطًا وَثيقًا، في صُبْحنا ولَيلِنا.

فانظُرْ -يَرعاكَ اللهُ- قَدْ شَرَعَ لنا ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا نظَرَ أحدُنا إلى ما يَسُرُّه، وتَفرحُ به نفسُه، في شيءٍ له أو لغيرِه أَنْ يَقولَ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ.

قالَ اللهُ تعالى في سورةِ الكهفِ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ أَيْ: بُستانَكَ، أَوْ حديقَتَكَ، أو زرعَكَ، أو قَصرَكَ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ وهذا أمرٌ مَشروعٌ، كلَّما رأيتَ شيئًا قدِ استَحْسَنَتْه نفسُكَ أَنْ تَقولَ: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ. لأنَّ هذا الفضلَ وهذا النعيمَ وهذا الخيرَ هو مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَغتَرَّ أحدُنا بنفسِه فيَقولَ: هذا مِنْ كَسبي وكَسْبِ أبي وجَدِّي؛ فإنَّه يُنزَعُ في أقلَّ مِنَ اللَّحظةِ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف:٣٩].

ويُشرعُ هذا الذِّكرُ عِندَما يَفزعُ الإنسانُ من النومِ، ومَنْ مِنَّا لا يَفزَعُ؟! فإذا فزِعْت منَ النومِ فلْيَجْرِ هذا الذِّكْرُ على لسانِكَ، يَقولُ ﷺ

والحديثُ عندَ البخاريِّ في (صحيحِه): «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»، فإذا قالَ هذا الذِّكرَ، ثُمَّ قالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»[(١)].

وهذا الذِّكرُ نَقولُه في أدبارِ الصلواتِ، ونَقولُه حينَما نَفرغُ منَ الطعامِ ومنَ الشرابِ، أَمَا قالَ نبيُّنا ﷺ -كما جاءَ في (سُننِ ابنِ ماجَهْ)-: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ. إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[(٢)]. انظُروا إلى هذه الخَيراتِ والنِّعَم، فتِلك نِعَمِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعطينا ويَمنَحُنا إيَّاها.

وقد كانَ نبيُّنا ﷺ إذا شرَعَ في قِتالِ الأعداءِ تَجَرَّدَ مِنْ حولِه، وتَجَرَّدَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى، رقم (١١٥٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وأبو داود: كتاب اللباس، رقم (٤٠٢٣)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا فرغ من الطعام، رقم (٣٤٥٨)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، رقم (٣٢٨٥)، معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ قوتِه، واستَعانَ بالقوِيِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكانَ يُردِّدُ عندَ القتالِ: «اللَّهُمَّ رَبِّي بِكَ أُقَاتِلُ، وَبِكَ أُصَاوِلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[١].

وفي (سُننِ أبي داودَ) يَقولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ»[٢].

«لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» كلِمةٌ عظيمةٌ، أُمِرْنا بالإكثارِ مِنها على لسانِ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأُمِرْنا بالإكثارِ منها على قولِ نبيِّنا ﷺ.

ويُشرَعُ هذا الذِّكرُ عندَ الخُروجِ مِنَ البيتِ، فتَخرُجُ مِنْ بيتِكَ وقَدْ تَبرَّأْتَ مِنْ حولِكَ وقُوَّتِكَ، والتَجأْتَ إلى القويِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قُلتَ هذا الذِّكْرَ أعطاكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ المِنَحِ ما يُشجِّعُكَ على أَنْ تَذكُرَ هذا الذِّكْرَ على الدوامِ عِندَ خُروجِكَ مِنْ بيتِكَ.

ففي حَديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ أبي داودَ- يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٣)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سنن أبي داود: كتاب الجهاد، باب ما يدعى عند اللقاء، رقم (٢٦٣٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه أحمد (٣/ ١٨٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في الدعاء إذا غزا، رقم (٣٥٨٤).

«إِلَّا بِاللهِ» هذه ثلاثُ جُمَلٍ، قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يُقَالُ حِينَئِذٍ -أي: يُقالُ له-: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ» نظَرْتُم إلى هذا الخيرِ؟! «يُقَالُ لَهُ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ. وَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ»[1].

إنَّه ذِكرٌ عظيمٌ حينما تَلجَأُ وتَستعينُ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ!.

إِذَنْ عبادَ اللهِ مِثلُ هذه الأذكارِ حينَما تَكونُ لها هذه المَكانةُ العالِيةُ عِندَ اللهِ، والمنزِلةُ العظيمةُ عندَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونُؤمَرُ بالإكثارِ مِنْ ذِكرِها؛ فعلى العبدِ أَنْ يَلتزِمَ بذلِكَ راجِيًا عَفوَ رَبِّه، وراجِيًا الأجرَ والثوابَ.

o

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم (٥٠٩٥). وأخرجه بنحوه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم (٣٤٢٦).

(١٣)

نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ

الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ

o

اعلَموا أنَّ رأسَ مالِ الإنسانِ هوَ الوقتُ، فالوقتُ هو مادَّةُ الحياةِ، والوقتُ هو نِعمةٌ مِنْ نِعمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عِبادِه، تَفضَّلَ بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عِبادِه فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

ولعظيمِ أهمِّيَّةِ الوقتِ أقسَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى به في آياتٍ كثيرةٍ في كِتابِه الكريمِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر:٣٣-٣٤].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢].

وقـالَ تعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢].

وغير ذلِكَ منَ الآياتِ الدالَّة على عَظيمِ أهمِّيَّةِ الوقتِ.

وحديثُنا في هذا السِّياقِ، وفي هذه السِّلسلةِ المُبارَكةِ مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ، هو ما جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ) مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِي

اللهُ تعَالَى عَنْهُما إِذْ يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»[١].

إنَّهما منَ النِّعَمِ العظيمةِ الَّتي إذا لم تُستغلَّ خيرَ استِغلالٍ يَصيرُ الإنسانُ مَغبونًا، ويَقعُ في الخَسارةِ البيِّنةِ، حينما لا يَستفيدُ مِنْ صِحَّتِه، ولا يَستفيدُ مِنْ وقتِه، فهذه الصحَّةُ تُستخدمُ في طاعةِ اللهِ، وهذا الفراغُ يُملَأُ بطاعةِ اللهِ، كما أمَرَ نبيُّنا ﷺ، كما جاءَ عندَ الحاكِمِ في (مُستدركِه) حينَما قالَ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[٢].

فإنَّ هذا الفراغَ إذا لم يُملَأْ بالطاعاتِ سيُملَأُ جَزْمًا بغيرِ ذلكَ مِمَّا لا يُقرِّبُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لذا كانَتْ وَصيَّةُ أبي بَكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ للفاروقِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ قالَ: «إِنَّ للهِ حَقًّا بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ، وَحَقًّا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ»[٣]، فلكُلِّ وقتٍ مِنَ الحُقوقِ والواجِباتِ ما يَنبَغي أَنْ يُملَأَ بها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم (٦٤١٢).

(٢) المستدرك (٤/ ٣٠٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٣١٩، رقم ٩١٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٠/ ٥٨٥)، وأبو داود في الزهد رقم (٢٨).

لذا إذا رأيتَ الإنسانَ يَعيشُ بغيرِ عمَلِ الدُّنيا، وبغيرِ عمَلِ الآخِرةِ، إذا رأيتَ الإنسانَ يَعيشُ بغيرِ هدفٍ، إذا رأيتَ الإنسانَ يَخطو إلى غيرِ اتِّجاهٍ؛ فاعلَمْ أنَّه يعيشُ سَبهللا كما قال عُمرُ، يقولُ الفاروقُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «إنِّي أَكرَهُ الرجُلَ أَنْ أَراه سَبهللا؛ لا في أمرِ الدُّنْيا، ولا في أمرِ الآخِرةِ»، وهذا أمرٌ خَطيرٌ أَنْ تَمرَّ هذه الأوقاتُ دونَ أَنْ نَستفيدَ مِنها، فيما يُقرِّبُنا إلى الجَنَّةِ، ويُباعدُنا عنِ النارِ.

ونَهتمُّ بالوقتِ ونَحرصُ عليه لأربعةِ أسبابٍ:

السببُ الأوَّلُ:

لأنَّ الأوقاتَ قليلةٌ؛ فأعمارُنا بينَ السِّتِّين والسبعينَ، وقليلٌ ما يَجوزُ ذلكَ كما أخبَرَ النبيُّ ﷺ[1]، وهذه السِّتُّون، أوِ السَّبعونَ جلُّها يَمضِي في غيرِ وقتِ الطاعاتِ، بعضُها قبلَ البلوغِ، وبعضُها في أعمالِ الدُّنْيا، وبعضُها في أكلٍ وشربٍ، وبعضُها في مسامراتٍ، والباقِي منها قليلٌ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسأَلُ عِبادَه يومَ القيامةِ يَقولُ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿قَٰلَ كَمْ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في فناء أعمار هذه الأمة، رقم (٢٣٣١)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، رقم (٤٢٣٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ وهُمْ لا يَتذكَّرون إلَّا يومًا أو بعضَ يومٍ، قالَ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٥].

وكما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥].

نَتكلَّمُ عنِ الوقتِ لأنَّه قليلٌ كما قالَ الحسَنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقولُ: «يا ابنَ آدَمَ إنَّما أنتَ أيَّامٌ مجموعةٌ» حالُنا كحالِ شَجَرةٍ لم يَتبقَّ مِنها إلَّا ورَقةٌ واحِدةٌ «يا ابنَ آدمَ إنَّما أنتَ أيَّامٌ مَجموعةٌ كلَّما مضَى يومٌ مضَى بعضُكَ»[1]، فالعاقلُ هو الَّذي يَستَفيدُ مِنْ أوقاتِه، ولا يُؤخِّرُ، ولا يُسوِّفُ، ولا يَقولُ: أَنتظِرُ الغدَ يَأتِي حتَّى أَعملَ. بَلْ يَستفيدُ مِنْ كلِّ وقتٍ يَمُرُّ عليهِ.

السببُ الثاني:

لأنَّ ما مضَى مِنْه لا يَعودُ، فالأَمْس لا يُمكِنُ أَنْ يَعودَ، والنهارُ الَّذي مضَى مِنْه لا يُمكنُ أَنْ يَعودَ.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨٢).

يَقولُ الحسنُ البصريُّ -رَحِمهُ اللهُ تَعَالَى-: «ما مِنْ يومٍ يَنشَقُّ فجرُه إلَّا ويُنادِي يَقولُ: يا ابنَ آدمَ أنا خَلقٌ جديدٌ، وعلى عمَلِكَ شهيدٌ، فتَزوَّدْ مِنِّي فإنِّي إذا مضَيْتُ فلا أَعودُ»[(١)]، يُنادِي هذا اليومُ في كلِّ صباحٍ يُنادِينا يقولُ: أنا خلقٌ جديدٌ، وعلى عملِكَ شهيدٌ، فتزوَّدْ مِنِّي فإنِّي إذا مضَيْتُ فلا أَعودُ.

وكذا يقولُ أحدُ البُلغاءِ يَقولُ: «ثلاثةٌ ليسَ لها إيابٌ» ذَهابٌ بلا إيابٍ «الوقتُ والجمالُ والشبابُ» إذا ذهَبَتْ فلا يُمكِنُ أَنْ تَعودَ.

لذا فالعاقلُ هو الَّذي لا يَعقُّ يومَه، نعَمْ، هُناكَ مَنْ يعقُّ يومَه كما قالَ بعضُ الحكماءِ: «مَنْ أمضَى يومَه في غيرِ حقٍّ قضاهُ، أو فرضٍ أدَّاهُ، أو مَجدٍ أثَّلَه، أو حمدٍ حصَّلَه، أو خيرٍ أسَّسَه، أو عِلمٍ اقتبَسَه، فقَدْ عقَّ يومَه وظلمَ نفسَه»[(٢)].

السببُ الثالثُ:

لأنَّ القليلَ مِنه عندَ اللهِ كثيرٌ، فالدقيقةُ الواحِدةُ هيَ عندَ اللهِ عظيمةٌ تَتغيَّرُ بها الموازينُ، وترتفعُ بها الدرجاتُ، وتُمحَى بها السيِّئاتُ، بالدقيقةِ

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي الدنيا في الزهد رقم (٤٢٤).
(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص:٥٥).

الواحدةِ، ولكِنْ كَمْ مِنَ الدقائقِ فرَّطْنا فيها! بَلْ كَمْ منَ الأيامِ والشهورِ والسنَواتِ!.

تَدبَّروا عبادَ اللهِ! فالعبدُ إذا تابَ في لحظةٍ يَتوبُ، وإذا تابَ لا يَتطلبُ منه أَنْ يَتوبَ لحظةً، بل إذا تابَ تغيَّرَتْ موازينُه، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] تابَ في لَحظتِه، فإذا علِمَ اللهُ صِدقَ توبتِه بدَّلَ اللهُ سيِّئاتِه حسناتٍ.

وفي (صحيحِ البُخاريِّ) حديثٌ يُترجِمُ هذه الآيةَ -كما جاءَ في حديثِ البَراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قالَ: جاءَ رجلٌ مُقنَّعٌ بالحديدِ -والمعركةُ قائمةٌ وقائدُها رسولُ اللهِ ﷺ، فجاءَ هذا الرجلُ وهو مُشركٌ عابدٌ لغيرِ اللهِ، عابدٌ للأصنامِ- جاءَ إلى النبيِّ ﷺ قالَ: يا رسولَ اللهِ أُقاتلُ أَوْ أُسلمُ؟ أيُّهما أبدَأُ؟ قالَ: «**أَسْلِمْ، ثُمَّ قَاتِلْ**»، فأسلمَ فقاتَلَ فقُتِلَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا**» ما سجَدَ للهِ سَجدةً واحِدةً، بينَه وبينَ الكُفرِ أسلمَ فقاتَلَ

فقُتِلَ، فقالَ نبيُّنا ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»[١].

فالدقائقُ القليلةُ عندَ اللهِ كثيرةٌ، في (مُسندِ الإمامِ أحمدَ) وانظُروا كَمْ يَفوتُنا منَ الأوقاتِ، يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الجَنَّةِ»، كَمْ فوَّتْنا على أنفسِنا مُنذُ أصبَحْنا إلى الآنَ، قالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: إِذًا نَستكثِرُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ»[٢]، فتَقرؤُها عِشرينَ مرَّةً: قَصرانِ.

وبينَ الصلاةِ يَقولُ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والحديثُ في (صحيحِ مسلِمٍ) مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ- قالَ: «مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ المِئَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»[٣].

فالقليلُ منَ الوقتِ عندَ اللهِ كثيرٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب عمل صالح قبل القتال، رقم (٢٨٠٨)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٠).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٤٣٧)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السببُ الرابعُ:

لأنَّه سريعُ الانقضاءِ، وخاصَّةً في هذه الأزمِنةِ المُتأخِّرةِ الَّتي تَمُرُّ السَّنةُ كالشهرِ، والشهرُ كالأُسبوعِ، والأسبوعُ كاليومِ، واليومُ كاحتِراقِ السعفةِ، فالأيَّامُ سَريعةُ الانقِضاءِ، والعاقلُ مَنِ استَفادَ مِنْ لحَظاتِها.

يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥].

ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وفي سُورةِ النازِعاتِ يَقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

فالعاقلُ والرابحُ هوَ مَنِ استَفادَ مِنْ وقتِه، والمَغبونُ هو الَّذي أَخبَرَ النبيُّ ﷺ، الَّذي لا يَستَفيدُ مِنْ وقتِه.

وصدقَ رسولُنا الكريمُ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ».

o

(١٤)

أَوَّلُ صَلاحِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِينِ

o

أيُّها الأخيارُ! اليقينُ زادُ الصالِحِينَ، واليقينُ هوَ الدافعُ والملهِمُ للبذلِ والعطاءِ والتضحيةِ عندَ الأصفياءِ المُتَّقينَ، واليقينُ هو سِرُّ الأسرارِ الَّذي أَوقَدَ جَذوةَ العَطاءِ في قُلوبِ الأخيارِ، واليقينُ هو داءُ الوساوِسِ والظنونِ والريبِ، واليقينُ هو الإيمانُ كلُّه، كما حكَى ذلكَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ[١]، واليقينُ هو العِلمُ التامُّ الَّذي ليسَ فيه أدنَى شَكٍّ، المُوجِبُ للعملِ كما حَكاهُ السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

واليقينُ قالَ عَنْه أحمدُ بنُ عاصِمٍ الأَنطاكيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَسيرُ اليقينِ يُخرِجُ كلَّ الشكِّ مـنَ القلبِ، ويَسيرُ الشكِّ يُخرِجُ اليقـينَ كلَّه مـنَ القلبِ»[٣].

واليَقينُ قالَ عنه الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باليَقِينِ طُلِبَتِ الجَنَّةُ، وباليقينِ

(١) علقه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، (١/ ١٠)، ووصله عبد الله بن أحمد في السنة رقم (٨١٧)، والطبراني (٩/ ١٠٤، رقم ٨٥٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٤٦)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٧).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٠) ط. الرسالة.

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير رقم (٩٧٩).

هُرِبَ منَ النارِ، وباليَقينِ أُدِّيَتِ الفرائضُ، وباليقينِ صُبِرَ على الحقِّ»[(١)].

واليقينُ عبادةٌ قَلبيةٌ، وهي مِنْ أعظمِ العِباداتِ، لها عمَلٌ ووَظيفةٌ وأثَرٌ، وفضلٌ مُترتِّبٌ على ذلكَ.

واليقينُ هو حديثُنا ضِمنَ هذه السِّلسلةِ المُباركةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه ﷺ، إذْ يَقولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَوَّلُ صَلَاحِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِينِ وَالزُّهْدِ، وَأَوَّلُ فَسَادِهَا بِالبُخْلِ وَالأَمَلِ**»[(٢)].

فاليقينُ هو المقرونُ بالعمَلِ، ويَقينٌ بلا عمَلٍ لا يَنفعُ، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عمَلٌ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عمَلٌ ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣]، فعمَلٌ مَقرونٌ بيَقينٍ هو الَّذي يُورِثُ جَنَّةَ النعيمِ.

كانَ أحدُ السلفِ يُقالُ لهُ: حيوةُ. رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاءَهُ العطاءُ في كلِّ سَنةٍ، أخذَ عطاءَه سِتِّينَ دينارًا فتَصدَّقَ بها كلِّها قبلَ أَنْ يَصلَ إلى بَيتِه، فإذا

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ١٩٦، رقم ٥٥٨)، وأحمد في الزهد رقم (١٦١٧)، وابن أبي الدنيا في اليقين رقم (١٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٥٢)، وابن أبي الدنيا في اليقين رقم (٣)، والطبراني في الأوسط رقم (٧٦٥٠)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٣٥٠)، من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وصلَ إلى بيتِه ووضعَ رأسَه على وِسادتِه وجَدَ تحتَها المبلغَ الَّذي تَصدَّقَ بهِ كلِّه وزِيادةً؛ لأنَّه أَنفقَ وهو يُوقِنُ بقولِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]، فسمِعَ بصنيعِه ابنُ عمٍّ لهُ، فصنَعَ كصنيعِه تَصدَّقَ بعطائِهِ كلِّه، فجاءَ ابنُ العمِّ ودخلَ بيتَه وفتَّشَ وسادتَه وفِراشَه فما وجَدَ تحتَها شيئًا، فجاءَ لِحيوةَ يَقولُ: فعَلْت كفِعْلِكَ ولكِنِّي ما وجَدْتُ شيئًا، قالَ: يا ابنَ عمِّي أنا أَعطَيْت ربِّي بيَقينٍ وأنتَ أَعطَيْته تَجرِبةً[١]، واليقينُ والتجرِبةُ لا يَستويانِ.

تَوَكَّلْتُ فِي رِزْقِي عَلَى اللهِ خَالِقِي
وَأَيْقَنْتُ أَنَّ اللهَ لَا شَكَّ رَازِقِي
وَمَا يَكُ مِنْ رِزْقِي فَلَيْسَ يَفُوتُنِي
وَلَوْ كَانَ فِي قَاعِ البِحَارِ العَوَامِقِ
سَيَأْتِي بِهِ اللهُ العَظِيمُ بِفَضْلِهِ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي اللِّسَانُ بِنَاطِقِ
فَفِي أَيِّ شَيْءٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً
وَقَدْ قَسَّمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الخَلَائِقِ[٢]

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٥).
(٢) الأبيات للشافعي في ديوانه (ص:٨٤).

واليقينُ هوَ أَنْ تَعلَمَ علمًا تامًّا باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبِما أَخبَرَ بهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبما أُخبرَ بِهِ عَنْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

واليقينُ عِبادةٌ كسائِرِ العباداتِ لها فضائِلُ وثمَراتٌ، ولها آثارٌ يَترتَّبُ على فعلِها.

وحديثُنا عَنْ فضائلِ وثمراتِ اليَقينِ:

الثَّمرةُ الأُولى:

مَنْ حقَّقَ اليقينَ قوِيَ إيمانُه، فاليقينُ دليلٌ على قوَّةِ الإيمانِ، وانظُروا هذا الحديثَ العجيبَ الَّذي رَواهُ عددٌ منَ المُحدِّثين، وإِنْ كانَ فيه مَقالٌ؛ لكِنْ وقفَ الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخِرِ حياتِه ومراجعاتِه فحسَّنَه[1]، هو حديثُ النبيِّ ﷺ حينما قالَ للصحابةِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُم: «**أَيُّ الخَلْقِ أَعْجَبُ إِيمَانًا؟**» هذا السؤالُ قالوا: الملائكةُ -أعجبُ الخلقِ إيمانًا الملائِكةُ-، قالَ: «**وَمَا لَهُمْ لَا يُؤمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!**» -يَعنِي: الجوابُ غيرُ صحيحٍ- قالوا: فالنبيُّونَ. قالَ: «**وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟!**» قالوا: فنحنُ -أيِ: الصحابةُ- قالَ: «**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَلَا**

(١) انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٣٢١٥)، وتراجع العلامة الألباني لمحمد حسن الشيخ رقم (٩١).

إِنَّ أَعْجَبَ الخَلْقِ إِيمَانًا قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا فِيهَا كِتَابٌ، فَيُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»[(١)].

هؤلاءِ أعجبُ الخلقِ إيمانًا يَجِدون صُحفًا، لم يَرَوْا ربَّهم، ولَمْ يَرَوْا رسولَهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنَّما رأَوْا صُحفًا وفي هذه الصحفِ تَشريعٌ، فآمَنوا بهذا التشريعِ، كُتِبَ في هذِه الصحُفِ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥] فترَكوا الرِّبا.

كُتِبَ في هذه الصحفِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] فتَرَكوا الزِّنا.

وجَدوا في هذه الصحفِ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢] فترَكوا الغِيبةَ.

وجَدوا في هذه الصحفِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] فأَقاموا الصلاةَ.

لم تَسمَعْ آذانُهم قولًا لرسولٍ بينَهم، وإنَّما هي صُحفٌ بينَ أيدِيهِم قرَؤُوها؛ فأَيقَنوا بصِدْقها فآمَنوا بها فعمِلوا بما فيها.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ٤٨٧، رقم ٧٢٩٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة رقم (١٦٧١)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٥٣٨)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثمرةُ الثانيةُ:

اليقينُ دليلٌ على الإتيانِ بأفضلِ الأعمالِ، سُئِلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والحديثُ عندَ النسائيِّ-: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قالَ: «**إِيمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَجِهَادٌ لَا غُلُولَ فِيهِ، وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ**»[1] إيمانٌ سالمٌ مِنَ الخُدوشِ لا شكَّ فيه، وجهادٌ سالمٌ منَ الخُدوشِ لا غُلولَ فيهِ، وحَجَّةٌ سالِمَةٌ منَ الخُدوشِ لا رفثَ فيها.

لهذا مِنَ الخَطَأ الكبيرِ أَنْ يَقولَ أحَدُنا: -حتَّى وإِنْ كانَ مازِحًا- واللهِ لا نَدري نحنُ الَّذينَ على الصوابِ أَمْ لا. فبعضُ الناسِ يَقولُ هذا: واللهِ لا نَدري نحنُ الَّذينَ على الصوابِ أمِ الجَماعةُ الفلانيةُ همُ الَّذينَ على الصوابِ! ليسَ عِندَه يَقينٌ بما يَعتقدُ، ليسَ عندَه يقينٌ بما يُؤمِنُ بِهِ!.

قالَ ﷺ: «**أَفْضَلُ الأَعْمَالِ: إِيمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ**» أقوَى منَ الجِبالِ الرَّواسِي عندَه يقينٌ.

الثمرةُ الثالثةُ:

مَنْ حقَّقَ اليقينَ نالَ السُّؤددَ، والرِّيادةَ، والتَّمكينَ في الأرضِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١١)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب جهد المقل، رقم (٢٥٢٦)، من حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجَدْت هذا في هذِه الصحفِ الَّتي بينَ أيدينا، وجَدْته في كتابِ اللهِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ متَى يا ربَّنا؟ قالَ: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

الثمرةُ الرابعة:

اليقينُ سببٌ لاستِجابةِ الدُّعاءِ، فالدُّعاءُ كلَّما كانَ بيقينٍ حريٌّ أَنْ يُستجابَ، يَدعو وهوَ على يقينٍ أَنْ يَتحققَ الأمرُ، كما كانَ بعضُ السلفِ إذا دَعا يَدعو بيَقينٍ أنَّ هَذا الأمرَ سيَتحقَّقُ.

قالَ نبيُّنا ﷺ -والحديثُ عندَ التِّرْمذيِّ-: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ**» عندَكم يَقينٌ، لا نَدعو لنُجرِّب، بَلْ نَدعو بيَقينٍ، «**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[1].

الثمرةُ الخامسةُ:

الصبرُ والاحتِسابُ، فالَّذي امتَلأَ قلبُه يقينًا تَجدُه أكثرَ الناسِ صبرًا واحتسابًا؛ لأنَّه عندَه يَقينٌ بالأجرِ المُترتِّبِ على هذا البلاءِ، بالأجرِ المُترتِّبَ على هذا المصابِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: ومَنْ يُوقنُ باللهِ ﴿يَهْدِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

إنَّه اليقينُ الَّذي كلَّما عظُمَ أمرُه في القلبِ، واستقَرَّ في القلبِ سعدُ صاحبِه.

الثمرةُ السادسةُ:

وتَأمَّلوا هذه الثمَرةَ! فإنَّ الَّذي يُحقِّقُ اليقينَ في الدُّنْيا يُوفَّقُ لحُسنِ الجَوابِ في القبرِ -اللَّهُمَّ وسِّعْ على أهلِ القبورِ قُبورَهم- فالعبدُ إذا أُنزلَ في قبرِه سواءٌ كانَ مسلِمًا أو كافِرًا تُوجَّهُ له أسئلةٌ واحِدةٌ، ولكِنِ الجوابُ مُختلِفٌ، الموقِنُ جوابُه مُختلِفٌ عنِ المُرتابِ الَّذي في شكٍّ.

وفي (صحيحِ البُخاريِّ) أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّكُمْ سَتُفْتَنُونَ**» أَيْ: ستُمتَحَنون، أَيْ: ستُسأَلون «**فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ -أَوْ قَرِيبًا مِنْ- فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**» أي: في خُطورتِها «**يُقال**» أي: لكُلِّ واحِدٍ: «**مَا عِلْمُكَ بِهَذا الرَّجُلِ؟**» أي: نبيِّنا محمدٍ ﷺ «**فَأَمَّا المُؤْمِنُ المُوقِنُ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَى فَآمَنَّا بِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ**»، نَعلمُ جوابَكَ «**وَأَمَّا المُنَافِقُ أَوِ المُرْتَابُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ**»[1]، يقولُ: واللهِ لا أَدرِي سمِعْت الناسَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَقولونَ شيئًا وأنا معَهُم، بدونِ يقينٍ، أُردِّد بلسانِي ما لم يُواطِئْ بهِ قلبي فقَطْ بدونِ يَقينٍ، سمِعْت الناسَ يَقولونَ شيئًا فقُلْتُه، فمَنْ حَقَّقَ اليقينَ في الدُّنيا وُفِّقَ لحسنِ الجَوابِ في القبرِ.

الثمَرةُ السابِعةُ:

أنَّ أهلَ اليَقينِ هُمْ أهلُ الجَنَّةِ، يَقولُ نبيُّنا ﷺ -في الحديثِ عِندَ مُسلمٍ حينَما أَرسَلَ أبا هُريرةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ- قالَ: «**فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**»[1] أهلُ لا إلهَ إلَّا اللهُ إذا ردَّدوها بيَقينٍ، واليَقينُ شرطٌ مِنْ شروطِ لا إلهَ إلَّا اللهُ السَّبعةِ، إذا رأَيْتَ مَنْ يَقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ. بيَقينٍ فبشِّرْه بالجَنّةِ؛ نعَمْ إنَّه اليقينُ، عِبادةٌ مِنْ عباداتِ القلوبِ العَظيمةِ.

أَسألُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لي ولكُمْ أَنْ نُوفَّقَ إليها.

o

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، رقم (٣١).

(١٥)

إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُه

o

إنَّ الرِّزقَ منَ القضايا المُهمَّة الَّتي تَشغَل بالَ الإنسانِ، وتَأخُذ حيِّزًا كبيرًا مِن تَفكيرِه، وجهدِه، ووقتِه، وقَضيَّةُ الرِّزقِ للإنسانِ هي منَ القضايا المُهِمَّةِ، ولا أقولُ: للإنسانِ فحسبُ بَلْ جميعِ الخلقِ، فمِن أُولى القَضايا الَّتي يَهتمُّون بها قضيةُ الرِّزقِ بتَعدُّدِ صُورِه وأنواعِه، ولرُبَّما دفَعت هذه القَضيةُ بعضَ الخَلْق لتَجاوُزِ الحُدودِ، فرُبَّما سرَقَ مِن أَجْلِ الرزقِ، أو سَعَى في قتلِ غيرِه مِن أجلِ الرِّزقِ، أوِ ارتَكَبَ حرامًا مِن أَجْلِ الرزقِ، ولرُبَّما شغَلَه الرِّزقُ عنِ الغايةِ من خَلْقه.

لِذا قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال: هذا الرزقُ الَّذي تَبحَثون عنه هو عِنده في السماءِ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٢-٢٣].

بجَميعِ أنواعِ الرِّزْقِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

قال: يا ابنَ آدَمَ تَفرَّغْ لعِبادتي وأنا أَتكفَّلُ برِزْقِكَ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وليسَ رِزْق الإنسانِ فحسبُ، بَلْ جميعِ الخَلْقِ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٢-٢٣].

يَرزُق مَن يَشاءُ متَى شاءَ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ:٣٦].

لذا جاءَ هذا الحَديثُ الَّذي نحنُ بصدَدِه، والَّذي نَضُمُّه إلى سابِقِيه في هذه السِّلسلةِ المُبارَكةِ من جَوامعِ كلِمِه ﷺ؛ لأنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلَمون هذه المَسألةِ في الرِّزقِ، وهي أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ**» حديثٌ صحيحٌ رواه ابنُ حِبَّانَ في (صحيحِه) مِنْ حَديثِ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

إنَّ الرِّزقَ هذا الذي نَسعَى إليه ونُهرِول وَراءَه، هو يَطلُبنا كما تَطلُبنا آجالُنا «**إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ**»، فكما تَطلُبُنا هذه الساعاتُ الَّتي تَقِف عِندَ آجالِنا تَطلُبُنا أرزاقُنا، فلَنْ يَتوقَّف النفَسُ ولكَ

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٠/ ٣٧، رقم ٤٠٩٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٣٢٣٨)، والبيهقي في الشعب رقم (١١٤٧).

عندَ اللهِ شيءٌ منَ الأرزاقِ أبَدًا.

إنَّ الرِّزقَ -كما تَقدَّمَ- هو منَ القَضايا المُهِمَّةُ، فبابُ الرزقِ عَظيمٌ، جعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للرزقِ مَفاتيحَ مُتعدِّدةً، أُجمِلُها في بعضِ هذه المَفاتيحِ:

المِفتاحُ الأوَّلُ:

مِفتاحُ الطاعةِ، فالطاعةُ تَجلِبُ الأرزاقَ، ففي (مَدارِجِ السالِكينَ) يَقولُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويُورِد أثَرًا لحَبرِ الأُمَّةِ وتَرْجمانِ القُرآنِ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما، يَقولُ: «إنَّ للحسَنةِ» أي: للطاعةِ «نُورًا في القلبِ، وضِياءً في الوجهِ، وقُوَّةً في البدنِ، وزِيادةً في الرِّزقِ، ومَحَبَّةً في قلوبِ الخَلْقِ، وإنَّ للسيِّئةِ سَوادًا في الوجهِ، وظُلمةً في القَلْبِ، ووهَنًا في البدَنِ، ونَقصًا في الرِّزقِ، وبُغضًا في قُلوبِ الخَلْقِ»[(١)].

فالحسَناتُ والطاعاتُ بابٌ مِن أبوابِ الرِّزقِ، وصدَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

فمِنْ أعظمِ الطاعاتِ الَّتي تَجلِب الأرزاقَ الصلاةُ والمحافظةُ عليها، فرضِها ونَفْلِها ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢٣).

نَحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

فالطاعةُ بابٌ مِن أبوابِ الرِّزْقِ ومِفتاحٌ مِن مَفاتيحِه العَظيمةِ.

المفتاحُ الثاني:

مِفتاحُ العَطاءِ، إذا أَعطَيْتَ أُعْطِيتَ، وإذا أَنفَقْتَ أُنفِقَ عليكَ، وإذا قدَّمْت ومدَدْتَ يدَكَ مُدَّتْ لكَ الأيادِي بالعَطاءِ، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ قليلًا كان هذا الشيءُ أو كثيرًا، عَظيمًا أو حقيرًا، ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

وفي الحَديثِ القُدسيِّ يَقولُ ربِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»[(١)].

وفي الحديثِ الآخَرِ يَقولُ ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا. وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم (٥٣٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (١٤٤٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المِفتاحُ الثالثُ:

حُسْنُ التوكُّلِ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففي آياتِ الطلاقِ يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق:٢-٣] ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ أي: فهو كافيهِ، فاللهُ يَكفيكَ ما أَهمَّكَ، وما أَغمَّكَ.

لذا يَقولُ عمرُ الفاروقُ أميرُ المُؤمِنين الخليفةُ الراشدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمِعَ النبيَّ ﷺ يَقولُ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[1] «تَغْدو» في صَباحِها «خِماصًا» ليس في بطنِها شيءٌ «وتَروحُ» أي: وتَعودُ «بِطانًا».

تَوَكَّلْتُ فِي رِزْقِي عَلَى اللهِ خَالِقِي
وَأَيْقَنْتُ أَنَّ اللهَ لَا شَكَّ رَازِقِي
وَمَا يَكُ مِنْ رِزْقٍ فَلَيْسَ يَفُوتُنِي
وَلَوْ كَانَ فِي قَاعِ البِحَارِ العَوَامِقِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَـــيَأْتِي بِـــهِ اللهُ العَظِـــيمُ بِفَضْـــلِهِ
وَلَـــوْ لَمْ يَكُـــنْ مِنِّـــي اللِّسَـــانُ بِنَـــاطِقِ
فَفِـــي أَيِّ شَيْءٍ تَـــذْهَبُ الـــنَّفْسُ حَســـرَةً
وَقَـــدْ قَسَـــمَ الـــرَّحْمَنُ رِزْقَ الخَلَائِـــقِ(١)

المِفتاحُ الرابِعُ:

مِفتاحُ الاستِغْفارِ، فأكثِرْ منَ الاستِغْفارِ وانظُرْ كيفَ يُفتَحُ لكَ بابُ الرِّزقِ، لا أقولُ لكَ: جرِّبْ، ولكِنْ أَقولُ لكَ: قُلْها بيَقينٍ: أَستغفِرُ اللهَ، أَستغفِرُ اللهَ، أَستغفِرُ اللهَ. فوَاللهِ ما استَغفَرَ عبدٌ إلَّا وفُتِحَ له بابٌ منَ الرِّزقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

وحينَما جاءَ رجُلٌ إلى الحسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَشكو إليه الجدبَ والقحطَ، فإنَّ السماءَ أَمسَكَت ماءَها، والأرضَ غارَ ماؤُها، جفَّ الضرعُ، وهلَكَ الزرعُ، فجاءَ يَشكو للحسَنِ هذه الحالةَ، فقالَ له رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استَغْفِرِ اللهَ» وجاءَهُ آخرُ يَشكو إليه الفقرَ، فقالَ له الحسَنُ: «استَغفِرِ اللهَ» وجاءَهُ ثالِثٌ يَشكو قِلَّةَ

(١) الأبيات للشافعي في ديوانه (ص:٨٤).

النسلِ، قال له: «استَغفِرِ اللهَ» وجاءَهُ رابعٌ يَشكو إليه قِلَّةَ الحَصادِ، فقالَ له: «استَغفِرِ اللهَ»، فلمَّا قامَ الأربعةُ قال له مَن حولَه: شكا إليكَ كلُّهم حاجتَه وأَرشَدْتَهم إلى أمرٍ واحدٍ، قالَ: كيفَ لا واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢]؟![1]

المِفتاحُ الخامِسُ:

كَفالةُ الضُّعفاءِ والمَساكينِ والمُعوزين، يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[2] يَعنِي: إذا قُمتُم على شُؤونِهم.

وقد كان أَخَوانِ على عهدِ النبيِّ ﷺ، أَخٌ مُحترِفٌ -يَعنِي: له حِرفةٌ- والآخَرُ يَأتِي إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطلُبُ العِلم، مرَّتِ الأيَّامُ فجاءَ المُحترِفُ -صاحبُ الوَظيفةِ- يَشكو الآخرَ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: يا رَسولَ اللهِ، أَنا أَحترِفُ وأَسعَى عليهِ، وهو يَطلُبُ العِلمَ عندَكَ، فقالَ ﷺ: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم (٢٨٩٦)، من حديث مصعب بن سعد.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأنتَ -أيُّها المُبارَكُ- حينما تَقوم على شَأنِ أحَدِ إخوانِكَ دِراسةً وتَعليمًا فإنَّكَ تُرزَقُ به، حينما تَقومُ على يَتيمٍ تَكفُلُه فإنَّكَ تُرزقُ به، وليس في هذا دَعوةٌ للبَطالةِ، فهذا الَّذي يَطلُبُ العِلمَ طلَبَه لِيَنفعَ الأُمَّةَ، وهذا النفعُ المُتعدِّي الَّذي تَنتفِعُ به الأُمَّةُ مُستقبَلًا.

المِفتاحُ السادسُ:

وهو الدُّعاءُ، فإذا كانَتْ أرزاقُنا بيَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلْنَطرُقْ بابَ السماءِ، ولا نَمَلَّ، نَقولُ: يا اللهُ، يا اللهُ. فقَدْ كانَ نبيُّنا ﷺ يَقولُ -ويُكثِرُ مِن قولِه-: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ، وَالقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ**»(١).

فقد كانَ يَتعوَّذُ ﷺ منَ الفَقرِ، جاءَ رجُلٌ إلى أميرِ المُؤمِنين الخَليفةِ الراشِدِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ يَشكو إليهِ ديونًا تَراكَمَتْ عليه، فقالَ له الخَليفةُ الراشدُ عليٌّ بنُ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: أَلَا أُعلِّمُكَ كلماتٍ علَّمَنيهِنَّ رسولُ الله ﷺ، لَوْ كانَ عليكَ مِثلُ جبَلِ صبيرٍ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٤٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه النسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الذلة، رقم (٥٤٦١)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٤٢)، بلفظ: «**تعوذوا بالله من الفقر والقلة والذلة، وأن تظلم أو تظلم**».

-جبَلُ صبيرٍ أو جبَلُ صبرٍ أحَدُ أكبَرِ وأعظَمِ الجِبالِ في جَزيرةِ العربِ- دَيْنًا لأدَّاه اللهُ عنكَ، قُلِ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»[1].

فيا مَنْ تَشكو الديونَ كَمْ مرةٍ ردَّدْتَ هذا الدعاءَ؟! الَّذي تَطرُق به بابَ السماءِ «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ» تَقولُه وأنتَ مُوقِنٌ به، لا تَقولُه تَجرِبةً، بل تَقولُه وأنتَ على يَقينٍ أنْ لو كان عليكَ مِثلُ جبَلِ صَبيرٍ دَيْنًا لأدَّاها اللهُ عنكَ «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ».

نعَمْ يا عِبادَ الله، إنَّ الرِّزقَ ليَطلُبُ العبدَ كما يَطلُبُه أجَلُه، فأَرزاقُنا مَقسومة مَكتوبة تَحتاجُ مِنَّا إلى سَعيٍ، وهذه المَفاتيحُ السِّتُّ هي أحَدُ أبوابِ هذا السعيِ.

o

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٣)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٦٣)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٦)

إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ

o

إنَّ إخلاصَ العملِ للهِ وحدَه مطلَبٌ أساسيٌّ وضروريٌّ، وقَدْ دلَّتْ نُصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ على ذلكَ، وهو أصلٌ في عقيدةِ المسلِمِ أَنْ يُخلصَ عمَلَه للهِ وحدَه، قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

وفي (صحيحِ مسلِمٍ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ فيما يَرويهِ عَنْ ربِّه في الحديثِ القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[(١)].

فالإخلاصُ فضيلةٌ عظيمةٌ تُنقِّي العمَلَ مِنْ شوائبِ الرِّياءِ، وتُزكِّيه وتُنقِّيه حتَّى يَرتقيَ فيُقبَل، كما قالَ بعضُ السلَفِ: «كَمْ مِنْ عملٍ صغيرٍ تُعظِّمه النيَّةَ! وكَمْ مِنْ عملٍ كبيرٍ تُصغِّرُه النيَّةُ!»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٤)، ونسبه الذهبي في تاريخ الإسلام (١٢/ ٢٣٧) لابن المبارك.

والإخلاصُ هو مُجاهدةُ النفسِ ومُصارعتُها، وصدُّها عَنْ رغباتِها فيما هو عِندَ غيرِ اللهِ، كما قالَ سُفيانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عالَجْتُ شيئًا أشدَّ عليَّ مِنْ نَفْسي»[(١)] مرَّةً لي ومرَّةً عليَّ.

والإخلاصُ هو حديثُنا الآن، وحديثُنا المختارُ في هذه السِّلسلةِ المُباركةِ مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ حديثُ أبي أُمامةَ الباهليِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندَ النَّسائيِّ، يَقولُ فيه نبيُّنا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[(٢)].

وهو حديثٌ عظيمٌ يُوفِّر عليكَ الوقتَ، ويُوفِّرُ عليكَ الجهدَ، ويَجعلُ بوصلَتَكَ في اتِّجاهٍ واحدٍ.

يَقولُ لكَ: «إنَّ اللهَ لا يَقبلُ منَ العملِ إلَّا ما كانَ له خالِصًا»، فإذا كانَ عندَكَ يا عبدَ اللهِ أعمالٌ هي ليسَتْ للهِ فلا تُجهِدْ نفسَكَ ولا تُتعِبْها، واحرِصْ على وقتِكَ ألَّا يَفوتَ فيها، فإنَّ اللهَ لا يَقبلُ منَ العملِ إلَّا ما كانَ له خالِصًا، وابتُغِيَ به وجهُه.

ولهذا الحديثِ قصةٌ: أنَّ رجُلًا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ، قالَ: يا رسولَ اللهِ، أرَأَيْتَ رجُلًا غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ -يَلتمِسُ الأجرَ مِنْ عندِكَ،

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٦٢).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، رقم (٣١٤٠).

والذِّكرَ على ألسُنِ الناسِ، يُريدُ أجرَ الدُّنيا ويُريدُ أجرَ الآخِرةِ- ما لَهُ؟ قالَ ﷺ: «لَا شَيْءَ»، فأعادَها عليه: أرَأَيْتَ رجُلًا غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكرَ ما لَهُ؟ قال: «لَا شَيْءَ» فأَتاهُ مِن جانِبٍ آخرَ: أرَأَيْتَ رجُلًا غزا يَلتمسُ الأجرَ والذِّكْرَ ما لَهُ؟ قال: «لَا شَيْءَ، إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ».

إنَّ الإخلاصَ منَ المَقاماتِ العَظيمةِ، ومنَ العباداتِ العَظيمةِ، وإذا أَرَدْتَ أَنْ تَصِلَ إلى هذا المَقامِ، وأَنْ تَتعبَّدَ بهذه العِبادةِ؛ فإنِّي أُرشِدُك ونَفْسي إلى خُطواتٍ، مَنْ أخذَ بها وصلَ إلى هذا المقامِ، وتَلبَّسَ بهذه العِبادةِ:

الخُطوةُ الأُولى:

استَعِنْ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ تكونَ مُخلِصًا، قُلْ: يا ربِّي أَسأَلُكَ وأَنشُدُك أَنْ يَكونَ عمَلي خالِصًا؛ لأنَّ هذا القلبَ هو مَكمَنُ الإخلاصِ، والقلبُ يَتقلَّبُ، كما سيأتي بعدَ قليلٍ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وفي (سُننِ التِّرْمذيِّ) يَقولُ أَنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ رسولُ الله ﷺ وكانَ

يُكثِرُ مِنْ ذلكَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[١] فحينما يَتقلَّبُ القلبُ ليسَ بالضَّرورةِ أَنْ يَكونَ صاحِبُه مُصلِّيًا فيَترُكُ الصلاةَ، وليسَ بالضَّرورةِ أَنْ يَكونَ صاحِبُه صائِمًا فيَترُكُ الصيامَ، إنَّما تَقلُّبُ القلبِ أنَّ يَكونُ صاحِبَه يُصلِّي للهِ فتَقلَّبَ فأَصبحَ يُصلِّي ولكِنْ لغيرِ اللهِ، كانَ يَتصدَّقُ للهِ ولكِنْ تَقلَّبَ القلبُ وانصرَفَ، فأَرادَ الثناءَ والمدحَ على صدَقتِه مِنْ عندِ غيرِ اللهِ.

وفي حَديثِ أبي مُوسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (مُصنَّفِ ابنِ أبي شَيبةَ): خطَبَ النبيُّ ﷺ خُطبةً فقالَ فيها: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» -يَعنِي: هذا الرِّياءَ، وهذا العملُ الَّذي هو يُقابِلُ الإخلاصَ في خَفائِه أشدُّ خَفاءً مِنْ دَبيبِ النَّملِ- فقالَ له مَنْ شاءَ أَنْ يَقولَ: وكيفَ نَتَّقيه وهو أَخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّملِ يا رسولَ اللهِ؟ فأَرشَدَهم إلى هذه الخُطوةِ، وهي: الاستِعانةِ باللهِ، فقالَ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»[٢]، يُعلِّقُهم باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣)، وابن أبي شيبة (١٥/ ٢٧٩).

إِذَنِ الخُطوةُ الأُولى في طريقِ المُخلِصين إلى الإخلاصِ الاستعانةُ باللهِ.

الخُطوةُ الثانيةُ:

أَداءُ الفرائضِ، فأَداءُ الفرائضِ هي الخُطوةُ التاليةُ؛ لأنَّ الشَّيْطانَ رآكَ تَستمعُ لِمثلِ هذه الموضوعاتِ: موضوعِ الرياءِ، وموضوعِ الإخلاصِ، قَدْ يُزهِّدُك في العملِ، ويَقولُ: اترُكْ هذا العملَ ففيه رِياءٌ، واترُكْ هذا العملَ فإنَّه ليسَ إخلاصًا، وعلاجُه: أَنْ تَأتيَ إلى هَذِه الفرائضِ، وتُؤدِّيَها، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

الخُطوةُ الثالثةُ:

العملُ على تَنقيةِ القلبِ، ومُجاهدتِه وتَنظيفِه، وهذا يحتاجُ إلى مُعالجةٍ دائمةٍ، صباحَ مساءٍ، لا يَغفُلُ الإنسانُ عن قلبِه؛ لأنَّه يَتقلَّبُ، والقلبُ موضِعَ نظرِ الربِّ، ففي (صحيحِ مسلِمٍ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى

صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[١].

فالقلبُ موضِعَ نظرِ الربِّ، ليسَتْ هذه الثيابُ، ليسَتْ هذه الأموالُ، ليسَتْ هذه المَراكبُ، موضعُ نظرِ الربِّ هو ما في قلوبِنا، فالعاقلُ هو الَّذي يَعملُ على تَنقيةِ وتَنظيفِ وتَزكيةِ هذا القلبِ، والسببُ أنَّه يَتقلَّبُ، ليسَتْ قلوبُكم أنتُم وحدَكُم، بل قَلْبي وقَلبُكم وقلوبُ العِبادِ كلِّها تَتقلَّبُ، مِنْ صلاحٍ إلى طلاحٍ، ومِنْ خيرٍ إلى شرٍّ، والعبدُ يُعالِجُ هذا التَّقلُّبَ، وحبيبُنا ﷺ يَقولُ: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ» أي: كلِّ بني آدَمَ «أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ القِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْيًا»[٢]، إذا فارَ الماءُ من شِدةِ الحَرارةِ يَتحرَّكُ، وهكذا القلوبُ تَتحرَّكُ، فيَعمدُ الإنسانُ مِنَّا إلى تَنقيةِ هذا القلبِ من هذه الشوائبِ.

الخُطوةُ الرابِعةُ -وأَراها مِنْ أهمِّ الخُطواتِ بعدَ الاستِعانةِ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى-:

مُجاهدةُ النفسِ، ألَّا تَلتفِتَ إلى مَكاسبِ الدُّنْيا، فإذا رأيتَ نفسَكَ تعملُ العملَ الَّذي يَنبَغي ألَّا يُصرَفَ إلَّا لله ونَفسُكَ تَتطلَّعُ إلى الدُّنْيا فتَراجَعْ، فوقتُكَ ذاهبٌ وجهدُك ضائِعٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤)، من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقولُ عَمرُو بنُ عبَسةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «إذا كانَ يومُ القِيامةِ جِيءَ بالدنيا فيُميَّز منها ما كانَ للهِ، وما كانَ لغيرِ اللهِ يُرمَى به في نارِ جهنَّمَ»(١) أي عِبادةٍ: كنتَ خطيبًا لا تَلتَفِتْ إلى الدنيا، كنتَ إمامًا أو مؤذِّنًا لا تَلتَفِتْ إلى الدنيا، كنتَ آمِرًا بالمَعروفِ ناهيًا عنِ المُنكرِ مُصلِحًا في قومِكَ لا تَلتَفِتْ إلى الدنيا، أرَدْتَ أَنْ تَتصدَّقَ لا تَلتَفِتْ إلى الدنيا، فإنَّ هذا يَذهَبُ ولا يُقبَلُ عندَ الخالقِ سبحانه.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ مَنْ كانَ يُريدُ بعمَلِه الصالحِ: صلاةٍ، زكاةٍ، نفقةٍ، برٍّ؛ ﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] يَحصلُ على الدنيا، ولكِنْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦].

ويَقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يَعنِي: الدُّنْيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الزهد رقم (٢٨٣)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٤٣٣).

ويَقولُ اللهُ سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، قَدْ يَكونُ هذا المَطلبُ، وهذا الالتِفاتُ التِفاتًا لثناءٍ منَ الناسِ، يُقالُ للخَطيبِ: ما أَحسَنَكَ! ما أَفصحَكَ! ما أَبلغَكَ! فيَطمَعُ في هذه الكلماتِ فيَذهَبُ أجرُه؛ لذا لا يَلتفِتِ الإنسانُ لهذه النفسِ، إلى مَكاسِبِ الدُّنيا الحِسِّيَّةِ أوِ المعنويَّةِ.

يَقولُ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يُعلِّقُ على إِثْرِ هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ قالَ: «ومَنْ طلَبَ منَ الفُقراءِ الدُّعاءِ، أوِ الثناءَ خرَجَ مِنْ هذه الآيةِ»[(١)]، إذا أَعطَى الفقيرَ قالَ: لا تَنسَنا مِنْ صالِحِ دُعائِكَ. أي: هذا في مُقابِلِ هذا، يَقولُ: «يخرج مِنْ هذه الآيةِ»؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

وكانَتْ أُمُّنا عائِشةُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا تُترجِمُ هذه الآيةَ في واقِعِها، فإذا أَرسَلَتْ هديةً إلى جارتِها قالَتْ لِمَنْ تُرسِلُ: قِفْ ببابِهم واسمَعْ ماذا يَقولون. فيَقولونَ: جَزاها اللهُ خيرًا، قالَتْ: فقُلْ لهم: كما يَقولون، فيَكونُ الأجرُ سواءً، ويَبقَى أجرُ صدقتِنا لنا[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١١١).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (١٠٠٦٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (٢٧٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ١١١).

وفي كِتابِ (إحياءِ عُلوم الدِّينِ) يُورِدُ الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قِصَّةً عَظيمةً عَنْ رجلٍ قالَ: «قضَيْت صلاةَ ثلاثينَ سَنةً» انظُرْ إلى هذه الطامَّةِ «قضَيْت صلاةَ ثلاثينَ سَنَةً كنت أُصلِّيها في المَسجِدِ في الصفِّ الأوَّلِ؛ وذلكَ أني في يومٍ منَ الأيَّامِ تَأخَّرْتُ عنِ الصلاةِ فصلَّيْتُ في الصفِّ الثاني، وأنا أُصلِّي في الصفِّ الثاني أَصابَتْني خجلةٌ -أَيْ: حياءٌ- مِنْ نظرِ الناسِ إليَّ -يَقولونَ: فُلانٌ يُصلِّي في الصفِّ الثاني!- فأَدرَكْت حينَها أَنَّني في هذه الثلاثينَ سَنَةً كنتُ أُصلِّي مِنْ أجلِ نظَرِ المَخلوقينَ»، وجَدَ نفسَه في حَرَجٍ أَنْ يُصلِّيَ في الصفِّ الثاني، لا لأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه؛ بَلْ لأنَّ الناسَ يَطَّلِعون عليه، فأَدرَكَ أَنَّه كانَ حريصًا على الصفِّ الأوَّلِ ليُمدحَ، ويُثنَى عليه، ويُمجَّد بمُحافَظتِه على الصفِّ الأوَّلِ، قال: «فقَضَيْتُ صلاةَ ثلاثينَ سَنَةً»[1].

إنَّه الإخلاصُ الَّذي قال فيه عُلماءُ الأُمَّةِ: لا خَلاصَ إلَّا بالإخلاصِ.

الخُطوةُ الخامِسةُ -في طريقِ المُخلِصينَ إلى مَقامِ الإخلاصِ-:

كِتمانُ الحسَناتِ، فاكتُمْ حسناتِكَ كما تَكتُمُ سَيئاتِكَ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَعلمُ بالمُتَّقي فينا فلا نَحتاجُ أَنْ نَقولَ للناسِ: نحنُ أَتقياءَ، نحنُ أَخفياءُ،

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٢).

فهَذِه أعمالُنا وصدَقاتُنا وحسناتُنا وصلواتُنا ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

وسُئِلَ بعضُ الحُكماءِ، قيلَ له: مَنِ المخلِصُ؟ قالَ: «المُخلصُ هو الَّذي يَكتمُ حسناتِهِ كما يَكتُمُ سيِّئاتِه»[(١)]، فكما يُخفِي سيئاتِه ومعاصِيَه عنِ الناسِ يُخفِي حسناتِه.

وإنَّ مِنْ أعظَمِ الأحاديثِ في هذا المقامِ ما جاءَ في (مُسندِ أحمدَ) أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا جَازَى اللهُ العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ قَالَ لِبَعْضِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»[(٢)].

وهذه الخطورةُ أَنْ يُقالَ للمُرائِي، للَّذي لم يُخلِصِ: اذهَبْ إلى الَّذي كنتَ تُرائِي بأعمالِكَ عِندَهم هَلْ تَجِدُ عندَهم مِنْ جزاءٍ؟!

إِذَنْ هي خُطواتٌ في طريقِ الإخلاصِ مَنْ أخذَ بها رشَدَ، ومَنْ صدَّ عنها وأعرضَ فلا يَضُرُّ إلَّا نفسَه، وهو أبعدُ ما يَكونُ من طريقِ المُخلِصينَ.

o

(١) انظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص:٢٩)، وإحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٨) ونسبه ليعقوب المكفوف.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٧)

مَنْ صمَتَ نَجا

o

الصمتُ هو الفَضيلةُ الغائِبةُ، والخُلُقُ العزيزُ، في زمَنٍ كثُرَ فيه الكلامُ، وكثُرَ فيه المتكلِّمون.

والصمتُ زينةٌ مِنْ غيرِ حِليةٍ، وهَيبةٌ مِنْ غيرِ سلطانٍ، وحِصنٌ مِنْ غيرِ حائطٍ.

والصمتُ شرفٌ، كما قالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

وَالصَّمْتُ عَنْ أَحْمَقٍ أَوْ جَاهِلٍ شَرَفٌ

وَفِيهِ أَيْضًا لِصَوْنِ العِرْضِ إِصْلَاحُ

والصمتُ حِكمةٌ كما قالَ لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «والصمتُ حِكمةٌ، وقليلٌ فاعلُه»[٢].

والصمتُ نجاةٌ، كما قال نبيُّنا ﷺ في الحديثِ الَّذي رواهُ الإمامُ التِّرْمذيُّ قالَ: «**مَنْ صَمَتَ نَجَا**»[٣] وهو حديثُنا الَّذي نَضُمُّه إلى سابِقِيه في

(١) ديوان الشافعي (ص:٥١).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٨٨، رقم ٥٤٥).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠١)، من

هذه السِّلسلةِ المبارَكةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يَقولُ ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا» ثلاثُ كلماتٍ أَحرُفُها ثمانيةٌ، ولكِنْ فيها منَ المعاني العَظيمةِ، مفادُها أَنَّ مَن تَخَلَّقَ بخُلقِ الصمتِ نَجا، كما قالَ الأَوَّلُ:

رأَيْتُ الكلامَ يَزينُ الفَتى
والصَّمْتُ خَيْرٌ لِمَنْ قَدْ صَمَتْ
فَكَمْ مِنْ حُرُوفٍ تَجُرُّ الحُتُوفْ
وَكَمْ نَاطِقٍ وَدَّ أَنْ لَوْ سَكَتْ[1]

فالصمتُ خيرٌ، وفي الصمتِ نجاةٌ، فالصمتِ عنِ الشرِّ، والصمتِ عنِ السيئاتِ، والصمتِ عنِ السوءِ؛ كلُّ ذلكَ خيرٌ، وفيه النجاةُ.

نعَم، فالكلامُ في الخيرِ خيرٌ، والكلامُ في الذِّكْرِ خيرٌ، والكلامُ في الأمرِ بالمَعروفِ والنهيِ عنِ المُنكرِ خيرٌ، كما أَنَّ الصمتَ عنِ الشرِّ والشرورِ والفُجورِ فيه النجاةُ.

فكيفَ لا تكونُ النجاةُ في الصمتِ ونبيُّنا ﷺ يَقولُ: «مَنْ صَمَتَ

= حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) انظر: الرسالة القشيرية (١/ ٢٤٦) غير منسوب.

نَجَا»؟! يَقولُه في زمَنٍ عَرَفَ أهلُه قيمةَ الكلِمةِ، فقَدْ كانَ في زمنٍ يَعرفُ أهلَه قيمةَ الكلامِ فيَزنونَه كما يَزِنون الذهبَ والفِضَّةَ، وفي زمانِنا نحن أحوجُ ما نَكونُ إلى خُلقِ الصمتِ.

والسببُ في ذلكَ أنَّ الصمتَ أجملُ ما يَتجمَّلُ به الخلائقُ، قالَ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ، ففي حديثِ أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ البَيهقيِّ في كِتابِه (شُعَبِ الإيمانِ) قالَ: لقي رسولُ اللهِ ﷺ أبا ذرٍّ فقال له: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خِصْلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَى الظَّهْرِ وَأَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟» يَعنِي: لا تَحتاجُ إلى جهدٍ، ولا تَحتاجُ إلى تعَبٍ، ولا تَحتاجُ إلى بَذْلٍ. قالَ أبو ذرٍّ: قُلتُ: بَلى يا رَسولَ اللهِ. قالَ: «طُولُ الصَّمْتِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا» هذه رِوايةُ البيهقيِّ[1].

وعندَ ابنِ أبي عاصمٍ في كِتابِه (الزهدِ) روايةٌ أُخرى، قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا تَجَمَّلَ الخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا»[2] هي زينةٌ، الصمتُ زينةٌ مِنْ غيرِ حِليةٍ، إنَّكَ لا تَتعَبُ إذا صمتَ، إنَّكَ لا تَتعبُ إذا أَمسَكْتَ لسانَكَ، يَتعبُ المُتكلِّمُ فيما يَعنيهِ وفيما لا يَعنيهِ، أمَّا الصامتُ فهذا حِمْلُه على ظهرِه خفيفٌ.

(١) شعب الإيمان رقم (٧٦٤١).
(٢) الزهد لابن أبي عاصم رقم (٢).

والصمتُ ارتبطَ بالإيمانِ، وكلُّنا يَذكرُ ما جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ) مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[١]، فهُناكَ عَلاقةٌ طَرديةٌ مُرتبِطةٌ بينَ بينَ الإيمانِ والصمتِ، الصمتِ عنِ الشرورِ، الصمتِ عنِ الفُجورِ، الصمتِ عنِ السيِّئاتِ، حتَّى عَدَّ بعضُ العُلماءِ: الصمتَ عنِ المباحِ.

يَصمتُ ولا يَتكلَّمُ بشيءٍ إلَّا الذي يَعنيهِ، ولا يَتكلَّمُ بما يُؤذيهِ أو يُؤذِي غيرَه: فـ«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

وفي الصمتِ السَّلامةُ منَ المُؤاخَذةِ، وقد جاءَ عندَ البَيهقيِّ في (شعبِ الإيمانِ) مِنْ حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُكرِّرُ مرارًا هذه الجُملةَ: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ»[٢]، إذا تَكلَّمَ يَزِنُ كلامَه، حتَّى عدَّ بعضُ السلَفِ لنَفسِه كلماتِه في أسبوعٍ، قالَ: «لو أَرَدْتُ أَنْ أُحصِيَ ما قُلتُ في أسبوعٍ لأَحصيتُه» مِنْ قِلَّةِ الكلِماتِ الَّتي تَلفَّظَ بها «رحِمَ اللهُ امرَأً تَكلَّمَ فغنِمَ، أو سكَتَ فسلِمَ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

(٢) شعب الإيمان رقم (٤٥٨٩).

ولنَنظُرْ إلى الفاروقِ المُلهَمِ أميرِ المُؤمنينَ عمرَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ -كلماتُه أشبهُ ما تَكونُ بالوَحيِ- يَقولُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «مَنْ كثُرَ ضحِكُه قلَّتْ هَيبتُه، ومَنْ مزَحَ استُخِفَّ بهِ، ومَنْ أكثرَ مِن شيءٍ عُرِفَ بهِ، ومَنْ كثُرَ كلامُه كثُرَ سقطُه، ومَنْ كثُرَ سقطُه قلَّ حياؤُه، ومَنْ قلَّ حياؤُه قلَّ ورعُه، ومَنْ قلَّ ورعُه ماتَ قلبُه، ومَنْ ماتَ قلبُه كانتِ النارُ أَوْلى به»[(١)] نتيجةٌ حتمِيَّةٌ، هناكَ في البدايةِ: «ومَنْ كثُرَ كلامُه كثُرَ سقطُه»، والنهايةُ: «كانَتِ النارُ أَوْلَى بِهِ».

يَقولُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دخلَ بعضُهم على بعضِ الصحابةِ وهو في مرَضِه الَّذي ماتَ فيه؛ فإذا بوَجهِهِ يَتهلَّلُ فرحًا، فسأَلوهُ عن سببِ ذلكَ فقالَ: «ما مِنْ عمَلٍ أوثقَ عِندي» يعني: أوثَقَ في هذه الساعةِ، أي: ما مِنْ عمَلٍ عمِلْته خلالَ هذه السنواتِ الَّتي مضَتْ «مِنْ عمَلينِ: كنتُ لا أَتكلَّمُ في فيما لا يَعنيني، وكان قَلبي سَليمًا للمُسلِمين»[(٢)] مَن يَنالُ هاتَيْن الجائِزتينِ النعمَتَيْن؟!

فهو يَتكلمُ لكِنَّه لا يَتكلمُ إلَّا بشيءٍ يَعنيهِ، وقلبُه سليمٌ للمُسلمينَ.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم رقم (١٢٦)، والطبراني في الأوسط رقم (٢٢٥٩)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٦٤٠).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٩٤).

يقولُ الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وما أجملَ كلماتِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ! وكلماتُه أشبهُ ما تَكونُ بالنظرِيَّاتِ- قالَ: «إذا جالَسْتَ فكُنْ على أَنْ تَسمعَ أحرصَ منكَ على أَنْ تَقولَ، وتَعلَّمْ حُسنَ الاستِماعِ كما تَعلَّمُ حُسنَ القولِ»[(١)] أَلا يُدرَّس فنُّ الكلامِ؟! أَلا يُدرَّس فنُّ المُحاورةِ؟! كذلك لا بُدَّ أَنْ يُدرَّس الدارسُ فنَّ الصمتِ، فالَّذي لا يُحسِنُ فنَّ الاستِماعِ لا يُحسِنُ فنَّ الكلامِ.

إنَّنا إذا تَحدَّثْنا عَنْ هذه الخِصلةِ وعَنْ هذه الخلةِ وهي فَضيلةُ الصمتِ؛ تَطلَّعَتْ هذه النفوسُ إلى سُؤالٍ واحدٍ: كيفَ الوُصولُ إلى هَذه القِيمةِ؟ كيفَ نَصِلُ إلى هذا الخُلقِ؟ والنظرُ في ذلكَ هيِّنٌ لِمَنْ أَرادَه.

وخُذْ هذه الوَسائلَ:

الوَسيلةُ الأُولى:

اقرَأْ في سِيَرِ سلفِ الأُمَّةِ كيفَ كانوا مع هذه الخِصلةِ، اقرَأْ في سِيَرِ سَيِّدِهم رسولِ اللهِ ﷺ، يَقولُ سِماكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -والحديثُ عندَ أحمدَ في (مُسندِه)-: قُلتُ لجابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: أَكنتَ تُجالِسُ رَسولَ الله ﷺ؟ قالَ: «نعَمْ، كانَ طويلَ الصمتِ قليلَ الضحِكِ»[(٢)].

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق رقم (٧٣١).
(٢) مسند أحمد (٥/ ٨٦).

فيا أيُّها المُتأسِّي برَسولِكَ! هذا هو رَسولُ الله ﷺ «كانَ طويلَ الصمتِ، قليلَ الضحِكِ» هذه سِيرةُ رَسولِ اللهِ.

وإذا ذهَبْت إلى حواريِّيه فهذا الخليفةُ الراشدُ أبو بَكرٍ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ ، يَدخلُ عليه أميرُ المُؤمِنين عمرُ، فإذا بأبي بَكرٍ قَدْ أخرَجَ لِسانَه، فيَقولُ له عمرُ: ما تَصنَعُ يا خليفةَ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قالَ: «يا عُمرُ، هذا الَّذي أَوْرَدَني الموارِدَ، سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الجَسَدِ إِلَّا يَشْكُو ذَرْبَ اللِّسَانِ عَلَى حِدَّتِهِ»[1]، كلُّ أعضاءِ الجسَدِ تَشتكي ذربَ اللسانِ، أي: سَلاطةَ اللسانِ، فاللسانُ الذربُ هو اللسانُ السليطُ، اللسانُ الحادُّ، قالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الجَسَدِ إِلَّا يَشْكُو ذَرْبَ اللِّسَانِ عَلَى حِدَّتِهِ».

ويُؤيِّدُ هذا ما جاءَ في (سُننِ التِّرْمذيِّ) مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ» يَعنِي: تَرجو اللسانَ في ذلٍّ وخُضوعٍ وانحناءٍ «تَقُولُ لِلِّسَانِ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[2] هذا اللسانُ يَحتاجُ إلى صمتٍ، ويَحتاجُ إلى طولِ سَجنٍ.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٥٩٦).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٩٦)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤٠٧).

إِذَنْ يَتأمَّلُ الإنسانُ سِيَرَ سلفِ الأُمَّةِ إذا أَرادَ النجاةَ، وإذا أَرادَ أَنْ يصلَ إلى هذا الخُلقِ.

الوسيلةُ الثانيةُ:

ليَنالَ العبدُ بها التَّخلُّقَ بهذا الخُلقِ عليه بالتأمُّلِ في عاقبةِ وخطورةِ ما هو ضِدُّ الصمتِ -وهو الكلامُ-، فيَتأملُ في عاقبةِ هذا اللسانِ الَّذي قَدْ يَقودُه إلى المَهالكِ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -يَقولُ في سورةِ النِّساءِ- يَقولُ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء:١١٤]، بعضُ الناسِ تَراهُ مُتكلِّمًا في صباحِه وفي المساءِ، يَتكلَّمُ في كلِّ شيءٍ، لا تَطيرُ ورَقةٌ إلَّا علَّقَ عليها، إمَّا ناقدًا، أو ساخِطًا، أو مُتذمِّرًا، أو مُغتابًا، في ليلِه ونَهارِه يَتكلَّمُ، وهو معَ وفرةِ قنَواتِ التواصُلِ في أيدي الناسِ اليومَ، أصبحَ يَتكلَّمُ والناسُ يَرَوْنَه ويَسمَعونَه في نفسِ اللحظةِ، ويُرسِلُ لمَنْ شاءَ؛ فيَنتقِلُ حديثُه في كلِّ مكانٍ، ورُبَّما كانَ هذا الكلامُ وبالًا عليهِ، ولم يَكُنْ هذا هو فعلَ السلَفِ، بَلْ فِعلُهم كانَ قليلَ الكَلامِ، ولا يَتكلَّمُ الإنسانُ إلَّا فيما يَعتقِدُ أنَّه سيَحصلُ مِنْ ورائِه الحَسناتُ، لا يَتكلَّمُ لحُظوظِ نفسِه أبَدًا.

لـهذا عليكَ بهذِه الوسيلةِ، تَأمَّـلْ في عاقِبةِ الكَـلامِ، فـإنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ -والحديثُ عندَ الطبَرانيِّ في (مُعجمِه) مِنْ حديثِ

عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «أَكثَرُ خَطايا ابنِ آدَمَ في لِسانِهِ»[١].

وتَدبَّروا هذا الحديثَ عبادَ اللهِ: يَخرُجُ نبيُّنا ﷺ يَعودُ أحَدَ الصحابةِ مَريضًا، فدخَلَ عليه فقالَ له: «أَبْشِرْ يَا كَعْبُ، أَوْ هَنِيئًا لَكَ يَا كَعْبُ» وأُمَّ كعبٍ بجانِبِه، فقالَتْ وهي مُتحمِّسةٌ -هذا كعبٌ أحدُ الصحابةِ، أحَدُ المُلازِمين للنبيِّ ﷺ، أحَدُ الَّذين شهِدوا معَه المَشاهِدَ- فقالَتْ له بكُلِّ عاطِفةٍ، وكأنَّها تُودِّعه بهذه الكلماتِ: يا كعبُ هَنيئًا لكَ الجَنَّةُ، قال ﷺ: «مَنْ هَذِهِ؟» قالَ كعبٌ: هي أُمِّي يا رَسولَ اللهِ، يَقولُ وهو في مرَضِه: هي أُمِّي يا رَسولَ اللهِ. قال: «مَا يُدْرِيكِ يَا أُمَّ كَعْبٍ؟ لَعَلَّ كَعْبًا تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ مَنَعَ مَا لَا يُغنِيهِ»[٢]. أي: وما يُدريكَ أنَّه مِنْ أهلِ الجَنَّةِ؟ قد يَحولُ بينَه وبينَ الجَنَّةِ أنَّه تَكلمَ فيما لا يَعنيهِ.

فهذا صحابيٌّ جليلٌ لازَمَ النبيَّ ﷺ، ويَخافُ عليه، يَقولُ: «رُبَّمَا تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ» فماذا نَقولُ نحنُ الَّذين نَتحدَّثُ في ليلِنا ونهارِنا، في أمرٍ يَعنينا وفي أُمورٍ لا تَعنِينا.

فحرِيٌّ بالمُؤمِنِ أَنْ يَتخلَّقَ بهذا الخُلقِ، وأَنْ يَتعلَّقَ بهذه الفَضيلةِ،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٩٧، رقم ١٠٤٤٦)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٥٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (١١٠)، والطبراني في الأوسط رقم (٧١٥٧).

ولْيُحاوِلْ جاهِدًا أن يُشيعَ هذه الثَّقافةَ ثَقافةَ الصمتِ في زمَنٍ كثُرَ فيه الكلامُ.

o

(١٨)

إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ

o

معاشرَ الكرامِ الغُلـوُّ هو: الخروجُ ومُجـاوزةُ الحـدِّ في الأقـوالِ والأفعالِ.

الغُلوُّ هو: الخروجُ عَنْ منهَجِ التَّوسُّطِ والاعتِدالِ.

الغُلوُّ مرَضٌ قديمٌ عانَتْ مِنْ وَيلاتِه الأُممُ، أهلُه أهلُ الأهواءِ.

وقَـدْ حذَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الغلوِّ، وحذَّرَ مِـنْ دُعاتِـه فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء:١٧١].

وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

والغُلـوُّ هـو حديثُنا في هذه السِّلسلةِ المُباركـةِ مِنْ جوامـعِ كلِمِـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحديثُنا الجامِـعُ هُـو مَا رواهُ أحمدُ في (مُسندِه) مِنْ حديثِ أنسٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ»[(١)].

هذا الدِّينُ عظيمٌ ويَسَعُ الجميعَ، فسارِعوا وسابِقوا بالتديُّنِ به، ولكِنْ برِفْقٍ، والرفقُ هنا يُقصدُ به أن يَسلُكَ السالكُ فيه هَديَ النبيِّ ﷺ، بغَيْرِ إفراطٍ ولا تَفريطٍ ولا جَفاءٍ ولا غُلوٍّ.

وكَمْ هي الآياتُ والأحاديثُ الَّتي تَنهَى عنِ الغُلوِّ في الدِّينِ، فقَدْ ربَّى نبيُّنا ﷺ أُمَّتَه على ذلكَ؛ فها هُو يَأمُرُ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حَجَّته عِندَما أرادَ أَنْ يَرميَ الجِمارَ قالَ: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، القُطْ لِي الحَصَى»؛ ليَرميَ بها الجِمارَ، فأَتَى بهِنَّ فوضَعَها في يدِ النبيِّ ﷺ، سبعَ حصياتٍ صغيراتٍ، احتوَتْها كفُّ النبيِّ ﷺ، فرفَعَها يُرِي الصحابةَ ومَنْ معَهُ، قالَ: «أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا» -أي: بأَمثالِ هَؤلاءِ فارْمُوا- ثُمَّ قالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[(٢)] يَعنِي: هذا العبدُ الَّذي سيَتجاوزُ الحدَّ في حَجمِ حَصاةٍ يَرمِي بها؛ فإنَّه قد غالَى ووضَعَ نفسَه في موضعٍ يَهلِكُ فيه وتَهلِكُ فيه الأُمَّةُ.

بَلْ قالَ نبيُّنا ﷺ في حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ مسلِمٍ-

(١) مسند أحمد (٣/ ١٩٨ - ١٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، رقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم (٣٠٢٩).

قالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[١] يُكرِّرها ثلاثًا.

يَقولُ الإمامُ النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحُ (صَحيحِ مُسلمٍ): «المُتنطِّعونَ: المُتعمِّقون المُغالون المُجاوِزون للحُدودِ بأَفعالِهم وأقوالِهم»[٢] هَؤلاءِ المُتنطِّعون الَّذين تَجاوَزوا الحدَّ الَّذي وضَعَه الشارعُ الحَكيمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الَّذين يَتَجاوَزونَ مَنهجَ النبيِّ ﷺ إفراطًا أو تفريطًا، هؤلاءِ هُمْ أهلُ الغُلوِّ.

وفي حديثِ سهلِ بنِ حُنيفٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ والحديثُ عِندَ الطبَرانيِّ في (مُعجَمِه الكبير) يَقولُ ﷺ: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِتَشْدِيدِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[٣].

ثلاثةُ أحاديثَ ذكَرْتُها في هذه المُقدِّمةِ كلُّها تَتكلَّمُ عنِ التحذيرِ منَ الغُلوِّ في الدِّينِ، والقاسمُ المُشترَكُ فيها: أنَّ مَنْ وقَعَ في الغُلوِّ وقعَ عليه الهلاكُ، في جميعِ هذه الأحاديثِ الَّتي قدَّمْتُها وفي غيرِها القاسمُ المُشترَكُ: أنَّ أهلَ الغُلوِّ ليسَ لهُمْ إلَّا الهلاكُ «فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» «فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِتَشْدِيدِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» فمَنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٢٢٠).
(٣) المعجم الكبير (٦/ ٧٣، رقم ٥٥٥١).

وضعَ نَفْسَه في هذا الطريقِ -طريقِ الغُلوِّ- فلْيَعلَمْ أنَّه إلى الهلاكِ صائرٌ.

عبادَ الله! معاشرَ الأبناءِ -وحَديثي هذا لكُمْ خاصَّةً- مِنْ مظاهِرِ الغُلوِّ وصُورِه، وأَكثرُ المُستهدَفين بالغلوِّ همُ الأبناءُ مِنْ شبابِ الأُمَّةِ؛ لِذا علَيْهم أَنْ يَتعرَّفوا على مَظاهرِ الغُلوِّ:

المَظهرُ الأوَّلُ:

إلزامُ النفسِ، أوِ الآخَرين بعِباداتٍ ليسَتْ منَ الدِّينِ مِنْ بابِ التَّقرُّبِ إلى ربِّ العالَمِين، فحينَما تَرَى إنسانًا، أو تَرَى داعِيًا في نَفْسكَ يُلزمُك بعِبادةٍ تَتقرَّبُ بها إلى اللهِ ليسَتْ مِنَ الدِّينِ فاعلَمْ أنَّه غُلوٌّ، ولَه عدَّةُ صُورٍ:

صورة أُولى:

ففي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -والحديثُ في (صَحيحِ البُخاريِّ)-: قامَ نبيُّنا ﷺ يَخطُبُ في الناسِ فإذا هوَ برَجُلٍ هناكَ قائمٍ في حَرِّ الشمسِ فقالَ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» قالوا: هَذا أبو إسرائيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقومَ ولا يَقعُدَ ولا يَستظِلَّ ولا يَتكلَّمَ، ويَصومَ -نَذر: أَرادَ أَنْ يَتقربَ إلى اللهِ، ولكِنَّه تَقرَّبَ إلى اللهِ بعِبادةٍ غيرِ مَشروعةٍ، نذَرَ أَنْ يَقومَ ولا يَقعدَ، ولا يَستظِلَّ، ولا يَتكلَّمَ، ويَصومَ- فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ

وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»[١].

هذه الرابِعةُ هي المَشروعةُ: أنْ يُتِمَّ صومَه، أمَّا هذه الثلاثُ فهي منَ الغُلوِّ، ومِنَ الانحِرافِ، ومِنَ الخروجِ عن الدِّينِ.

صورة ثانية:

في حَديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ البُخاريِّ أيضًا-: يَرَى نبيُّنا ﷺ رجُلًا يُهادَى بينَ ابنَيْه -لا يَستَطيعُ المشيَ مِنْ شِدَّةِ الإرهاقِ قدَماهُ تَخُطَّانِ في الأرضِ، تَعاهَدَه أبناؤُه يَحمِلونه- فقالَ ﷺ: «مَا بَالُ هَذَا؟» قالوا يا رَسولَ اللهِ: نَذَرَ أَنْ يَمشيَ -يَعنِي: ولا يَركَب، كلَّفَ نفسَه فوقَ طاقتِه، أَلزَمَ نَفْسَه بعِبادةٍ ما أَرادَها اللهُ- قالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسِهِ لَغَنِيٌّ، مُرُوهُ فَلْيَرْكَبْ»[٢].

صورة ثالثة:

يَدخُلُ ﷺ مَسجدَه وفي مَسجِدِه سَوارٍ، فإذا بحبلٍ ممدودٍ بينَ سارِيَتَيْن، فسألَ عَنْ سِرِّ هذا الحبلِ، قالوا: هذا حبلٌ لزَينبَ -أُمِّ المُؤمِنين

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك، رقم (٦٧٠٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب من نذر المشي إلى الكعبة، رقم (١٨٦٥)، ومسلم: كتاب النذر، باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة، رقم (١٦٤٢).

زوجةِ النبيِّ ﷺ- إذا فتَرَتْ تَعلَّقَت به -يَعنِي: إذا فتَرَتْ في صلاتِها في قيامِ الليلِ تَعلَّقَتْ بهِ، تَتعبَّدُ اللهَ تَقومُ لله، لكِنَّها إذا فتَرَتْ، أي: كسَلَت وتَعِبَت تَعلَّقَتْ به- قالَ ﷺ: «لَا، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[1] هذا أيضًا خروجٌ عنِ الحدِّ.

صورة رابعة:

جاءَ في حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ قالَ: خرَجْنا في سفَرٍ فأصابَ رجُلًا مِنَّا حجَرٌ فشجَّ رأسَه، ومرِضَ هذا الرجلُ وقُدِّرَ عليه أَنْ يَحتلِمَ فيَحتاجَ إلى الغُسلِ، فسأَلَ أصحابَه ومَنْ معَهُ: هَلْ تَرَوْنَ لي أَنْ أَتيمَّمَ -لا أَستطيعُ أَنْ أَغتسِلَ-؟ قالوا: لا نَرى لكَ أَنْ تَتيمَّمَ وأنتَ قادِرٌ على الاغتِسالِ، فاغتسَلَ فأَصابَ جُرحَه الماءُ فماتَ مِنْ فورِه، فَلَمَّا رجَعوا إلى المدينةِ أَخبَروا النبيَّ ﷺ بهذا الخبرِ، فقالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا إِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ»[2].

فحينَما جاوَزوا الحدَّ حتَّى في الفَتوَى، وفي إرشادِ الآخَرين،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم (١١٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته، رقم (٧٨٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، رقم (٣٣٦).

والتَّضييقِ علَيْهم- قالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا إِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ»، هذا مَظهرٌ مِنْ مظاهرِ الغُلوِّ؛ فإذا رأَيْتَ إنسانًا يَتجاوزُ الحدَّ في عِبادتِه للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فاعلَمْ أنَّه مِنْ أهلِ الغُلوِّ.

المَظْهر الثَّاني والثالِث:

الغُلوُّ في المدحِ، أوِ الغُلوُّ في الذمِّ، فالغلوُّ في المدحِ فإذا رأَيْتَ مَنْ يَمدَحُ مَدحًا يَرفعُ صاحِبَه الممدوحَ فوقَ مكانتِه فاعلَمْ أنَّ هذا منَ الغُلوِّ، كما فعلَ اليهودُ والنصارَى، وكما جاءَتْ فيهِم هذه الآيةُ الَّتي ذكَرْتُها في المُقدِّمةِ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] هذا مِنَ الغُلوِّ؛ لأنَّهم أَخرَجوهم مِنْ مَكانتِهم وهُمْ عَبيدٌ للهِ، وكما جاءَ في الآيةِ الَّتي تَقدَّمَتْ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ الآيةَ [النساء:١٧١].

لذا نَجِدُ أنَّ النبيَّ ﷺ حذَّرَ أصحابَه مِنْ هذا الغلوِّ، وحذَّرَ أصحابَه مِنْ هذا المسلَكِ، وحذَّرَ أصحابَه أَنْ يَنبُتَ فيهِم نابِتةٌ مِنْ أهلِ الأهواءِ، فقالَ: «لَا تُطْرُونِي» أي: لا تُثْنوا عليَّ وتَمدَحوني «كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى

ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ»[١] ﷺ.

ويُقابِلُ المدحُ الذمَّ وهذا أكثرُ ما يَقَعُ فيه أهلُ الغلوِّ، وأقصَى ما يَذُمُّون به مُخالِفِيهِمُ الكفرُ والفسوقُ والزندقةُ، فالغُلاةُ تَجِدُهم دائمًا يَرمون مَنْ خالَفَهم ولم يَسْرِ على سَيرِهم بالكفرِ والفُسوقِ حتَّى وإِنْ كانَ عالِمًا.

لهذا تَجِدُ أهلَ الغُلوِّ عندَهم جُرأةٌ على العُلماءِ وعلى طلَبةِ العِلمِ؛ لأنَّهم يُخالفونَهم في مَنهجِهِمْ، فإذا رأَيْتَ مِنْ إنسانٍ ليس له حَديثٌ في مَجلسٍ، ولا في مُنتدًى، ولا في كِتابٍ إلَّا مُهاجمةَ العُلماءِ الربانِيِّين؛ فاعلَمْ أنَّه مِنْ أهلِ الغُلوِّ.

وفي (صحيحِ البُخاريِّ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفُسُوقِ، وَلَا يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ»[٢].

وهذه مُصيبةٌ عندَ عددٍ مِنْ أبنائِنا الشبابِ حينَما يَقَعون في الانحرافِ فيُكفِّرون المُجتمعاتِ مِنْ حولِهم، ورُبَّما كفَّرَ والدَيْه، وكفَّرَ إخوانَه، وكفَّرَ البيئةَ الَّتي يَعيشُ فيها، والسببُ في ذلِكَ أنَّه يَرَى نَفسَه فقَطْ، ولا يَرَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، رقم (٣٤٤٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غيرَه بسببِ هذا الغلوِّ الَّذي وقعَ فيهِ.

المظهر الرابع:

أنَّهم يَترفَّعون على غيرِهم، ويَحتقِرون غيرَهم، لهذا حينَما رَمَوْهم بالكُفرِ قبلَ قليلٍ؛ لأنَّهم يَرَوْن أنفسَهم همُ المُؤمنين، وهمُ الَّذين على الحقِّ.

ونبيُّنا ﷺ يَقولُ -كما جاءَ في (صحيحِ مسلِمٍ)-: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»[(١)] تَجِدُ هؤلاءِ لأنَّهم كفَّروا المُجتمعاتِ وتَرفَّعوا عليهِم لا يُجالِسونهم في مَجلسٍ، ولا يُصلُّون معَهُم في مسجدٍ، وتَراهُم قابِعون في بعضِ الزَّوايا، والبيوتِ المهجورةِ، أو في مَجالسَ لا يَرتادُها أحدٌ؛ لأنَّهم يَظُنُّون أنهُمْ هُمْ فقَطْ على الحقِّ، وحبيبُنا ﷺ -يا اللهُ ما أعظمَ هذا النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أرشدَنا، وأوضحَ لنا، وبيَّنَ لنا، فأينَ العاقلُ الَّذي يَتدبَّرُ مثلَ هذا- قال: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**» أيًّا كان هذا الأذَى «**أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٧)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

نعَمْ صدقَ رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ».

المظهر الخامس:

استباحةُ دِماءِ المُسلمينَ، وهناكَ جُرأةٌ عجيبةٌ تَجِدُها عندَ هؤلاءِ! أنَّهم يَستَبيحون دمَ المُسلمِ، وكيفَ لا يَستَبيحون دمَه وقَدْ كَفَّروه قبلَ قليلٍ، واحتَقَروه وتَرفَّعوا عليهِ؟! لهذا هُمْ يَستَبيحون دمَه، ليسَ هذا فحَسبُ، بَلْ يَتَقرَّبون إلى اللهِ بإراقةِ دَمِه، وهذا موجودٌ في الأُمَّةِ اليومَ، حينَما أخبَرَ نبيُّنا ﷺ عَنْ زمَنٍ سيَأتِي يَقتُلُ فيه المسلمُ المسلِمَ، ويَكثُرُ فيه القتلُ، قالَ الصحابةُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُم: يا رَسولَ اللهِ يَقتُلون المُشرِكين؟ قالَ: «لَا، يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا»، قالوا: ومعَنا عُقولُنا يومئذٍ يا رَسولَ اللهِ؟ أَيْ: يَقتُلُ بعضُنا بعضًا ومعَنا عُقولُنا يومئذٍ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: «إِنَّهُ لَتُرْفَعُ عُقُولُ ذَاكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ»[1] بدونِ عُقولٍ، وإلَّا فماذا تَقولونَ في إنسانٍ يَدخلُ في وسطِ المُسلِمين، في مَسجِدٍ، أو في سوقٍ، أو في مكانٍ فيَقتلُهم يُفجِّرُ نفسَه يُريدُ أَنْ يَتقرَّبَ إلى اللهِ؟ أيُّ عقلٍ هذا! وأيُّ عاقلٍ هذا! حينَما يَتجرَّأُ الشابُّ الَّذي لا أَقولُ كما يَقولُ البعضُ: قد غُسِلَ دماغُه، بل لُوِّثَ دماغُه، ويَتجرَّأُ ويَقتُلُ والدَه أو والِدتَه، بحسبِه أنَّه يَتقرَّبُ إلى اللهِ، والسببُ أنه أُصيبَ بهذه اللَّوْثةِ،

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩١)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، رقم (٣٩٥٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهي استِباحةُ الدمِ، يَجِدون لَذَّةً في الدماءِ.

ولهذا انظُرْ إليهِمْ في أيِّ بُقعةٍ في العالمِ إذا وُجِدوا فيها ستَجِدُ هذه البُقعةَ ليس فيها إلَّا الخرابُ، ليسَ فيها إلَّا الدمارُ، ليسَ على أنقاضِها إلَّا الخرابُ، لا تَجِدُ فيها عُمرانًا، ولا تَنميةً، ولا تَطوُّرًا أبدًا، هكَذا وهو شأنُهم، منذُ قديمِ الزمانِ ما ارتفَعَ صوتُ الغلوِّ في بلدٍ، أو في مُجتمعٍ إلَّا وعَلا فيهِ الخرابُ والدمارُ؛ لذا قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

ويَقولُ نبيُّنا ﷺ -انتَبِهْ أيُّها المبارَكُ فأنا وأنتَ مُعرَّضون لهذه الفِتنةِ، وأَبناؤُنا أشدُّ عُرضةً لهذه الفِتنةِ، وأقولُ: انتَبِهْ لهذا الحديثِ فإنَّكَ تَحتاجُه حينَما يَأتيكَ مَنْ يَقولُ: اقتُلْ مُسلمًا. فإذا قُلتَ: لا، انتَقَلوا بِكَ إلى مَرحلةٍ أُخرَى يُقالُ لها: اقتُلْ أو تُقتَلُ؛ لأنَّهم يَستَبيحونَ الدمَ، اقتُلْ أو تُقتَلُ؛ لهذا نَبيُّنا ﷺ يَقولُ: «يَجِيءُ المَقْتُولُ بِالقَاتِلِ يَوْمَ القِيَامَةِ نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي» قالَ: «حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ العَرْشِ»[1] رأسُه وناصيتُه في يَدٍ، وهو مُتلبِّدٌ باليدِ الأُخرى قاتِلُه يَقولُ:

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، رقم (٣٠٢٩)، والنسائي: كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، رقم (٤٠٠٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ربِّ هذا قتَلَني. قالَ: «حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ العَرْشِ».

نعَمْ، تَديَّنْ بدِينِ اللهِ، واسلُكْ طريقَ اللهِ، وخُذْ مَنهجَ رَسولِ اللهِ، ولكِنْ عليكَ بالرِّفقِ، فإِنَّ الرفقَ ما كانَ في شيءٍ إلَّا زانَهُ، وما نُزِعَ مِنْ شيءٍ إلَّا شانَهُ.

o

(١٩)

أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ

o

الموتُ هوَ الخَطْبُ الأفظعُ والأمرُ الأشنعُ، والكأسُ الَّتي طَعمُها أكرهُ وأبشعُ، فالموتُ هو هادِمُ اللذَّاتِ، ومُفرِّقُ الجماعاتِ، وقاطعُ الراحاتِ، والجالبُ للكريهاتِ.

والموتُ ليسَ نِهايةَ المطافِ، ولكِنَّه جسرٌ مِنْ دارٍ إلَى دارٍ، فإمَّا إلى جَنَّةٍ وإمَّا إلى نارٍ.

وَلَـوْ أَنَّـا إِذَا مِتْنَـا تُرِكْنَـا ... لَكَانَ المَوْتُ رَاحَـةَ كُـلِّ حَـيِّ

وَلَكِنَّـا إِذَا مِتْنَـا بُعِثْنَـا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَهَا عَـنْ كُـلِّ شَيِّ[1]

قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وفي هذِه السِّلسلةِ المُباركةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه ﷺ، حديثُنا عَنْ قولِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» الموتُ، حديثٌ رواهُ التِّرْمذيُّ

(١) اختلف في قائله، فقيل: علي بن أبي طالب، وقيل: أبو دلف الشاعر، انظر: الفاضل الفاضل للمبرد (ص:١٣)، وأدب الدنيا والدين للماوردي (ص:١٢٠)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٤٠٧).

مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

إنَّ النبيَّ ﷺ يُرشِدُ الأُمَّةَ في هذا الحَديثِ الجامعِ القَصيرِ أَنْ يُكثِروا مِنْ ذِكرِ هادِمِ اللَّذَّاتِ، يُكثِروا مِنْ ذِكرِه على أَلسنتِهم، وفي أفهامِهم، وفي عُقولِهم، وفي قُلوبِهم، بينَ أعيُنِهم، يُكثِروا مِنْ ذِكرِ هادِمِ اللَّذَّاتِ؛ لأنَّ هذا دليلُ أَفضليَّةٍ للمُؤمنِ.

ففِي (سُننِ ابنِ ماجَهْ) مِنْ حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رجُلًا مِنَ الأَنصارِ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ قالَ: يا رَسولَ اللهَ، أيُّ المُؤمِنين أفضلُ؟ قالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**» قالَ: فأيُّ المُؤمِنين أكيسُ؟ -يَعنِي: أَذكَى وأفطنُ- قالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ**»[٢].

ففي كلِّ صباحٍ وفي كلِّ مساءٍ يَأتينا خبرٌ عَنْ موتِ فُلانٍ أو فُلانةٍ، نَذهبُ لنُصلِّيَ على جَنازةٍ واحدةٍ، فنُفاجَأُ بأنَّها أعدادٌ منَ الجَنائزِ، فكفَى بالموتِ واعظًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت، رقم (٢٣٠٧)، والنسائي: كتاب الجنائز، باب كثرة ذكر الموت، رقم (١٨٢٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٥٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٥٩).

فكُلَّما رأيتَ جنازةً تُحمَلُ يَنبَغي أَنْ يَكونَ ذلكَ صوتًا مُؤلمًا منَ الموعِظةِ؛ لأنَّ هذا يُذكِّرُك -يا عبدَ اللهِ- ويُذكِّرني بمَآلٍ نحنُ إليهِ صائِرون.

والحديثُ عنِ الموتِ يَدورُ حولَ هذه الحقائِقِ الخمسِ، حقائقَ لا بُدَّ أَنْ تَكونَ حاضِرةً في أذهانِنا:

الحَقيقةُ الأُولى:

أنَّ الموتَ حقٌّ على جميعِ الخَلقِ، ليسَ هُناكَ استِثناءاتٌ، فالموتُ حقٌّ على جميعِ الخلقِ، فكلُّ مخلوقٍ يَجري عليه الموتُ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وكانَ مِنْ دُعائِه ﷺ أنَّه كانَ يَقولُ: «**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالإِنْسُ وَالجِنُّ يَمُوتُونَ**»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، رقم (٧٣٨٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، رقم (٢٧١٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهناكَ آيةٌ نُردِّدُها، ونَمُرُّ عليها، فكلَّما رأَيْت جنازةً تَذكَّرْتها، ولو كان لأحَدٍ أَنْ يُخلَّدَ في هذه الأرضِ لكانَ رسولَ الله ﷺ، فهوَ أشرفُ الخلقِ، وأحبُّ الخلقِ إلى اللهِ، ولكِنْ قالَ اللهُ لَهُ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وهذه حقيقةٌ لا بُدَّ أَنْ نَستذكِرُها على الدوامِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

يَأتِي جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبيِّ ﷺ ويَزيدُه تذكيرًا بهذه الحقيقةِ فيَقولُ: «**يَا مُحَمَّدُ! عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ**»(١).

فالمَوتُ حقٌّ لازمٌ، ومُفارقةُ الأحبابِ حتمٌ لازمٌ، وكذلِكَ أَنْ يَلقَى العبدُ ما قدَّمَ حتمٌ لازمٌ.

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ**». وصدقَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذْ يقولُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده رقم (١٨٦٢)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٠٥٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صدقَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

الحقيقةُ الثانيةُ:

أَنَّ للموتِ أجَلًا لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ، مَهما بذَلْنا مِنَ الأسبابِ، فلا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ فيما كُتبَ في عِلمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الحقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

ويَقولُ سبحانه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١] لا يَتأخَّرُ، مَهما بذَلْنا مِنَ الأسبابِ، وشيَّدْنا البناءَ، ورفَعْنا الحُصونَ، وذهَبْنا في الأرضِ، إذا جاءَ الموتُ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ.

لذا قالَتْ أُمُّ حَبيبةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا زوجُ النبيِّ ﷺ، قامَتْ تَدعو ورسولُ اللهِ ﷺ يَستمعُ إلى هذا الدعاءِ، فإذا بِها تَقولُ: اللهُمَّ أَمتِعْني بزَوْجِي رسولِ اللهِ ﷺ، وبأَبي أبي سُفيانَ، وبأَخي مُعاويةَ، فقالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، فَلَنْ يُعَجِّلَ اللهُ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي القَبْرِ**

لَكَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»[1].

الحقيقةُ الثالثةُ:

أنَّه لا يُمكِنُ الفِرارُ منَ الموتِ، فمَهما أُوتِيَ الإنسانُ مِنْ قُوَّةٍ، ومَهما أُوتِيَ الإنسانُ مِنْ ذكاءٍ، ومَهما أُوتِيَ الإنسانُ مِنْ جاهٍ وسُلطانٍ، ومَهما أُوتِيَ الإنسانُ مِنْ مالٍ لا يُمكِنُ أَنْ يَفِرَّ منَ الموتِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ فكلَّما أسرَعْت في الفرارِ أَسرَعْت في مُلاقاةِ الموتِ، فعلى قدرِ ما تَفِرُّ هو يُقابِلُكَ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨].

وقالَ سبحانه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٦]؛ لهذا مَهما حادَ الإنسانُ، ومَهما انصرَفَ، فإنَّه يَجِدُ الموتَ في كلِّ اتجاهٍ يَتجِهُ إليه ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩].

الحَقيقةُ الرابعةُ:

لا يَعلـمُ بالموتِ ولا بوَقتـهِ ولا بمَكانِـه إلَّا اللهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، بـاب بيان أن الآجـال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص، رقم (٢٦٦٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:٣٤]، فالَّذي يَقولُ لكَ: ستَموتُ غَدًا، أو بعدَ شهرٍ، أو بعدَ سَنةٍ. فقُلْ لهُ: عِلمُ ذلكَ عندَ اللهِ، فالَّذي يَعلمُ ذلكَ هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَقيقةٌ تَعلَّمْتها في كتابِ اللهِ.

الحَقيقةُ الخامِسةُ:

قَدْ يَكونُ في الموتِ راحةٌ للمُؤمِنِ، نعَمِ الَّذي يَذهبُ قبلَكَ تَحزنُ عليه، وتَتألَّمُ لهُ، ولكنَّكَ لا تَدري، فإنْ كانَ منَ المُؤمنين الصالِحين الصادِقين فالموتُ له راحةٌ مِنْ نَصَبِ الدُّنيا وأَذاها ولَأْوائِها.

جلسَ نبيُّنا ﷺ كما جاءَ في حديثِ أَبي قتادةَ بنِ رِبعيٍّ -عندَ البُخاريِّ-: فمرَّ على النبيِّ ﷺ بجَنازةٍ، فعلَّقَ رسولُ اللهِ ﷺ قائِلًا: «مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ»، الميتُ مُستريحٌ أو مُستراحٌ منه، قالوا: يا رَسولَ اللهِ مَنِ المُستريحُ ومَنِ المُستراحُ منه؟ قالَ: «العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٢)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، رقم (٩٥٠).

والبعضُ لا يحبُّ ذِكرَ الموتِ، ولا يَتمنَّى أَنْ يَسمعَ خُطبةً ولا مَوعظةً ولا حديثًا عنِ الموتِ، ولكنَّكَ إذا قرأْتَ القُرآنَ وجدْتَ حديثًا عنِ الموتِ، وإذا قرَأْتَ سِيرةً وجَدْتَ حديثًا عنِ الموتِ، ولماذا لا نُحِبُّ ذِكرَ الموتِ والموتُ يُوقِظُنا مِنْ نومتِنا ويُنبِّهُنا مِنْ غفلتِنا؟!

فحينَما أَذكرُ الموتَ، وأَذكرُ حقائِقَه هذه الَّتي تَقدَّمَت، فإنِّي أَذكرُ ذلكَ حتَّى نَصْحوَ مِنْ مَنامِنا، ونَنتبِهَ مِنْ غَفلتِنا، فالَّذي يَسمعُ الخُطبةَ وهو لا يُصلِّي ويُدرِكُ تَمامًا أنَّه في يومٍ منَ الأيامِ سيَموتُ ألَا يَنتبهُ! والعاقُّ لوالِدَيْه وهو يَعلمُ أنَّ الموتَ أمامَه ألَا يَنتبِهُ! والَّذي يَأكلُ أموالَ الناسِ بالباطلِ، ويَسرِقُ منَ المال العامِّ، ويَسرقُ أموالَ الضُّعفاءِ والمَساكينِ وهو يَعلمُ أنَّ الموتَ أمامَه ألَا يَنتبِهُ! والَّذي يَقَعُ في الفواحشِ والزِّنا والمُوبقاتِ وهو يَعلمُ أنَّ الموتَ أمامَه أَلَا يَنتبهُ! والَّذي يُعاقِرُ الخمرَ ويَتعاطَى المُخدِّراتِ وهو يَعلمُ أنَّ الموتَ أمامَه أَلَا يَنتبِهُ!.

قَدْ نَكونُ بعدَ قليلٍ نَذهبُ نُشيِّعُ جنازةً، أو نَذهبُ نُعزِّي أحدًا، ألَا تَتصوَّرُ -يا عبدَ اللهِ- أنَّه في يومٍ منَ الأيَّامِ سأَكونُ أنا وأنتَ مِمَّنْ تُشيَّعُ جنائزُنا ويَتلقَّى أهلُنا عزاءَنا!.

هذا الحديثُ الَّذي ذكَرْته ليسَ حديثَ تَرَفٍ، ومعلوماتٍ تُذكرُ،

ولكِنَّني أرَدْتُ بها ذِكرَى لنفسِي ولنُفوسِكم، فهذه النفوسُ إِنْ لم تُذكَّرْ تَمَرَّدَتْ.

لِذا قالَ الأَوَّلُ:

يَـا نَفْـسُ تُـوبِي فَـإِنَّ المَـوْتَ قَـدْ حَانَـا
وَاعْصِـي الهَـوَى فَـالهَوَى مَـا زَالَ فَتَّانَـا
أَمَـا تَـرَيْنَ المَنَايَـا كَيْـفَ تَلْقُطُنَـا
لَقْطًـا فَتُلْحِـقُ أُخْرَانَـا بِأُولَانَـا
فِي كُـلِّ يَـوْمٍ لَنَـا مَيْـتٌ نُشَـيِّعُهُ
نَـرَى بِمَصْـرَعِهِ آثَـارَ مَوْتَانَـا
أَيْـنَ المُلُـوكُ وَأَبْنَـاءُ المُلُـوكِ
وَمَـنْ كَانَـتْ تَخِـرُّ لَـهُ الأَذْقَـانُ إِذْعَانَـا
صَـاحَتْ بِهِـمْ حَادِثَـاتُ الـدَّهْرِ فَـانْقَلَبُوا
مُسْـتَبْدِلِينَ مِـنَ الأَوْطَـانِ أَوْطَانَـا
خَلُّـوا مَـدَائِنَ كَـانَ العِـزُّ مَفْرَشَـهَا
وَاسْتَفْرِشُـوا حُفَـرًا غُـبْرًا وَقِيعَانَـا

مَضـــَى الزَّمَـــانُ وَوَلَّى العُمْـــرُ فِي لَعِـــبٍ

يَكْفِيكَ مَا قَـدْ مَضـَى قَـدْ كَـانَ مَـا كَانَـا[1]

o

(١) انظر: المدهش لابن الجوزي (ص:٣٧٥).

(٢٠)

القبرُ أوَّلُ منازلِ الآخِرةِ

o

في هذِه السِّلسلةِ المباركةِ مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ جاءَ في حديثِ عُثمانَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**» رواهُ التِّرمذيُّ[(١)].

حديثٌ عظيمٌ جامعٌ، وهو حديثٌ موصولٌ بحديثِنا السابق.

حديثٌ عنِ القبرِ، وأَنَّ النجاةَ فيهِ تَعنِي النجاةَ فيما بعدَه، وأنَّ الخَيْبَةَ والخُسرانَ فيه تَعنِي أَنَّ ما بَعدَه أشدُّ منهُ وأَفظعُ.

والقبرُ أعظمُ واعِظٍ، فهوَ الواعظُ الصامِتُ يَعظُنا بصوتٍ نَقِفُ عندَه فيُذكِّرُنا؛ لذا أمرَنا نبيُّنا ﷺ أَنْ نَزورَ القبورَ فإنَّها تُذكِّرُنا الآخرةَ[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٠٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم (٤٢٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥)، والترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم (١٠٥٤)، من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧)، دون ذكر: أنها تذكر الآخرة.

والقبرُ محطَّةٌ بينَ دارِ المَمرِّ ودارِ المَقرِّ، كما أَخبرَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، قالَ مُجاهِدٌ والضحَّاكُ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: «البَرزخُ حاجِزٌ بينَ الموتِ والبَعْثِ»[(١)].

والقبرُ أوَّلُ مَنزلٍ يَنزِلُه العبدُ بعدَ مُفارقتِه لِمَنازِلِ الدُّنْيا.

والقبرُ صُندوقُ العملِ فما قدَّمَه العبدُ في دُنياهُ يَجِدُه في قبرِه؛ لذا قيلَ:

يَـــا مَـــنْ بِـــدُنْيَاهُ اشْـــتَغَلَ ... وَغَـــرَّهُ طُـــولُ الأَمَـــلْ

المَـــوْتُ يَـــأْتِي بَغْتَـــةً ... وَالقَـــبْرُ صُـــنْدُوقُ العَمَـــلْ[(٢)]

والقبرُ نَتيجةٌ وحصادٌ لِما عمِلْنا وزَرَعْنا، فإمَّا جِنانٌ وإمَّا حُفَرٌ ونيرانٌ، أَسألُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَجعلَ قُبورَنا وقبورَ والدَيْنا رِياضًا مِنْ رِياضِ الجَنةِ.

ولقَدْ بيَّنَ لنا نبيُّنا ﷺ الفرقَ بينَ المؤمنِ الصالحِ وبينَ الكافرِ الطالِحِ، أوِ المُنافِقِ، كيفَ يَكونُ قبرُ هذا، وكيفَ يَكونُ قبرُ الآخَرِ، فبيَّنَ لَنا نبيُّنا ﷺ أحداثًا لا يَعلمُها إلَّا مَنْ يَتنزَّلُ عليه الوحيُ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٧١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٥٠).
(٢) انظر: بستان الواعظين لابن الجوزي (ص:١٩٤).

يَقـولُ في شـأنِ نَبيِّهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

فهذا القبرِ الَّذي نَقِفُ عِندَه فلا نَرَى شيئًا ولا نَسمعُ شيئًا، ولكِنْ هُناكَ أحداثٌ وأهوالٌ، وأفراحٌ ومسَرَّاتٌ تحتَ هذه القُبورِ لا يَعلمُها إلَّا اللهُ، نتيجةً وحَصادًا لِـما نَعملُ، يقـولُ عنه نبيُّنا ﷺ عَنْ قبرِ الصالحِ المُؤمنِ الطائِعِ: «إِذَا وُضِعَ العَبْدُ فِي قَبْرِهِ وَعُرِضَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ فَأَجَابَ فِي الجَوَابِ؛ فَإِذَا بِصَوْتٍ لَا يَسْمَعُهُ إِلَّا صَاحِبُ القَبْرِ قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ فَهَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»، هذا المُؤمِنُ الصالحُ، فكيفَ بالقبرِ الآخَرِ قبرِ الفاسِدِ الطالحِ الكافِرِ المُنافِقِ؟!

قالَ ﷺ بعدَ أَنْ بَيَّن حالَ هذا الإنسانِ حينَما يُعرَضُ عليه السؤالُ قالَ: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا مِنَ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ

فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ فَهَذا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[1].

ففي الوقتِ الَّذي قالَ صاحبُ القبرِ الأوَّلِ: «رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ»؛ لأنَّه يَعلمُ إنْ نَجا هُنا نَجا هناكَ، وما بعدَه أيسرُ مِنْه، وهذا يَعلمُ أنَّه إذا رسَبَ هُنا رسَبَ هُناكَ، وما بعدَه أشدُّ مِنْه.

والقبرُ أبشعُ مَنظرٍ، جاءَ في حديثِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[2].

إِذَنْ ليسَ العِبرةُ أَنْ نُخوِّفَ منَ القبرِ، فبعضُ القبورِ رياضٌ مِنْ رياضِ الجَنةِ، ولكِنِ العِبرةُ أَنْ نَتذكَّرَ أنَّنا صائِرون يومًا إلى هذا القبرِ، فإمَّا رِياضٌ منَ الجِنانِ، وإلَّا حُفرٌ مِنْ حُفَرِ النيرانِ، والعاقلُ هو الَّذي يَعملُ لهذا الصندوقِ الَّذي سيُودَعُ فيه.

وهُنا -عِبادَ اللهِ- أُذكِّرُ نَفْسي وإيَّاكم ببعضِ الأخطاءِ الَّتي نَقَعُ فيها فتكونُ سببًا لعذابِ القبرِ وهي كَثيرةٌ جِدًّا، أَذكُرُ ثلاثةَ نماذجَ:

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧- ٢٨٨)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٦٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٠٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم (٤٢٦٧).

النموذجُ الأوَّلُ:

الوِشايةُ والنميمةُ سببٌ مِنْ أسبابِ عذابِ القبرِ، جاءَ عندَ البخاريِّ مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما قالَ: مرَّ النبيُّ ﷺ بقبرَيْنِ فقالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[1]، فالَّذي يَمشِي بالنَّميمةِ بينَ الناسِ، بينَ الرجُلِ وصاحِبِه، بينَ الرجُلِ وأهلِ بيتِه، هذا الَّذي يَمشِي بالنَّميمةِ ليَعلمْ أنَّه يَقَعُ في ذنبٍ عظيمٍ، وإِنْ رآهُ هيِّنًا صغيرًا، وهو سببٌ مِنْ أسبابِ عذابِ القبرِ.

النموذجُ الثانِي:

السرِقةُ ومدُّ اليدِ إلى مالِ الغيرِ، والأخذُ مِنْ أَموالِ الناسِ، والتَّسلُّطُ على المالِ العامِّ وإِنْ كانَ شيئًا يَسيرًا، هو سببٌ مِنْ أسبابِ عذابِ القبرِ، في حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ -والحديثُ أيضًا عندَ البُخاريِّ- قالَ: خرَجْنا يومَ خيبرَ معَ النبيِّ ﷺ، وذكَرَ أحداثًا في خيبرَ، قالَ: حتَّى أُهدِيَ للنبيِّ ﷺ غُلامٌ يُقالُ لهُ: مدعَمٌ. فكلَّفَه النبيُّ ﷺ برَحْلِه -يَتعهَّدُ رحلَ النبيِّ ﷺ- قالَ: فبينَما مدعَمٌ يَتعاهَدُ رحلَ النبيِّ ﷺ إِذْ جاءَهُ سهمٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم (٢٩٢).

طائشٌ غائِرٌ، فوقعَ فيه فماتَ، فقالَ الناسُ: هنيئًا له الجَنَّةُ، -غُلامٌ وفي خِدمةِ النبيِّ ﷺ، وفي أطرافِ غَزوةٍ مُباركةٍ- فقالَ نبيُّنا ﷺ: «كَلَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الغَنَائِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا»[1].

أَخَذَ قطعةَ قماشٍ عَباءةً أو غيرَ ذلكَ، أَخَذَها منَ الغنائمِ خِلسةً، خصَّ بها نَفْسَه قبلَ أَنْ تُقسَمَ المغانمُ والمقاسمُ، سرقَ قِطعةَ قماشٍ، فقالَ ﷺ -وهوَ يَسمعُ مَنْ يُزكِّيه: هَنيئًا لهُ الجَنةُ - قالَ: «كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الغَنَائِمِ، قَبْلَ أَنْ تُصِيبَهَا المَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا».

فالعاقلُ الَّذي امتَدَّتْ يَدُه إلى مالِ غيرِه فأَخَذَ ما أَخَذَ عليهِ أَنْ يَرُدَّه الآنَ قبلَ أَنْ يَصيرَ في ذلِكَ الصندوقِ فيَشتعِلَ عليهِ نارًا، وإِنْ كانَ شيئًا يَسيرًا كحالِ هذه الشملةِ.

النموذجُ الثالثُ:

حينَما يَأخذُ العبدُ أموالَ غيرِه دَينًا وهوَ لا يُريدُ الوفاءَ مُخادعةً، جاءَ في حديثِ سعدِ بنِ الأَطولِ -صحابيٍّ جليلٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: ماتَ أَخي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب هل يدخل في الأيمان والنذور الأرض، رقم (٦٧٠٧).

وترَكَ ثلاثَ مِئةِ دِرهمٍ، وتركَ عيالًا، فأرَدْتُ أَنْ أُنفقَ الدراهمَ على عيالِه، فقالَ نبيُّنا ﷺ: «إِنَّ أَخَاكَ» يَعنِي: في قَبرِه «مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ فَاقْضِ عَنْهُ»[(١)]، قبلَ أَنْ تُوزعَ التركةُ، قدَّمَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على الورَثةِ، الوَصيةُ والديونُ، قالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء:١١].

فهَذا الَّذي أَخَذَ أموالَ الناسِ ولم يُسَدِّدْها وليسَ في نِيَّتِه السدادُ أخذَها لِيُتلفَها، أخذَها ظنًّا مِنه أنَّها شطارةً، يُقالُ لهُ: هذا مالٌ نَتيجتُه الحبسُ في صندوقِ القبرِ.

إِذَنْ -عِبادَ اللهِ- العاقلُ هوَ الَّذي يَستفيدُ مِنْ مثلِ هذه الخُطبِ، ولا يَجعلُها ترَفًا، أو حديثًا يُقالُ ثُمَّ يَنصرفُ بعدَ ذلكَ إلى ما كانَ عليهِ، بَلْ يَجعلُ مِنْ مثلِ هذه الكلِماتِ عِظاتٍ تَقودُه إلى أعظمِ الجِنانِ.

والنجاةُ مِنْ عذابِ القبرِ بالعملِ الصالحِ الخالصِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولقَدْ أَخبرَ نبيُّنا ﷺ، كما جاءَ عندَ ابنِ حِبَّانَ مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: عَنْ أحداثٍ تَحصلُ في القبرِ، صورَ لنا فيها النجاةَ مِنْ عذابِ القبرِ، قالَ: «إِنَّ المَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ» وأَرجوكَ -يا عبدَ اللهِ- كلَّما وقَفْتَ على قبرٍ وأَنزَلْت الميتَ أو حضَرْت إنزالَه تَذكَّرْ هذا الحديثَ،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧)، وابن ماجه: كتاب الصدقات، باب أداء الدين عن الميت، رقم (٢٤٣٣).

وخاطِبْ بهذا الحديثِ نفسَكَ، قالَ: «إِنَّ المَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ»، انظُرْ أينَ النَّجاةُ؟ اسمَعْ أيُّها المصلِّي، والمقصودُ بالصلاةِ الَّذي تُحافظُ على الصلاةِ، ليسَ المقصودُ بالصلاةِ الَّذي يُصلِّي الجُمُعةَ ثُمَّ سائِرَ الأُسبوعِ لا يُصلِّي، وليسَ المَقصودُ بالصلاةِ الَّذي يُصلِّي فرضًا ويَدَعُ فرضًا، ويُصلِّي على هواهُ.

قالَ: «فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَالَ: فَيُؤْتَى -يَعنِي: يَأْتيه العذابُ- فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ -صلاتُكَ هذه تُدافعُ عنكَ في قبرِكَ- فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ. فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصِّلَةِ وَالصَّدَقَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيَنْجُو»[1].

إذَنْ على العبدِ أَنْ يُحافظَ على هذه الحُصونِ العَظيمةِ، ويُحصِّنَ بها

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٥٦٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٣)، وابن حبان رقم (٣١١٣)، والحاكم (١/ ٣٧٩).

نَفْسه، صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وفِعلٍ للخيراتِ وإحسانٍ إلى الناسِ، فكُلُّ ذلكَ يُتحصَّنُ به في القبرِ، وإلَّا فقَد مرَّ مالكُ بنُ دينارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما يُروَى عنه- بالقبور، فوقفَ عليها وقالَ:

أَتَيْـــتُ القُبُـــورَ فَنَادَيْتُهَـــا ... فَـــأَيْنَ المُعَظَّـــمُ وَالمُحْتَقَـــرْ

وَأَيْـــنَ المُـــدِلُّ بِسُـــلْطَانِهِ ... وَأَيْـــنَ المُزَكَّـــى إِذَا مَـــا افْتَخَـــرْ

قالَ: فسمعَ صوتًا منَ المَقبرةِ يَقولُ:

تَفَـــانَوْا جَمِيعًـــا فَـــمَا مُخْـــبِرٍ ... وَمَـــاتُوا جَمِيعًـــا وَمَـــاتَ الخَـــبَرْ

تَـــرُوحُ وَتَغْـــدُو بَنَـــاتُ الثَّـــرَى ... فَتَمْحُو مَحَاسِـــنَ تِلْـــكَ الصُّـــوَرْ

فَيَا سَـائِلِي عَـنْ أُنَـاسٍ مَضَـوْا ... أَمَـا لَـكَ فِـيمَا تَـرَى مُعْتَـبَرْ [1]

هذا هو العِبرةُ منَ هذا الكلامِ: أَمَا لكَ فيما تَرى مُعتبَر، فالعبرةُ أَنْ يَتعظَ العبدُ بما يَرَى، والعبرةُ أَنْ يَتعظَ العبدُ بمَنْ سبَقَه.

o

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٤٨٧).

(٢١)

لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ

o

يَتواصلُ الحَديثُ في هذه السِّلسلةِ المبارَكةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا الجامِعُ هنا هو ما رواهُ الإمامُ التِّرْمذيُّ مِنْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»(١).

حَديثٌ عنِ القدرِ، والإيمانُ بهذا الركنِ العظيمِ «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» حَديثٌ عَنْ أصلٍ مِنْ أصولِ الإيمانِ، ورُكنٍ عظيمٍ مِنْ أركانِه، لا يَتِمُّ الإيمانُ إلَّا بتَمامِ هذا الرُّكنِ العظيمِ.

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيَّنَ أَهمِّيَّةَ الإيمانِ بالقدَرِ، فجاءَتِ الآياتُ كثيرةً تُبيِّنُ وتُفصِّلُ هذا الأصلَ العظيمَ، نعَمْ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، ويَقولُ سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر، رقم (٢١٤٤).

وفي (سُننِ التِّرْمذيِّ) مِنْ حديثِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ، الخليفةِ الراشِدِ يَقولُ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالموتِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ الموتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ»[1]، فالإيمانُ بالقدَرِ إذا لم يَتحقَّقْ في أبجدِيَّاتِ المؤمِنِ فإنَّه يَأتِي بإيمانٍ ناقصٍ.

يحلفُ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما -كما جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ)- فيَقولُ: والَّذي يَحلِفُ بهِ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ لو أنَّ لأحَدِهم مثلُ أحُدٍ ذهبًا فأَنفَقَه -أَيْ: في سَبيلِ اللهِ- فأَنفَقَه لم يَقبَلِ اللهُ مِنْه حتَّى يُؤمِنَ بالقدَرِ، ثُمَّ ذكرَ حديثَ النَّبيِّ ﷺ معَ جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَما قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ»[2].

وفي حديثِ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -عندَ أحمدَ في (مُسنَدِه)- يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٧)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر، رقم (٢١٤٥)، وابن ماجه: المقدمة، باب في القدر، رقم (٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر، رقم (٨).

(٣) مسند أحمد (٦/ ٤٤١).

في هذِه الأحاديثِ، وقبلَها الآياتُ دليلٌ على أهمِّيَّةِ الالتِفاتِ إلى هذا الركنِ العَظيمِ مِنْ أركانِ الإيمانِ، الإيمانِ بالقدَرِ.

إنَّ الإيمانَ بالقدَرِ قائِمٌ على أربَعةِ أُصولٍ، لا يَتِمُّ إلَّا بها:

الإيمانُ بعِلْمِ اللهِ الشامِلِ المُحيطِ، والإيمانُ بأنَّ اللهَ كتَبَ في لوحِه المحفوظِ كلَّ ما هوَ كائِنٌ إلى قيامِ الساعةِ، والإيمانُ بمَشيئةِ اللهِ الشامِلةِ، والإيمانُ بأنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ شيءٍ، **أربَعةُ أصولٍ:**

الأصلُ الأوَّلُ:

وهُوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلمُ ما هوَ كائِنٌ:

وقَدْ دلَّتْ عليهِ نُصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلمُ ما كانَ، ويَعلمُ ما هوَ كائِنٌ، ويَعلمُ ما سيَكونُ، ويَعلمُ سبحانَه ما لم يَكُنْ لو كانَ كيفَ يَكونُ، فكُلُّ ذلكَ في عِلمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قالَ الحقُّ سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣].

ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ كلُّ أُنثَى في هذه الدُّنيا مِنْ إنسٍ، أو مِنْ جِنٍّ، أَوْ مِنْ طائِرٍ يَطيرُ في السماءِ، أَوْ مِنْ

حيوانٍ يَدبُّ على الأرضِ، أو مِنْ مَخلوقاتٍ تَعيشُ في البِحارِ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ [الرعد:٨] كلُّ ذلكَ في عِلمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فأَصلٌ مِنْ أُصولِ الإيمانِ بالقدَرِ أَنْ تَعلمَ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلمُ ما هو كائِنٌ.

ونبيُّنا ﷺ بيَّنَ لَنا في أحاديثَ -ستَأتِي بعدَ قليلٍ- هذا الأصلَ العظيمَ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ أَحاطَ عِلمُه بكلِّ شيءٍ، ثُمَّ يُفضِي على نَفسِ المُؤمِنِ ارتياحًا بأَنَّ ما يَدورُ في هذا الكونِ مِنْ حولِه هوَ في عِلمِ اللهِ سبحانه.

الأصلُ الثاني:

أَنْ يُؤمنَ العبدُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ كتَبَ في اللوحِ المَحفوظِ ما يَعلَمُه وما هوَ كائِنٌ إلى قيامِ الساعةِ:

فهذِه الأحداثُ الَّتي تَجرِي مِنْ حولِكَ أيُّها العبدُ، والأحداثُ الَّتي جرَتْ وستَجرِي، كلُّ ذلكَ مَكتوبٌ ومُدوَّنٌ في لوحٍ مَحفوظٍ عندَه سُبحانهُ، وقَدْ جاءَتِ الآياتُ والأحاديثُ تَترَى في ذلكَ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ

شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

أرأَيْتَ أوراقَ الشجَرِ وهي تَتَساقطُ؟ هيَ مَكتوبةٌ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في لوحِه المحفوظِ؟!

أرأَيْتَ إلى هذه الأرحامِ الَّتي تَدفعُ وهذه الأرضِ الَّتي تَبلعُ؟! ما يَحصلُ فيها كلُّ ذلكَ مَكتوبٌ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

أرأَيْتَ هؤلاءِ الأحياءَ وهُمْ يَدبُّون على الأرضِ، وهَؤلاءِ الأمواتُ وهُمْ يُحاسَبون تحتَ الأرضِ؟ كلُّ ذلكَ مَكتوبٌ عِلْمُه عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في لوحِه المحفوظِ.

قالَ سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢] أَيْ: قبلَ أَنْ نُوجِدها هي مَوْجودةٌ في كِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

لذا جاءَ في حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -عِندَ مُسلمٍ في (صحيحِه)- أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رقم (٢٦٥٣).

أَلا تَرتاحُ وأنتَ تَسمعُ هذا الحديثَ، حينَما تَعلمُ أنَّ هذه الأحداثَ الَّتي تَجرِي لكَ، وتَجرِي لِمَنْ حولَكَ هيَ في عِلمِ اللهِ قَدْ كُتِبَتْ، فترتاحُ نَفسُكَ وتَطمئِنُّ، ولا تَسخَطُ ولا تَتذمَّرُ ولا تَأسَى ولا تَتحسَّرُ.

قالَ عُبادةُ بنُ الصامِتِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ -والحديثُ عندَ أبي داودَ في (سُننِه)-، وهوَ يُوصِي ابنَه قالَ: يا بُنيَّ إنَّكَ لَنْ تَجدَ طعمَ حَقيقةِ الإيمانِ حتَّى تَعلمَ أنَّ ما أَصابَكَ لم يَكُنْ لِيُخطِئَكَ، وما أَخطأَكَ لم يَكُنْ لِيُصيبَكَ، يا بُنيَّ سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، يا بُنيَّ سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**»[1] الإيمانُ بعِلمِ اللهِ المُحيطِ الشاملِ، الإيمانُ بأنَّ كلَّ ذلكَ مُدوَّنٌ في اللوحِ المحفوظِ.

الأصلُ الثالثُ:

الإيمانُ بمَشيئةِ اللهِ الشامِلةِ، فما شاءَ سبحانه كانَ، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ، مَهما قدَّمَ العبدُ منَ الأسبابِ، ومَهما تَخاذلَ في تَقديمِ الأسبابِ، فما شاءَ اللهُ كانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، وكُلُّنا يَقرَأُ قولَ الحقِّ سبحانه: ﴿ قُلِ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ن﴾، رقم (٣٣١٩).

﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]، وكلُّنا يَقرَأُ قولَ الحقِّ سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

يَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٢٨-٣١].

يَقولُ حبيبُنا ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّها بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ يَقولُ: «اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[(١)].

الأصلُ الرابعُ:

الإيمانُ بأنَّ اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ، فما تَراهُ في نفسِكَ، وما تَراهُ حولَكَ، ما تَراهُ في هذا الكونِ، وما يَخلو إليه إحساسُكَ وإدراكُكَ في هذا

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الكوكبِ، وفي هذه المجرَّةِ، وفي هذا الخلقِ، كلُّه خلقُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر:٦٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:١٠٢].

والإيمانُ بالقدَرِ لا يَعنِي أبَدًا الاستسلامَ للفشَلِ، والإيمانُ بالقدَرِ لا يَعنِي أبدًا الاستسلامَ للهَزيمةِ، والإيمانُ بالقدَرِ لا يَعنِي أبدًا الاستسلامَ للمرَضِ، والإيمانُ بالقدَرِ لا يَعنِي أبدًا الاستسلامَ للتَّشاؤمِ والاكتئابِ والضيقِ والحَسرةِ، إنَّما الإيمانُ بالقدَرِ يَعنِي أنَّكَ تَفرُّ مِنْ قدَرِ اللهِ إلى قدَرِ اللهِ، فتَنتقِلُ منَ الفشَلِ إلى النجاحِ، ومنَ الهَزيمةِ إلى النصرِ، ومِنَ المَرَضِ إلى العافيةِ، ومنَ التشاؤُمِ والاكتِئابِ والتَّحسُّرِ إلى التفاؤُلِ وسَعةِ الصدرِ والنَّفْسِ.

خرجَ عُمرُ الفاروقُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ مُتَّجهًا إلى بلادِ الشامِ، فخرجَ له أُمراءُ الأجنادِ على رأسِهم أبو عُبيدةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ، فقالَ: يا عُمرُ تَوقَّفْ؛ فإنَّ الطاعونَ قدِ انتَشَرَ في بِلادِ الشامِ، فهَلْ ستَدخُلُ أو لا تَدخُلُ؟ قال: «اجْمَعُوا لِي المُهَاجِرِينَ وَالأنصارَ وغيرَهُم مِنْ ذوِي العقلِ؛ أَستشيرُهُم أَدخلُ أو لا أدخُلُ» فأَشارَ بعضُهم بأَنْ يدخلَ، وأَشارَ آخَرون ألَّا يَدخلَ، فاتَّخَذ قَرارًا بعدَمِ الدخولِ، ورجعَ عمرُ وأمرَ بالرجوعِ،

فقامَ له أبو عُبيدةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ قالَ: يا أميرَ المُؤمِنين أَفِرارًا مِنْ قدَرِ اللهِ؟! قالَ الفاروقُ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «لَوْ غيرُكَ قالَها يا أبا عُبيدةَ، نعَمْ نَفِرُّ مِنْ قدَرِ اللهِ إلى قدَرِ اللهِ»[1].

هذا هو فِقهُ التعاملِ معَ الإيمانِ بالقدَرِ، أَنَّكَ تفرُّ مِنْ قدَرٍ إلى قدَرٍ، وكلٌّ ذلكَ في قدَرِ اللهِ.

فالإيمانُ بالقدَرِ لا يَعنِي أَنَّكَ تَستسلِمُ، وتَعيشُ في مكانِكَ لا تَتغيَّرُ، إنَّما الإيمانُ بالقدَرِ أَنْ تُطوِّرَ نفسَكَ، وأَنْ تَرفعَ مِنْ قيمتِكَ، وأَنْ تَلحقَ بالناجِحين، وأَنْ تَتداوَى وتَطلبَ العافِيةَ، والإيمانُ بالقدَرِ أَنَّكَ لا تَتحسَّرُ على أمرٍ قَدْ وقعَ، ولكِنَّكَ تَستعينُ باللهِ ثُمَّ تَقومُ، فهذا مِنْ قدَرِ اللهِ، وقوعُكَ في قدَرِ اللهِ وقيامُكَ مِنْ قدَرِ اللهِ.

فالإيمانُ بالقدَرِ رُكنٌ مِنْ أركانِ هذا الإيمانِ العظيمِ الَّذي نُدينَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ.

o

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة، رقم (٢٢١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢٢)

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ

o

في هَذه السلسلةِ المُباركةِ مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ حديثُنا هو ما جاءَ في (صحيحِ مسلمٍ) مِنْ حديثِ أبي شُريحٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ»[1].

وإذا تَأمَّلْت في نصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ وجَدْتَها زاخِرةً بالحثِّ على الإحسانِ إلى الجارِ في الأقوالِ، والأفعالِ، كلُّ صورِ الإحسانِ تَجدُها في كِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعلى لِسانِ رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ في سُورةِ النِّساءِ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]، فانظُرْ كيفَ قرَنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأمرَ بعبادتِه والإحسانَ إلى الوالِدَيْن بالإحسانِ إلى ذَوي القُربى، والإحسانِ إلى الجيرانِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٨).

أمَّا إذا وقَفْت على سُنَّة النبيِّ ﷺ فإنَّك تَجِدُ العجبَ العُجابَ في وَصيَّتِه ﷺ بالجارِ، فهذا عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -كما جاءَ في (سُننِ التِّرمِذيِّ)-: تُذبَحُ شاةٌ في بيتِه لأهلِه، فإذا به يَقولُ: أَهدَيْتم لجارِنا اليَهوديِّ؟ أهدَيْتُم لجارِنا اليَهوديِّ؟ -يُكرِّرُها مرارًا حتَّى ملَّ أهلُه مِنْ تَكرارِه- فقالَ: إنِّي سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»(١).

والإحسانُ إلى الجارِ يُؤثِّرُ مُباشَرةً في إعمارِ الديارِ، وفي البرَكةِ في الأعمارِ جاءَ في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا -عندَ أحمدَ في (مُسندِه)-: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَحُسْنُ الجِوَارِ يُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ**»(٢).

وأعظمُ الخُصماءِ يومَ القِيامةِ همُ الجيرانِ، يَقولُ ﷺ -كما جاءَ في حديثِ عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ أحمدَ في (مُسندِه)-: «**أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ جَارَانِ**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حق الجوار، رقم (٥١٥٢)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، رقم (١٩٤٣).

(٢) مسند أحمد (٦/ ١٥٩).

(٣) مسند أحمد (٤/ ١٥١).

ثُمَّ إنَّ حُسنَ الجِوارِ سَبيلٌ وسبَبٌ رئيسٌ مِنْ أسبابِ دُخولِ الجَنَّةِ، جاءَ في حديثِ أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ -عندَ الحاكِمِ في (مُستدرَكِه)- قالَ: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ قالَ: يا رَسولَ اللهِ دُلَّني على عمَلٍ إذا أنا عمِلْتُ بهِ دخَلْتُ الجَنَّةَ. قالَ: «كُنْ مُحْسِنًا» -هذا هوَ الجوابُ- قالَ: يا رَسولَ اللهِ، كيفَ أعلمُ أنِّي مُحسنٌ؟ قالَ: «سَلْ جِيرَانَكَ، فَإِنْ قَالُوا: إِنَّكَ مُحْسِنٌ فَأَنْتَ مُحْسِنٌ، وَإِنْ قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيءٌ فَأَنْتَ مُسِيءٌ»[(١)].

نعَمْ، أحسَنُ الجيرانِ عندَ اللهِ أحسَنُهم لجارِه، هكَذا جاءَ في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو -عندَ التِّرمذيِّ-: قالَ: «خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»[(٢)].

بَلْ قالَ ﷺ -كما جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ)-: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ -أَوْ قَالَ: لِأَخِيهِ- مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[(٣)].

فإذا رُزِقْت بجارٍ صالحٍ يُحسِنُ إليكَ فاعلَمْ أنَّكَ قد حُزتَ ربعَ

(١) المستدرك (١/ ٣٧٨).
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، رقم (١٩٤٤).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم..، رقم (٤٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، بلفظ: « حتى يحب لأخيه ».

السعادةِ، نعَمْ ربعُ السعادةِ تَجِدُها في الجارِ الصالحِ، وهذا هو قولُ النبيِّ ﷺ قالَ كما جاءَ في حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ ابنِ حِبَّانَ في (صحيحِه)- قالَ: «**أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالمَسْكَنُ الوَاسِعُ، وَالجَارُ الصَّالِحُ، وَالمَرْكَبُ الهَنِيءُ**» قالَ: «**وَأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ: الجَارُ السُّوءُ، وَالمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالمَسْكَنُ الضَّيِّقُ، وَالمَرْكَبُ السُّوءُ**»[1]، فإذا رُزِقَ العبدُ بجارٍ صالحٍ فقَدْ حازَ السعادةَ، وإذا رُزِقَ العبدُ بجارٍ سيِّءٍ فإنَّه قَدْ وقعَ عليه ربعُ الشقاوةِ.

بعدَ هذه المُقدِّمةِ حُقوقُ الجارِ على الجارِ كثيرةٌ، ولكِنْ أُذكِّرُ ببَعْضها:

الحقُّ الأوَّلُ:

الإحسانُ إليه بكُلِّ صورِ الإحسانِ، بالقولِ، وبالعملِ، وبحُسنِ الظنِّ، كلُّ صورةٍ مِنْ صورِ الإحسانِ هيَ مِنْ حقِّ الجارِ عليَّ، وجارِي كما يَقولُ أهلُ العِلمِ: جارُكَ هو البيتُ الأربَعونَ مِنْ حولِكَ، فأربَعونَ بيتًا مِنْ هُنا وأربَعونَ بيتًا مِنْ هُنا، فمِنْ كلِّ جِهةٍ أربَعون بيتًا، هَؤلاءِ كلُّهم لهُمْ حُقوقُ الجارِ.

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٤٠٣٢).

والإحسانُ إليهِ جاءَتْ فيه أدِلَّةٌ كثيرةٌ، على رأسِها حديثُنا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ».

وجاءَ أيضًا في حديثِ أبي قرادٍ السلميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ الطبرانيِّ في (مُعجمِه الأوسطِ)- قالَ: دعا رسولُ اللهِ ﷺ بطَهورٍ ليَتوضَّأَ، فلمَّا فرَغَ مِنْ وُضوئِه ابتدرَ الصحابةُ ما فضَلَ منَ الماءِ يَتبرَّكون بهِ، ويَمسَحون بهِ على أَجسادِهِم، فقالَ ﷺ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى مَا صَنَعْتُمْ؟» قالوا: حُبُّ اللهِ ورسولُه، قالَ ﷺ: «فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ يُحِبَّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ فَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَحْسِنُوا جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكُمْ»[1]، فتُنالُ مَحَبَّةُ اللهِ ورسولِه ﷺ بالإحسانِ إليهِ في كلِّ شيءٍ.

الحقُّ الثاني:

تعاهُدُه بالعَطيَّةِ، عظُمَت هذه العَطيَّةُ أو كانَتْ دونَ ذلكَ؛ لذا كانَ نبيُّنا ﷺ يَقولُ لأبي ذَرٍّ -كما جاءَ في (صحيحِ مسلمٍ)-: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»[2] أي: تَعاهَدْهُم بالعَطيَّةِ.

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ

(١) المعجم الأوسط رقم (٦٥١٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار، رقم (٢٦٢٥).

الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ»[١].

وعندَ الطبَرانيِّ: يَقولُ ﷺ -في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **«مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»**[٢]، فيَتعاهدُ بالعَطيَّةِ، بالعَطيَّةِ، خاصَّةً إذا كان في حاجةٍ وعوزٍ.

الحقُّ الثالثُ:

حمايةُ عرضِه ومالِه، فالجارُ قَدْ يَموتُ، وقَدْ تَجرِي عليه ما تَجرِي على العبدِ مِنْ حَياةٍ، فيَبقَى عِرضُه في البيتِ، ومالُه في البيتِ، ومِنْ حقِّ الجارِ على الجارِ أَنْ يَحميَ هذا العِرضَ، إنَّكَ لتَتألَّمُ أشدَّ الألَمِ حينَما تَسمعُ بجارٍ يَخونُ جارَه، ويَتعدَّى على عِرْضِه ومالِه، إنَّها مِنْ أَعظمِ الخِياناتِ حتَّى جاءَ في (مُسندِ أحمدَ): أنَّ النبيَّ ﷺ بيَّنَ أنَّ الَّذي يَعتدِي على حُرمةِ جارِه أشدُّ خطَرًا وفَظاعةً منَ الاعتِداءِ على عشَرةِ بُيوتٍ، وأنَّ الَّذي يَسرِق مِنْ بيتِ جارِهِ أشدُّ خطرًا وإثمًا وسوءًا منَ الَّذي يَسرقُ مِنْ عشَرةِ بُيوتٍ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (١١٢)، وأبو يعلى في المسند رقم (٢٦٩٩)، (٢٦٩٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٥٤، رقم ١٢٧٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣).

(٢) المعجم الكبير (١/ ٢٥٩، رقم ٧٥١).

بُيوتٍ[١].

والعربُ في الجاهليةِ كانوا يَعرِفون حقَّ الجوارِ، وتاريخُهم إلى الآنَ مُسطَّرٌ تَشهدُ به الأجيالُ، ومرَّ عليهِم آلافُ السِّنينَ، فهذا رجلُ عَبْسٍ عَنترةُ تَحفظُ الأجيالُ بيتًا قالَه إلى اليومِ:

وَأَغُـــضُّ طَـــرْفِي إِنْ بَـــدَتْ لِي جَـــارَتِي
حَتَّـــى يُـــوَارِي جَـــارَتِي مَأْوَاهَـــا[٢]

يَحفظُ ويَصونُ عِرضَه وعِرضَ جارِه.

وهذا حاتمٌ رجُلُ طَيءٍ يُردِّدُ هذا البيتَ العظيمَ قالَ:

مَـــا ضَرَّ جَـــارٍ لِي أُجَـــاوِرُهُ أَلَّا يَكُـــونَ لِبَابِـــهِ سِـــتْرُ

يَقولُ: لا يَحتاجُ جاري أَنْ يَضَعَ سِترًا على بابِه.

أُغْضِـي إِذَا مَا جَـارَتِي بَـرَزَتْ حَتَّى يُوَارِي جَـارَتِي الخِـدْرُ[٣]

---

(١) مسند أحمد (٦/ ٨)، من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لعنترة بن شداد، انظر: ديوانه (ص:٣٠٨) ط. المكتب الإسلامي.

(٣) انظر: مكارم الأخلاق للخرائطي (ص:٩٦-٩٧)، وتاريخ دمشق (١١/ ٣٧٤). (١١/ ٣٧٤). ونسبه البعض لمسكين الدارمي، انظر: ربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٣٩١)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي (٣/ ١٣٠١)، وخزانة الأدب

الحقُّ الرابعُ:

أَنْ يَكفَّ الأذَى عَنْه، والَّذي له عَلاقةٌ بمَراكزِ الشُّرطةِ يَسمعُ الشيءَ العَجيبَ، والَّذي له عَلاقةٌ بالمحاكمِ يَجِدُ الشيءَ العَجيبَ مِنْ كثرةِ شَكوى الجيرانِ على جِيرانِهم في أشياءَ لا يَنبَغي أَنْ تكونَ منَ الجارِ، والأمثِلةُ كثيرةٌ وأنتُمْ تَعرِفونها.

ونبيُّنا ﷺ يقـولُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَـلَا يُؤْذِ جَارَهُ»[1]، بل يَكفُّ الأذَى.

واللهِ لو رفعَ الإنسانُ في بيتِه صوتَ القُرآنِ فتَأذَّى جارُه مِنْه فإنَّ هذه مَعصيةٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ نَهَى المُؤمِنين أَنْ يَرفعَ أحدُهم صوتَه بالقُرآنِ[2]، لا يُشوِّشُ على جارِه الَّذي معَهُ في المسجدِ.

ومِنْ هُنا رِسالتي لأئمَّةِ المساجدِ أقولُ لَهُم: حينَ تَرفعُ صوتَكَ

للبغدادي (٣/ ٧٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧/ ٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالقرآنِ في مُكبِّرِ الصوتِ الخارِجيِّ في الصلواتِ فإنَّكَ تُخالفُ ما أَمرَ به النبيُّ ﷺ، فقراءتُكَ للقرآنِ إنَّما هيَ لِمَنْ في المسجدِ وليسَتْ لِمَنْ هُمْ خارجَ المسجدِ، وما تُسبِّبُه مِنْ صوتٍ مُرتفعٍ يَتأذَّى بهِ الجيرانُ لعلَّكَ تَأثمُ بِه، وارجِعْ إلى فتاوَى العلماءِ في ذلكَ ماذا يَقولونَ.

الحقُّ الخامسُ- ولعلَّكَ تَعجَبُ مِنْ هذا الحقِّ-:

أَنْ يَصبِرَ على أَذاهُ، فاصبِرْ على أذى الجارِ فهذا مِنْ حَقِّه، نعَمْ حقُّ جارِكَ أَنْ تصبرَ على أَذاهُ وهذا مِنْ عجيبِ الأمورِ، يَقولُ نبيُّنا -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- كما جاءَ في (مُسندِ أحمدَ) مِنْ حديثِ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ، وَثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ**»، وذكرَ منَ الَّذين يُحبُّهم اللهُ: «**وَرَجُلٌ لَهُ جَارٌ يُؤْذِيهِ فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ وَيَحْتَسِبُهُ حَتَّى يَكْفِيَهُ اللهُ إِيَّاهُ بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ**»[(١)].

فمِنْ حقِّه عليَّ أَنْ أصبِرَ على أذاهُ، لذا قالَ الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ -وما أجملَ ما يَقولُ الحسنُ البصريُّ!- قالَ: «ليسَ حُسنُ الجوارِ كفَّ الأذى عنِ الجارِ، ولكِنْ حُسنُ الجوارِ الصبرُ على الأذى مِنَ الجارِ»[(٢)].

---

(١) مسند أحمد (٥/ ١٧٦).

(٢) انظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص:١٤٣).

يَأتي رجُلٌ لابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقولُ: يا ابنَ مَسعودٍ لي جارٌ يُؤذِيني يَشتمُني ويَسبُّني ويُضيِّقُ عليَّ!. قالَ لهُ ابنُ مسعودٍ: «اذْهَبْ، فإنْ عصى اللهَ فيكَ فأطِعِ اللهَ فيهِ»[1].

صدَقْتَ يا رسولَ اللهِ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ».

فحُسنُ الجوارِ هي العبادةُ العظيمةُ الَّتي يَتقرَّبُ بها العبادُ إلى اللهِ، ثُمَّ إنِّي أَقولُ لكَ -يا عبدَ اللهِ- وأقولُ لنَفسِي: فلْنَحذَرْ أَنْ يَرحلَ جارُنا بسببِ إيذائِنا، لا يَرحَلُ جارُكَ مِنْ جوارِكَ وهو ساخطٌ عليكَ، فقَدْ ذكرَ أنَّ رجُلًا ابتَنَى بيتًا جميلًا، في موقعٍ جميلٍ، فلمَّا شيَّدَه وأَرادَ أَنْ يَسعدَ فيهِ ابتُلِيَ بجارٍ لهُ مُؤذٍ فعرَضَ بيتَه للبيعِ، فقالَ لهُ الناسُ يَلومونَه: كيفَ تبيعُ البيتَ الجميلَ في هذه الأرضِ الجَميلةِ فأَنشأَ يَقولُ:

يَلُومُونَنِي إِذْ بِعْتُ بِالرُّخْصِ مَنْزِلًا
وَلَمْ يَعْرِفُوا جَارًا هُنَاكَ يُنَغِّصُ
فَقُلْتُ لَهُمْ كُفُّوا المَلَامَ فَإِنَّهَا

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٢).

بِجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ[١]

فالعبرةُ بهذا الجارِ؛ لهذا يُذكرُ عَنْ جارٍ لسعيدِ بنِ العاصِ عرَضَ بيتَه للبيعِ، فجاءَهُ الراغِبون قالوا: كَمْ تَرغَبُ في بيتِكَ؟ قالَ: مِئةَ ألفٍ. قالوا: اشتَرَيْنا. قالَ: ولكِنَّكم لم تُفاوِضوني على ثمَنِ جارِي. قالوا: وهلِ الجارُ يُباعُ؟ قالَ: مَنْ كانَ مثلَ سعيدِ بنِ العاصِ فإنَّ لَهُ ثمَنًا يُباعُ -أبيعُ البيتَ بثمَنٍ، وجوارَ سعيدِ بنِ العاصِ بثمَنٍ- قالوا: كيفَ ذاكَ؟ قالَ: إنَّهُ سَعيدُ بنُ العاصِ الَّذي إذا قعَدْتَ سألَ عَنْكَ، وإذا رآكَ رحَّبَ بكَ، وإذا غِبتَ حفِظَكَ، وإذا شاهَدْتَه قرَّبَكَ، وإذا سألتَه أَعطاكَ، وإذا لم تَسأَلْه ابتَدَأَكَ، وإذا نابَتْكَ نائبةٌ فرَّجَ عنكَ، قالَ: فسمِعَ سعيدُ بنُ العاصِ بما دارَ بينَه وبينَ الراغِبينَ في بيتِهِ فأَرسلَ له مِئةَ ألفِ دِرهمٍ وقالَ: اشتَرَيْت البيتَ لكَ، واشتَرَيْت جوارَكَ[٢].

o

(١) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٦) غير منسوب.

(٢) انظر: ربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٣٩٢- ٣٩٣)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٥٣٥).

(٢٣)

أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الخُشُوعُ

o

عظَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شأنَ الصلاةِ، وجعلَ روحَها ولُبَّها وقلبَها الخشوعَ فيها.

نعَم، فالعبدُ مطالَبٌ أَنْ يُصلِّيَ، لكِنَّه مطالبٌ أَنْ يَخشعَ في صلاتِه، وصلاةٌ بغيرِ خُشوعٍ لا خيرَ فيها، حتَّى لو صلَّى الإنسانُ عشَراتِ السِّنين وهو مُفرِّطٌ في خُشوعِه؛ فهوَ كالميتِ الَّذي لا حياةَ فيهِ.

لذا حَديثُنا الَّذي نَضمُّه إلى ما قبلَه مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ حديثُ أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذي رواهُ الطبرانيُّ في (مسندِ الشاميِّين) أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الخُشُوعُ حَتَّى لَا يُرَى فِيهَا خَاشِعٌ**»[1].

وأنتَ -يا عبدَ الله- إذا قرَأْتَ في أوصاف المُؤمنين الواردِ ذِكرُهم في سورةِ المُؤمنون تَجِدُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلَ الصِّفةَ الأُولى الَّتي تَقدَّمَت على جميعِ الصفاتِ الخشوعَ في الصلاةِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**

(١) مسند الشاميين رقم (١٥٧٩).

﴿ ١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١-٢]، ثُمَّ عدَّدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدَ ذلكَ الصفاتِ، وختَمَ هذه الصفاتِ قائِلًا سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:٩-١١]، نعَمْ هُمْ يُحافِظون على الصلاةِ، لكِنِ العِبرةُ في الصفةِ الأُولى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ صِفةٌ تتقدمُ على جميع الصفاتِ.

لذا قال حُذيفةُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ -وقَدْ أَوردَ هذا الأثرَ ابنُ القيمِ في كتابِه (مَدارِجِ السالِكينَ)-: «أولُ ما تَفقِدون مِنْ دِينِكمُ الخشوعُ، وآخِرُ ما تَفقِدون مِنْ دِينِكمُ الصلاةُ، ورُبَّ مُصَلٍّ لا خيرَ فيه، ويُوشِكُ أَنْ تَدخُلَ مسجدَ الجماعةِ فلا تَرَى فيهِم خاشِعًا»[(١)]، فمَسجِدُ الجماعةِ الجماعةُ فيه كثيرٌ؛ لكِنَّكَ يُوشِكُ أَلَّا تَرى خاشِعًا واحدًا، وهذا ما يَكونُ في آخِرِ الزمانِ يُرفعُ الخشوعُ وتَبقَى الصلاةُ أمَدًا طويلًا، لكِنَّها صَلاةٌ بغيرِ خشوعٍ.

لذا جاءَ الترغيبُ في الخشوعِ في الصلاةِ، فانظُروا ماذا قالَ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ) مِنْ حديثِ عمرِو بنِ عبَسةَ السُّلَميِّ

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٧). وأخرجه ابن أبي شيبة (١٩/ ٢٥٤)، والحاكم (٤/ ٤٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨١).

في حديثٍ طويلٍ عن النبي ﷺ، قالَ في آخِرِه: قالَ: «فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ» هذا هو الخُشوعُ، انظُرِ النَّتيجةَ: «إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1] هذه فَضيلةُ الخُشوعِ.

فكَمْ فوَّتْنا في هذه الفَضيلةِ، وهذا الحافِزِ، وهذا الأجرِ العَظيمِ؟!

وفي (صحيحِ مُسلمٍ) أيضًا مِنْ حديثِ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: يَقولُ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم: «مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»[2].

يُرغِّبُنا ﷺ في الخُشوعِ في الصَّلاةِ، وفي الجانِبِ الَّذي يُرغِّبُنا فيه أيضًا في جانبٍ آخَرَ حذَّرَنا مِنْ تركِ الخُشوعِ، وهُنا أُورِدُ حديثَيْن أيضًا:

أَمَّا الحديثُ الأَوَّلُ، فإنَّ النبيَّ ﷺ رأَى رجُلًا يُصلِّي، لكِنَّه لا يُتِمُّ الرُّكوعَ، ويَنقُرُ في سُجودِه؛ فأشارَ إليهِ النبيُّ ﷺ قالَ: «لَوْ مَاتَ هَذَا عَلَى حَالِهِ هَذِهِ؛ لَمَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»، هذا يُصلِّي لكِنَّه لا يُتِمُّ الركوعَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم (٨٣٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، رقم (٢٢٨).

والسُّجودَ، ثُمَّ قالَ: «مَثَلُ الَّذِي لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ، وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ مَثَلُ الجَائِعِ يَأْكُلُ التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَيْنِ؛ لَا يُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئًا»(١).

وحديثُ حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ -الَّذي ذكَرْناه قبلَ قليلٍ يقولُ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الخُشُوعُ»- رأَى رجُلًا يُصلِّي يُطفِّفُ في صلاتِه، يُصلِّي يُطفِّف في صلاتِه أَيْ: يَنقُصُ مِن صلاتِه، يَنقُصُ في الركوعِ، ويَنقُصُ في السُّجودِ، قالَ: «مُذْ كَمْ تُصَلِّي هَكَذَا؟» قال: مُنذُ أربَعينَ سَنةً، قالَ: «مَا صَلَّيْتَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَوْ مِتَّ وَأَنْتَ تُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَاةَ لَمِتَّ عَلَى غَيْرِ فِطْرَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»(٢) إذَنِ الأمرُ كما أنَّه مُرغَّبٌ فيه، أَيْ: في الخُشوعِ في الصلاةِ، كذلِكَ قد حذَّرَنا نبيُّنا ﷺ مِنْ تَرْكِه.

لذا -عِبادَ اللهِ- فالسُّؤالُ الَّذي يَتبادرُ إلى الأذهانِ الآنَ: كيفَ أَخشعُ في صلاتِي؟ لأنَّ الخُشوعَ هذا يُرفعُ منَ الأُمَّةِ؟ كيفَ أَكونُ منَ البَقيَّةِ الباقِيةِ الَّتي تَخشعُ في الصلاةِ؟

أَقولُ: إذا أَرَدْتَ أَنْ تَخشعَ في صلاتِكَ فخُذْ هذه الوسائِلَ:

---

(١) أخرجه أبو يعلى رقم (٧١٨٤)، وابن خزيمة رقم (٦٦٥)، والطبراني (٤/ ١١٥، رقم ٣٨٤٠)، والبيهقي (٢/ ٨٩)، من حديث عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب تطفيف الصلاة، رقم (١٣١٢)، أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الركوع، رقم (٧٩١).

الوَسيلةُ الأُولى:

استعِدَّ للصلاةِ، كُنْ مُستعِدًّا للصلاةِ، حاضِرةً في قلبِكَ على الدوامِ، أنتَ على استِعدادٍ لَها دائِمًا، قَدْ هيَّأْتَ نفسَكَ فرَّغْت قلبَكَ، تَتوضَّأُ فتُحسنُ الوضوءَ، تَذهَبُ إليها وأنتَ في سَكينةٍ ووقارٍ، كما قالَ ﷺ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ»[1] في سَكينةٍ ووقارٍ.

الوَسيلةُ الثانيةُ:

اطمَئِنَّ فيها؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ إذا صلَّى اطمأَنَّ في صلاتِه حتَّى يَرجعَ كلُّ عظمٍ إلى موضِعِه[2]، إذا ركعَ اطمَأَنَّ في رُكوعِه، إذا رفعَ اطمأَنَّ في رفعِه، إذا سجَدَ اطمأَنَّ في سُجودِه، إذا قرَأَ عرَفَ ما يَقرَأُ.

الوَسيلةُ الثالثةُ:

أَرشَدَ إليها نبيُّنا ﷺ: إذا قُمتَ في صَلاتِكَ وقبلَ أَنْ تُكبِّرَ تَذكرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم (٩٠٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب سنة الجلوس في التشهد، رقم (٨٢٨)، وأحمد (٥/ ٤٢٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب افتتاح الصلاة، رقم (٧٣٠)، والترمذي: كتاب الصلاة، رقم (٣٠٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب إتمام الصلاة، رقم (١٠٦١)، من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموتَ، هَكذا علَّمَنا نَبيُّنا ﷺ حيثُ قالَ: «اذْكُرِ المَوْتَ فِي صَلَاتِكَ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ المَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنَّه يُصَلِّي صَلَاةً غَيْرَهَا»[1].

وهَلْ هُناكَ أوضحُ مِنْ هذا الإرشادِ، وأَوضحُ مِنْ هذا البيانِ، وأوضَحُ مِنْ هذا البلاغِ؟ اذكُرِ الموتَ في صلاتِكَ، وصلِّ صلاةَ رجُلٍ لا يظنُّ أنَّه يُصلِّي صلاةً غيرَها، النتيجةُ: «لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ» كما جاءَ في وسطِ الحَديثِ.

وقد جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ -كما جاءَ في (سُننِ ابنِ ماجَهْ) مِنْ حديثِ أبي أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قالَ هذا الرجُلُ: يا رَسولَ اللهِ، علِّمْني وأَوجِزْ. قالَ ﷺ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ»[2] هذا هو البَيانُ.

الوَسيلةُ الرابِعةُ:

تَدبَّرْ ما تَقرَأُ وما يُقرَأُ عليكَ، تَدبَّرْ ما تَقرأُ في صَلاتِكَ إذا كُنتَ مُنفردًا، وما يَقرَؤُه الإمامُ إذا كنتَ مَأمومًا، فإنَّكَ إذا تَدبَّرْت ما يُتلَى

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير رقم (٥٢٧)، والديلمي كما في الفردوس رقم (١٧٥٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحكمة، رقم (٤١٧١).

خشَعْت، كما قالَ الحقُّ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]، وهذِه وَسيلةٌ أيضًا، إذا فعَلَها الإنسانُ حصَّلَ هذه النِّعمةَ العَظيمةَ وهِيَ الخُشوعُ في الصَّلاةِ.

وأيضًا منَ الوَسائلِ الَّتي تُضافُ إلى هذه الوَسيلةِ:

نَوِّعْ في أذكارِ ما تَقرَؤُه، في السُّوَرِ الَّتي تَقرَؤُها، فالبعضُ يَقولُ: أنا مِن سِنينَ وأنا لا أَقرَأُ في صلاتِي إلَّا السورَ الفُلانيةَ والآيةَ الفلانيةَ، لكِنِ السُّنَّةُ أَنْ تُغيِّرَ ما تَقرَأُ حتَّى يَحصلُ لكَ الخُشوعُ، فعلى سَبيلِ المِثالِ في الركوعِ قُلْ تارةً: سبحانَ ربِّيَ العظيمِ. وقُلْ تارةً: سبحانَ ربِّيَ العظيمِ وبحَمْدِه. وقُلْ ثالِثةً: سبُّوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائِكةِ والروحِ. وفي صلاةٍ رابِعةٍ قُلْ: اللَّهُمَّ لَكَ ركَعْتُ، وبكَ آمَنْتُ، ولكَ أَسلَمْتُ، خشَعَ لكَ سَمْعي وبصَري ومُخِّي وعَظْمي وعصَبي، هذه أَدعيةٌ تُقالُ في الركوعِ، وغيرُها منَ الوسائِلِ.

إذَنْ حينَما يَقولُ نبيُّنا ﷺ: **«أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الْخُشُوعُ حَتَّى لَا يُرَى فِيهَا خَاشِعٌ»**، إنَّما أَرادَ بذلكَ أَنْ يَحُثَّنا جميعًا على أَنْ نَخشعَ في صلاتِنا.

وَسيلةٌ أخيرةٌ تُعينُكَ على الخشوعِ في الصلاةِ:

إذا لَمْ تَأْخُذْ إلَّا بها فثِقْ تمامًا أنَّكَ ستَخشَعُ بإذْنِ اللهِ، وهذه الوسيلةُ هِيَ أَنْ تَستحضِرَ وتَستشعِرَ الأجرَ المُترتِّبَ على خُشوعِكَ في الصلاةِ فقَطْ، استشعِرِ الأجرَ المُترتِّبَ الَّذي ذكَرْته قبلَ قليلٍ، أو ما أَذكُرُه في هذا الحديثِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ -انظُروا ماذا قالَ؟ فرِّغوا له قُلوبَكم حتَّى تَتشرَّبَه هذه الجوارحُ فتَنطلِقَ به- قالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أُتِيَ بِذُنُوبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَى رَأْسِهِ وَعَاتِقِهِ، فَكُلَّمَا رَكَعَ أَوْ سَجَدَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ» «إِنَّ العَبْدَ» أيُّ عبدٍ «أُتِيَ بِذُنُوبِهِ» كلِّ الذنوبِ «فَجُعِلَتْ عَلَى رَأْسِهِ وَعَاتِقِهِ، فَكُلَّمَا رَكَعَ أَوْ سَجَدَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ»[1] كلَّما أَطَلْت في الركوعِ، وكلَّما أَطَلْت في السجودِ؛ فإنَّ هذه الذنوبَ تَتساقَطُ وتَتناثَرُ مِنْ على رأسِكَ وعاتِقِكَ، هكَذا إذا أَرَدْت أَنْ تَخشعَ في صلاتِكَ وتَكونَ منَ الخاشِعينَ الَّذين امتَدَحَهم ربُّ العالَمينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢].

o

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة رقم (٢٩٤)، وابن حبان رقم (١٧٣٤)، والبيهقي (٣/ ١٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢٤)

مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ مَشَى إِلَى المَسْجِدِ فَهُوَ زَائِرُ اللهِ وَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ

o

عبدَ اللهِ، هَلْ تَعلَمْ أَنَّكَ إذا أَتَيْتَ المسجِدَ فإنَّكَ زائرٌ للهِ في بيته؟!

عبدَ اللهِ، هَلْ تَعلمُ أَنَّكَ إذا أتيتَ إلى المسجدِ فإنَّكَ في ضِيافةِ اللهِ في بيتِه؟!

عبدَ اللهِ، هَلْ تَعلمُ أَنَّكَ إذا أتيت إلى المسجِدِ فإنَّ اللهَ يَفرحُ بكَ، ويَتبشبَشُ إليكَ، كما يَفرحُ أهلُ الغائبِ بغائِبِهم إذا قدِمَ عليهم؟!

عبدَ اللهِ، هَلْ تعلمُ ماذا أَعَدَّ اللهُ لكَ مِنْ موائِدِ الإكرامِ والضِّيافةِ والعَطايا والهِباتِ إذا أَتيتَ إلى المسجِدِ؟!

هو حَديثُنا في سِياقِ هذه السِّلسلةِ المُبارَكةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فحديثُنا هو حديثُ سَلمانَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ وأَرْضاهُ، وهوَ عندَ الطبَرانيِّ في (مُعجمِه الكَبيرِ) قالَ فيهِ رَسولُنا ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى المَسْجِدِ** -أَوْ قالَ: **ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ**- **فَهُوَ**

زَائِرُ اللهِ، وَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ»[١].

المزورُ هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والزائرُ هو أنتَ يا عبدَ اللهِ، ومَكانُ الزِّيارةِ المسجِدُ، أطهرُ البِقاعِ وأحبُّ البِلادِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لذا قالَ عَمرُو بنُ ميمونٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يَقولونَ: «إنَّ بُيوتَ اللهِ في الأرضِ المساجِدُ، وإنَّ حقًّا على اللهِ أَنْ يُكرمَ مَنْ زارَهُ فيها»[٢].

إنَّ مَن في المساجد هم في ضِيافةِ اللهِ، ولنَتعلَّمِ الآنَ صنوفًا كَثيرةً منَ العَطايا والهباتِ، ومِنْ موائِدِ الرحمنِ لِمَنْ جاءَ إلى المسجِدِ؛ فهذا نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ فِي الجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»[٣] والغُدوُّ: هو أولُ النهارِ، والرواحُ: هو آخرُ النهارِ.

(١) المعجم الكبير (٦/ ٢٥٣، رقم ٦١٣٩)، وأخرجه موقوفا على سلمان: ابن أبي شيبة (١٩/ ١٨٩)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٧١).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢/ ٢)، والبيهقي في الشعب رقم (٢٦٨٢-٢٦٨٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل من غدا إلى المسجد أو راح، رقم (٦٦٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، رقم (٦٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومَوائدُ الإكرامِ هيَ:

المائدةُ الأُولى:

النورُ التامُّ يومَ القيامةِ، والعبدُ في يومِ القِيامةِ في حاجةٍ إلى هذا النورِ؛ لأنَّ في يومِ القِيامةِ ظُلمةً شَديدةً، بالأخصِّ على الصراطِ والعبدُ في حاجةٍ إلى النورِ ليُبصِرَ طريقَه، فانظُرْ إلى هؤلاءِ الَّذين سلَكوا الظلمةَ في الدُّنْيا يُعطيهِمُ اللهُ النورَ التامَّ يومَ القِيامةِ.

وفي (سُننِ ابنِ ماجَهْ) مِنْ حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَقولُ ﷺ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1] أهلُ الفجرِ وأهلُ العِشاءِ: أهلُ الظُّلمةِ، يُمكِنُ أَنْ يَتخلَّفوا! فلا يَعلمُ بِهِمْ أحَدٌ، لكنِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعطيهم مِنْ موائِدِ الإكرامِ والإنعامِ والألطافِ: يُعطِيهم النورَ.

المائدةُ الثانيةُ مِنْ موائِدِ الإكرامِ:

مَحْوُ الذنوبِ والخَطايا، هُنا في بيتِ اللهِ تُمحَى الذنوبُ والخَطايا، ففي بيتِ اللهِ تُمحَى تِلكَ الموبِقاتُ المُهلِكاتُ، وما أخبَرَنا بذلِكَ إلَّا رسولُ اللهِ ﷺ، ففي (صحيحِ مسلِمٍ) يَقولُ ﷺ: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى**

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة، رقم (٧٨١).

بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خُطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»[1]، إحداهُما تَحُطُّ خَطيئةً، والأُخرى تَرفعُ درَجةً؛ لذا فقِهَ الصحابةُ ذلكَ فكانَ أحَدُهم يُقارِبُ الخُطى ليَستثمِرَ فيه رفعَ الدرجاتِ ومَحوَ الذنوبِ والخَطايا والسيِّئاتِ.

بَـلِ هناكَ حديثٌ رواهُ الـتِّرمذيُّ في (سُـننِه) حديثُ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما -وهُو حديثٌ طويلٌ، حديثُ الرُّؤيا-، قالَ فيه ﷺ في آخِرِه قالَ: «وَفِي نَقْلِ الأَقْدَامِ إِلَى الجَمَاعَاتِ» يَعنِي: إلى المسجدِ «وَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ فِي المَكْرُوهَاتِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَمَنْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2]، هذا الَّذي يَنقلُ تلكَ الأقدامَ إلى الجماعاتِ، ويَنتظِرُ الصلاةَ بعدَ الصلاةِ، إذَنْ هو نورٌ تامٌّ ومَحوٌ للذُّنوبِ.

المائدةُ الثالثةُ:

الملائِكةُ تُسخَّرُ لكَ، فيا أيُّها المتحدِّثُ المردِّدُ: أنا أَشعرُ بالوَحْدةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، رقم (٦٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد(١/ ٣٦٨)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ص﴾، رقم (٣٢٣٤).

لأنَّ بعضَ الناسِ يَقولُ: أنا أَشعرُ بالوحدةِ، وأَشعرُ بالضيقِ، وأَشعرُ أنَّ العالَمَ هذا كلُّه ضِدِّي. أقولُ: إذا أَتيتَ إلى المسجدِ فإنَّ مِنْ موائِدِ الرحمنِ أنَّكَ لستَ وحدَكَ، بلِ الملائِكةُ تُسخَّرُ لكَ، قالَ نبيُّنا ﷺ -مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قالَ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ»[1].

فإذا كنت في مجلسِكَ تَنتظِرُ إقامةَ الصلاةِ، فإنَّ خَلْقًا مِنْ خَلقِ اللهِ العظيمِ الَّذين لم يَعْصوا اللهَ ما أَمَرَ أبدًا، هُمُ الذين يَقولون: اللهُمَّ اغفِرْ لفُلانٍ، اللهُمَّ ارحَمْ فُلانًا، اللهُمَّ تُبْ على فلانٍ. حتَّى تُقامَ الصلاةُ، قالَ: «وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ».

بَلْ حديثٍ آخرَ في (مُسندِ أحمدَ) يَقولُ فيه ﷺ: «إِنَّ لِلْمَسَاجِدِ أَوْتَادًا» وأَوتادُ المساجِدِ: رُوَّادُ المساجِدِ «الْمَلَائِكَةُ جُلَسَاؤُهُمْ، إِنْ غَابُوا يَفْتَقِدُونَهُمْ، وَإِنْ مَرِضُوا عَادُوهُمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ أَعَانُوهُمْ»[2]

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، رقم (٢١١٩)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم (٦٤٩/ ٢٧٢).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلَسْتَ وحدَكَ، وهذه مائِدةٌ مِنْ موائِدِ الإكرامِ.

مائِدةٌ رابِعةٌ مِنْ موائِدِ الإكرامِ:

وما أَعظمَ هذه المائدةَ! واللهِ إنَّ العبدَ كلَّما سمِعَ بهذا الحديثِ اشرَأَبَّ عنقُه فرحًا، ولِسانُه ذاكِرًا وحامِدًا، ففي (سُننِ أبي داودَ) مِنْ حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: يَقولُ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ» كلِّ فريضةٍ «وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فأجره كأجر المعتمر»[1] فكلُّ فريضةٍ يَخرُجُ إليها يُصلِّيها يُكتَبُ له في الأجرِ أجرُ حاجٍّ، وكلَّما خرجَ ليُصلِّيَ صلاةَ الضُّحى في المسجدِ كُتِبَ له أجرُ المعتمِرِ.

هذه مَوائدُ أربَعٌ مِنْ موائِدِ الرحمنِ جعَلَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ عمَرَ بيتَه بالذِّكرِ والصلاةِ، نعَمْ، هي موائدُ الرحمنِ، نورٌ تامٌّ، ومَحْوٌ للذنوبِ والخَطايا، وتَسخيرٌ للمَلائكةِ، وأجرٌ كأجرِ الحاجِّ المحرِمِ وكأجرِ المُعتمِرِ.

مائِدةٌ خامِسةٌ:

قَدْ لا تَكونُ تَخطُرُ على البالِ، لكنَّها منَ الكريمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَدْ

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨)، وأخرجه أيضا أحمد (٥/ ٢٦٨).

لا يَتصوَّرُها العقلُ لكِنَّها تُضَمُّ إلى موائدِ الرحمنِ لِمَنْ أَتَى إلى بيتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي مائِدةٌ أخبَرَ بها نبيُّنا ﷺ، والحديثُ عندَ أبي داودَ في (سُننِه) مِنْ حديثِ أَبِي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: يَقولُ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ رَاحَ» يَعنِي: إلى المسجِدِ «فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا» انتهَتِ الصلاةُ «أَعْطَاهُ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَاهَا وَحَضَرَهَا لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا»[1]، ما أَكرَمَكَ يا ربَّنا! جاءَ إلى المسجِدِ؛ لأنَّ عادتَه أَنْ يُصلِّيَ في المسجِدِ، جاءَ إلى المسجِدِ، حتَّ الخُطى، وأخذَ بالأسبابِ؛ لكِنْ فاتَتْه الصلاةُ فكتَبَ اللهُ لهُ أجرَ الجماعةِ، كتَبَ اللهُ له أجرَ مَنْ حضَرَها وصلَّاها وأَمَّنَ معَ إمامِها، وكبَّرَ بتكبيرِه، وسلَّمَ بتسليمِه، إنَّه فَضلُ الكريمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذَنْ حينَما يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «فَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ» فهذا صنفٌ مِنْ صُنوفِ الإكرامِ يَبسُطُها الرحيمُ الرحمنُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للوفدِ الَّذي يَفِدُ عليه في بيتِه، أَوْ في أيِّ بيتٍ مِنْ بُيوتِه.

o

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فيمن خرج يريد الصلاة فسبق بها، رقم (٥٦٤)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب حد إدراك الجماعة، رقم (٨٥٥).

(٢٥)

أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلاحُ ذَاتِ البَيْنِ

o

جاءَتْ شَريعةُ الإسلامِ بما يَجمعُ القلوبَ ويُؤلِّفُها، وشجَّعت على السعيِ في الإصلاحِ بينَ الناسِ، ورَتَّبَت على ذلكَ الأجرَ العظيمَ، بَلْ جعَلَتْه مِنْ أفضلِ الصدَقاتِ والطاعاتِ والقُرُباتِ إلى اللهِ.

فالإصلاحُ بينَ الناسِ عِبادةٌ عظيمةٌ، جَميلةُ القَدْرِ، فيها خيرٌ كثيرٌ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

والإصلاحُ بينَ الناسِ هو إزالةُ أسبابِ النزاعِ والخُصومةِ والفُرقةِ، والإتيانُ بأسبابِ المحَبَّةِ والتآلُفِ والمَوَدَّةِ.

والإصلاحُ بينَ الناسِ يَأتِي على رأسِ المكارِمِ، كما قالَ الأوَّلُ:

إِنَّ المَكَـــارِمَ كُلَّهَـــا لَـــوْ حَصَّـــلْتَهَا

رَجَعَـــــتْ كُلُّهَـــــا إِلَى شَـــــيْئَيْنِ

تَعْظِـــيمُ أَمْـــرِ اللهِ جَـــلَّ جَلَالُـــهُ

وَالسَّـــعْيُ فِي إِصْـــلَاحِ ذَاتِ البَـــيْنِ[1]

(١) البيتان لمحمد بن أيمن الرُّهاوي، انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٢/ ١٦٧).

حديثُنا موصولٌ بما قبلَه في هذِه السِّلسلةِ الطيِّبةِ المبارَكةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا هنا قولُ نبيِّنا ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ**» حديثٌ رواهُ الطبرانيُّ في (مُعجمِه الكبيرِ) مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١].

فعبادةُ إصلاحِ ذاتِ البينِ قيمةٌ أخلاقِيَّةٌ راقيةٌ، لا يَعرِفُها إلَّا مَنْ سلِمَ قلبُه منَ الغِلِّ والحسَدِ، ومِنَ الأَنا والأَثَرةِ.

والإصلاحُ بينَ الناسِ عِبادةٌ رغَّبَ فيها الشارعُ الحكيمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والآياتُ في ذلِكَ كثيرةٌ، يَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ النِّساءِ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء:٨٥].

يَقولُ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما -كما جاءَ في (تفسيرِ البغوي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «الشَّفاعةُ الحسَنةُ الإصلاحُ بينَ الناسِ، والشفاعةُ السيئةُ المشيُ بالنَّميمةِ بينَ الناسِ»[٢].

وفي سُورةِ النِّساءِ أيضًا يَقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ عَظيمةٍ:

---

(١) المعجم الكبير (١٣/ ٢٠، رقم ٣١).
(٢) تفسير البغوي (١/ ٦٦٨).

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ هذِه الأحاديثُ الَّتي بينَ الناسِ ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

وفي سُورةِ النِّساءِ أيضًا يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٢٩].

إنَّها عِبادةٌ مِنْ أعظَمِ العِباداتِ، رتَّبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها الأجرَ العَظيمَ، فقالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الأعرافِ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠].

فإذا التفَتَّ إلى سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ وجَدْت الترغيبَ أيضًا في هذه العِبادةِ، ويَكفِي في ذلكَ قولُه ﷺ للصحابةِ -كما جاءَ عندَ أبي داودَ مِنْ حديثِ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟!**» قالوا: بَلى. قالَ: «**إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ**»[1] فإصلاحُ ذاتِ البَيْنِ هو عِندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الأجرِ وفي الترتيبِ أفضلُ مِنْ نوافلِ الصِّيامِ والصلاةِ والصدَقةِ.

وفي (شُعبِ الإيمانِ) مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَقولُ ﷺ:

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، رقم (٤٩١٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق، رقم (٢٥٠٩).

«مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ وَخُلُقٍ حَسَنٍ»[١].

وفي حديثٍ ثالثٍ -والأحاديثُ كثيرةٌ- حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأَبي أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى عَمَلٍ يَرْضَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!» قال: بَلى. قالَ: «تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا، وَتُقَارِبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»[٢]، إنَّها عِبادةٌ مِنْ أجَلِّ العِباداتِ، والمجتمعُ في حاجةٍ لها؛ لأنَّه يَحيا بطَبيعةِ البشَرِ فتَحصلُ الخُصوماتُ بينَ الوالِدِ وولدِه، بينَ الأخِ وأخيهِ، بينَ الزوجِ وزوجِه، بينَ الأُسرةِ والأُخرى، وتَحصُلُ أسبابُ النزاعِ والخُصومةِ، فتَأتِي هذه العِبادةُ لتُزيلَ هذه الأسبابَ العالِقةَ في القُلوبِ.

وإذا تأَمَّلتَ في الميادينِ الَّتي يُحتاجُ فيها أَنْ تُبرزَ هذه العِبادةُ عِبادةُ إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ وجَدْتَها كثيرةً:

على رأسِ هذِه الميادينِ الإصلاحُ بينَ الراعِي والرعِيَّةِ:

أَيْ: أَنْ يُصلحَ العبدُ وأَنْ يَكونَ أداةَ إصلاحٍ بينَ الراعِي والرَّعيَّةِ،

---

(١) شعب الإيمان رقم (١٠٥٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٥٧، رقم ٧٩٩٩)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الطيالسي في مسنده رقم (٥٩٩)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٣٨٧)، من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبينَ الحاكِمِ والمحكومِ، لا أَنْ يَتحوَّلَ هذا العبدُ إلى أداةِ إفسادٍ بينَ الراعِي والرَّعيَّةِ، وأنتُم تَعلَمون ما يَنتجُ عَنْ عمَليَّةِ الإفسادِ بينَ الراعِي والرعيَّةِ، والواقعُ يَشهدُ.

ونبيُّنا ﷺ قَدْ أَخبَرَنا في ذاتِ الحديثِ قالَ: «**وَإِفْسَادُ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ. وَلَكِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ**»(١).

وانظُروا إلى المجتَمعاتِ الَّتي حصَلَ فيها إفسادٌ مُتعمَّدٌ بين الراعِي والرعِيَّةِ، بينَ الحاكمِ والمحكومِ كيفَ حُلِقَ المجتمعُ مِنْ أعظمِ ما يَحتاجُه -وهو الدِّينُ- وما حصَلَت فيه منَ الفِتنِ.

لذا أنتَ تَستغرِبُ حينما تَرَى بعضَ الإخوةِ منَ المُغرِضين منَ الكُتَّابِ حتَّى منَ الخُطَباءِ والوعَّاظِ، الَّذي يَدُقُّ على هذا المِسمارِ دائِمًا: بتَأليبِ المحكومِ على الحاكمِ، أوِ الرعِيَّةِ على الراعِي، وكثرةِ الحديثِ عنِ السيِّئِ في المجتمَعِ ولا تَرَى عينُه حسَنًا أبدًا، وهذا ليسَ بقريبٍ مِنْ هذه العِبادةِ عِبادةِ الإصلاحِ، فالإصلاحُ هوَ أَنْ تُزيلَ أسبابَ الاحتِقانِ والنِّزاعِ والفُرقةِ بينَ كلِّ مُتخاصِمَيْن، فهذا الَّذي يُوغِرُ صدرَ الحاكمِ على المَحكومِ، أوِ المَحكومِ على الحاكِمِ إنَّما يَسعَى في الإفسادِ، وسمَّاهُ النبيُّ ﷺ مُفسِدًا.

---

(١) ذكره الترمذي بإثر الحديث، رقم (٢٥٠٩).

ومِنْ ميادينِ الإصلاحِ: الإصلاحُ بينَ المُتخاصِمَيْن.

فكَمْ تَعرِفون مِنْ أخٍ بينَه وبينَ أخيهِ خُصومةٌ، بينَ صَديقٍ وصديقِه! فالدخولُ في هذه الخُصومةِ والإصلاحِ بينَ المتخاصِمَيْن هو مِنْ أعظمِ العِباداتِ، وانظُروا إلى أنَسٍ قالَ -جُملةٌ في غايةِ الرَّوْعةِ- قالَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ أعطاهُ بكُلِّ كلِمةٍ عِتقَ رَقبةٍ»[1] كلُّ كلِمةٍ يَقولُها في سبيلِ الإصلاحِ بينَ الاثنينِ لهُ أجرُ عِتقِ رَقبةٍ، ولا يُمكِنُ أَنْ يَقولَ أنسٌ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ هذا الأمرَ مِنْ تِلقاءِ نَفْسِه، لكنِ السببُ أنَّ هذَيْن المتخاصِمَيْن إذا ماتا على خُصومتِهما فالأمرُ شديدُ الخُطورةِ.

يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «لَا تَحِلُّ الهِجْرَةُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» انتبِهْ أيُّها المباركُ: إنْ كنتَ لا تَزالُ هاجِرًا لأخيكَ، أو لوالِدِكَ، أو لولَدِكَ، أو لزوجتِكَ «لَا تَحِلُّ الهِجْرَةُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ فَإِنِ التَقَيَا فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ وَرَدَّ عَلَيْهِ الآخَرُ السَّلَامَ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ، وَإِنْ أَبَى الآخَرُ أَنْ يَرُدَّ السَّلَامَ بَرِئَ هَذَا مِنَ الإِثْمِ، وَبَاءَ بِهِ الآخَرُ، وَإِنْ مَاتَا وَهُمَا مُتَهَاجِرَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الجَنَّةِ»[2]، فأنتَ -أيُّها المصلِحُ- عمَلُكَ عَظيمٌ حينَما تُنقذُ هذَيْن المُتخاصِمَيْن

(١) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين (ص:٥٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٨٩٣٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وتُزيلُ أسبابَ الخُصومةِ بينَهما، ولكَ الأجرُ العَظيمُ.

ومِنْ ميادينِ الإِصلاحِ: الإصلاحُ بينَ الزوجِ وزوجِه.

فيَكونُ العبدُ مُصلِحًا، يَسعَى في إصلاحِ ما وقَعَ في هذِه الأُسرةِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكَّدَ على هذا الأمرِ في أكثرَ مِنْ موضِعٍ في كِتابِه الكريمِ، قالَ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:٣٥].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٢٩].

ومِنْ ميادينِ الإصلاحِ: الإصلاحُ الَّذي يَقَعُ عندَ تَخاصُمِ الورَثةِ.

وقَدْ يَكونُ السببُ في ذلكَ المُوصِيَ، وكَمْ سمِعْنا وشاهَدَ بعضُكم بعضَ الخصوماتِ تَحصُلُ قبلَ أَنْ يُدفنَ الميتُ على التركةِ، فهذا الميتُ بينَ أيدِيهِم قبلَ أَنْ يُدفنَ في المقبرةِ تَحصلُ الخُصومةُ على أَجزاءٍ منَ التركةِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالَ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٨٢].

يقولُ نبيُّنا ﷺ -والحديثُ عندَ ابنِ ماجَهْ في (سُننِه)- مِنْ حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ»[1]، إنَّ هذا الحديثَ يُبشِّرُنا فيه نبيُّنا ﷺ بطُوبَى وهو الخيرُ الكبيرُ لِمَنْ كانَ سببًا ومِفتاحًا لأبوابِ الخيرِ ومِغلاقًا لأبوابِ الشرِّ.

وأَنا هُنا أَدعو إخواني على مُستوَى الأفرادِ، أو على مُستوَى المُؤسَّساتِ المَدنيةِ أوِ الرَّسميةِ أَنْ يُوجَدَ في مُجتمعاتِنا أشبهُ ما تكونُ بالجمعياتِ الَّتي تُعنَى بالإصلاحِ بينَ الناسِ، أَتمنَّى أَنْ أَرَى في كلِّ مُحافَظةٍ مِنْ مُحافظاتِنا جِهةً للإصلاحِ بينَ الناسِ حتَّى يَخِفَّ عدَدُ القَضايا الَّتي تُعرَضُ على المحاكمِ الشرعيَّةِ وغيرِها، وتَصِلُ قنواتُ الإصلاحِ هذِه إلى العبدِ قبلَ أَنْ يَصِلَ إليها، وتَكونَ سببًا في الإصلاحِ بينَ المتخاصِمَيْن، ولا شكَّ أنَّ مَنْ سيُبادرُ سواءٌ على المُستوَى الشخصيِّ، أو على المُستوَى الرسمِيِّ مَنْ يُبادرُ للأخذِ بزِمامِ هذا الأمرِ لا شَكّ أنَّه مُبشَّرٌ بطوبَى الَّتي بشَّرَ بها نَبيُّنا ﷺ.

o

(١) سنن ابن ماجه: المقدمة، باب من كان مفتاحا للخير، رقم (٢٣٧).

(٢٦)

إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ

o

يَتواصَلُ حديثُنا في هذه السلسلةِ المبارَكةِ مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ، فيَقولُ في هذا الحَديثِ الَّذي رواهُ أحمدُ في (مُسندِه) مِنْ حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ ، يَقولُ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[1].

والدُّنيا دارُ مَمرٍّ وليسَتْ بدارِ مقرٍّ.

والدُّنيا لا يَركَنُ إليها ولا يفرحُ ولا يَغترُّ بها إلَّا جاهلٌ بحَقيقتِها.

والدُّنيا مَطيَّةٌ للآخِرةِ، وإذا أَرَدْت أَنْ تَتعرَّفَ عليها وتَعرفَ حقيقتَها دونَكَ كِتـابَ اللهِ وسُنةَ رسولِه ﷺ، فقَدْ جـاءَتِ الأحاديثُ والآياتُ تَترَى في بَيانِ حَقيقةِ الدُّنيا، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ

(١) مسند أحمد (٣/ ٢٢)، وأخرجه أيضا مسلم: كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٤٢).

ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

[يونس:٢٤-٢٥].

عرَفَ البعضُ حقيقةَ الدُّنْيا فتَجنَّبوها، ولم يَغترُّوا بها، كما قالَ الأوَّلُ:

إِنَّ للهِ عِبَـــــادًا فُطَنَـــــا ... طَلَّقُـوا الـدُّنْيَا وَخَـافُوا الفِتَنَـا

نَظَـرُوا فِيهَـا فَلَـمَّا عَلِمُـوا ... أَنَّهَا لَيْسَـتْ لِـدَارِ حَـيٍّ سَـكَنَا

جَعَلُوهَـا لُـجَّةً وَاتَّخَـذُوا ... صَالِحَ الأَعْـمَالِ فِيهَـا سُـفُنَا[1]

يَقولُ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ -رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ وعَنْ والِدِه عُمرَ-: أخذَ رَسولُ اللهِ ﷺ بمَنكِبي وقالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وكانَ ابنُ عمرَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُما يَقولُ: «إذا أَمسيتَ فلا تَنتَظِرِ الصباحَ، وإذا أصبَحْتَ فلا تَنتظِرِ المَساءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ،

(١) نسبها البعض لمحمد بن الوليد الطرطوشي، انظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص:٢٤٣)، والصلة لابن بشكوال (ص:٥٤٥)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢٦٢).

ومِنْ حياتِكَ لموتِكَ»[١]، هذه هي الدُّنْيا، كلُّ الدُّنيا بكواكِبِها بنُجومِها بمَجراتِها، بما نَرى مِنْ أَنهارِها وأَشجارِها وأزهارِها ومُدُنِها، كلُّها لا تُقارَنُ أبدًا بالآخِرةِ.

يَقولُ حبيبُنا ﷺ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَرَجُلٍ وَضَعَ إِصْبَعِهِ فِي اليَمِّ»، أَيْ: في البحرِ «ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَيْهِ فَمَا أَخَذَ مِنْهُ؟!»[٢] أي: ماذا أُنقصَ مِنْ ماءِ البحرِ بهذا العملِ.

الدُّنيا هي دارُ مَمرٍّ، وما نَراهُ اليومَ مِنْ هذه الخصوماتِ، ومِنْ هذا الهجرِ، ومِنْ هذا اللهاثِ على هَذه الدُّنْيا إلَّا على هذا الشيءِ اليَسيرِ الَّذي لا يُقارَنُ بما عِندَ اللهِ في الآخِرةِ.

وما نَراهُ مِنْ حسَراتٍ على فواتِ جُزءٍ منَ الدُّنْيا إلَّا جهلًا بحقيقةِ الدُّنيا؛ لذا قيلَ:

النَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ
أَنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب**»، **غريب**»، رقم (٦٤١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، ومسلم بنحوه: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٨)، من حديث المستورد بن شداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَا دَارَ لِلْمَـــرْءِ بَعْـــدَ المـــوتِ يَسْـــكُنُهَا

إِلَّا الَّتِـــي كَـــانَ قَبْـــلَ المـــوتِ بَانِيهَـــا

فَـــإِنْ بَنَاهَـــا بِخَـــيْرٍ طَـــابَ مَسْـــكَنُهُ

وَإِنْ بَنَاهـــا بِشـــرٍّ خَـــابَ بَانِيهَـــا[1]

يَقولُ الخليفةُ الراشدُ عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيا ارْتَحَلَتْ مُدبرةً، والآخِرةُ مُقبلةٌ، ولكلٍّ واحِدةٍ منها بَنونَ، فكُونوا مِنْ أبناءِ الآخِرةِ، ولا تَكونوا مِنْ أبناءِ الدُّنْيا، اليومَ عمَلٌ ولا حِسابٌ، وغَدًا حسابٌ ولا عملٌ»[2].

ويُبيِّنُ الخَليفةُ الراشِدُ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنا حَقيقةَ الدُّنْيا يَقولُ: «أَلا إنَّ الدُّنيا بَقاؤُها قليلٌ، وعَزيزُها ذَليلٌ، وغنيُّها فقيرٌ، شبابُها يَهرمُ، حيُّها يَموتُ، فلا يَغُرَّنَّكم إقبالُها معَ مَعرفتِكُم بسُرعةِ إدبارِها، والمغرورُ مَنِ اغتَرَّ بها يَقولُ: أينَ سُكَّانُها الَّذين بنَوْا مَدائنَها، وشقُّوا

(١) نسبها ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (٩/ ٤٠٧١) لسابق بن عبد الله البربري، ونسبها بهاء الدين العاملي في الكشكول (٢/ ٧٧) لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وانظر: ديوان علي بن أبي طالب (ص:٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، (٨/ ٨٩) معلقا، ووصله ووصله ابن المبارك في الزهد (١/ ٨٦، رقم ٢٥٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٩/ ١٥٣)، وأبو داود في الزهد رقم (١٠٦).

أنهارَها، وغرَسوا أشجارَها»[١].

إِنَّـــمَا الـــدُّنْيَا فَنَـــاءٌ ... لَـــيْسَ لِلـــدُّنْيَا ثُبُـــوتْ
إِنَّـــمَا الـــدُّنْيَا كَبَيْـــتٍ ... نَسَـــجَتْهُ العَنْكَبُـــوتْ
وَلَقَـــد يَكْفِيـــكَ مِنْهَـــا ... أَيُّهَـــا الطَّالِـــبُ قُـــوتْ[٢]

والدُّنْيا مَنْ أَحبَّها وشُغِفَ بها عُذِّبَ بها، وحُبُّ الدُّنْيا المذمومُ هو الَّذي يَكونُ على حِسابِ الآخِرةِ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

فمَحبَّةُ الدُّنْيا الَّتي لا تَكونُ بخَسارةِ الآخِرةِ لا شيءَ فيها، لكَ أَنْ تُحِبَّ فيها والدَيْكَ، أو زَوجتَك، أو أولادَك، ولكَ أَنْ تَلبَسَ فيها، وأَنْ تَشربَ مِنها، وأَنْ تأكلَ، لكِنْ كلُّ ذلك بالحَلالِ ليسَ على حِسابِ الآخِرةِ، وإذا أرَدْتَ أَنْ تُخرجَ شهوتَكَ فتزوَّجْ فيها، فالنفسُ قَدْ فُطِرَت على ذلِكَ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٦١- ٢٦٢).
(٢) انظر: تاريخ بيهق (ص:٥١٤)، الكشكول (٢/ ١٧٦)، مجاني الأدب (١/ ١٣)، غير منسوبة. وهي في ديوان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص:٥٤).

ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

إنَّ مَنْ أحبَّ الدُّنيا على حِسابِ الآخِرة، أحبَّ الدُّنْيا فأكَلَ الحرامَ، ووقعَ في الزِّنا، ولبِسَ الحرامَ وشربَ الحرامَ وأكلَ الحرامَ وتعاطَى بالحرامِ.

فمَنْ أحبَّ الدُّنْيا فسَدَ حالُه في الدُّنْيا والآخِرةِ، يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ ﴾ [التوبة:٨٥] هذه الَّتي تَراها ويَتمتَّعون بها. ويَقولُ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥].

فهَذه الدُّنْيا مُحِبُّها يُعذبُ بها في الدُّنْيا، يُعذبُ بتَحصيلِها، وبالحسرةِ على فواتِها، ويُعذبُ في قبرِه، ويُعذبُ عندَ لِقاءِ ربِّه عِندما يُحاسَبُ عليها.

وهَهُنا ثلاثةُ مَخاطرَ انتَبِهوا لها -وإنِّي أُنبِّه نَفْسي وإيَّاكم إليها- فمَنْ أحبَّ الدُّنْيا وتَعلَّقَ بها على حِسابِ الآخِرةِ وقعَ في **ثلاثةِ مَحاذيرَ**:

المَحذورُ الأوَّلُ:

همٌّ دائمٌ وفَقرٌ لازِمٌ وحسرةٌ لا تَنقَضي، هذا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، يَقولُ كما جاءَ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عِندَ التِّرْمذيِّ-: «**وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»، بخلافِ الأوَّلِ «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»[1]، فيَحذَرُ العبدُ كلَّما ازدادَ في تطلبِ الدُّنْيا على حسابِ الآخِرةِ حصَلَتْ له هذه المَفسدةُ العظيمةُ: فقرٌ دائمٌ، وهمٌّ لازمٌ، وحسرةٌ لا تَنقَضي.

المحذورُ الثانِي -وهو خطيرٌ-:

مَنْ أحبَّ الدُّنْيا هذا الحبَّ المَنوعَ المذمومَ كانَ ذلكَ عَلى حِسابِ دِينِه، فتَذهَبُ القيَمُ الَّتي كانَ يُنادِي بِها، وتَطيشُ المبادئُ والثوابتُ الَّتي كانَ يُنادِي بها، فإذا تَزيَّنَت له الدُّنْيا، وزُخرِفَت له الدُّنْيا، يَبيعُ دِينَه بعرضٍ منَ الدُّنْيا قليلٍ، هذا قالَه رسولُ اللهِ ﷺ، فقد جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ) مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ**

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٦٥).

فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[١]، يَبيعُ دِينَه والمبادئَ الَّتي كانَتْ عندَه، فقد كانَ في يومٍ منَ الأيامِ يَقولُ عَنْ هذا: حرامٌ. ويَقولُ عَنْ هذا: لا يَجوزُ. والآنَ ترَكَ هذا الكلامَ، والسببُ أنَّه زُخرِفَت له الدُّنْيا، فباعَ الدِّينَ بهذه الدُّنيا اليَسيرةِ، أو رُبَّما قامَ على خِداعِ الناسِ باسمِ الدِّينِ، وبلِباسِ الدِّينِ، وبكلِماتِ الدِّينِ، فخدعَ الناسَ والناسُ يُحِبُّون الدِّينَ ويُحِبُّون المُتديِّنين.

لذا قالَ الفُضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلِمةً في غايةِ الروعةِ قالَ: «لأَنْ آكُلَ الدُّنْيا بالطبلِ والمِزمارِ أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ آكُلَ الدُّنيا بدِينٍ»[٢]؛ لأنَّه عرَفَ حقيقةَ الأمرِ وخُطورتَه.

ولذا وقَفَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينَ يدَيْ أُستاذِه رَبيعةَ الرأيِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقالَ له الأستاذُ: يا مالكُ مَنِ السفلةُ؟ قالَ: «مَنْ أكلَ بدِينِه»، قالَ: مَنْ سفلةُ السفلةِ؟ قالَ: «مَنْ أَصلحَ دُنْيا غيرِه بفَسادِ دِينِه»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٦٥٣٠).

(٣) أخرجه ابن المقرئ في معجمه رقم (٤٧٢)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٥٣٣).

إِذَنِ: العاقلُ هو الَّذي يُعيدُ قراءةَ ما جاءَ مِنْ آياتٍ وأحاديثَ في حقيقةِ الدُّنْيا حتَّى يَأخذَ مِنها بالقَدْرِ الصحيحِ، ولا تَهربَ به إلَى المهاوِي والفِتَنِ.

المَحذورُ الثالثُ:

احذَرْ أَنْ تَجعلَها لكَ غايةً، خاصةً في أمرِكَ الَّذي تَتقرَّبُ فيه إلى اللهِ، أي عمَلٍ فيه تَتقرَّبُ إلى اللهِ، فإذا صلَّيْتَ فلا تَجعَلْ الغايةَ الدُّنْيا، وإذا تَصدَّقْت أَوْ زكَّيْت لا تَجعَلْ غايتَكَ الدُّنْيا، وإذا قُمتَ خَطيبًا أو مُؤذِّنًا أو إمامًا أو واعِظًا أو مُربِّيًا فلا تَجعَلْ غايتَكَ الدُّنْيا، وإذا ابتسَمْتَ لفلانٍ فلا تَجعَلْ غايتَك الدُّنْيا؛ لأنَّها لا تَستحِقُّ أَنْ تَكونَ غايةً، هي فقَطْ مَطيَّةٌ ووَسيلةٌ إلى الغايةِ البَعيدةِ الآخِرةِ.

قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يَعنِي: الدُّنْيا، أي: مَنْ كانَ يُريدُ بعمَلِه وإحسانِه ومَعروفِه وعَطائِه، الَّذي يُريد العاجِلةَ ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ﴾ أي: جعَلَ الغايةَ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

إِذَنْ على العبدِ أَنْ يُبصِرَ حَقيقةَ الدُّنْيا، ويَعرفَ هذه المحاذيرَ الثلاثَ.

o

(٢٧)

إِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ

o

يَتواصَلُ حديثُنا في هذه السِّلسلةِ المبارَكةِ مِنْ جوامِعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا هنا هو ما رَواهُ الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحِه): أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[1].

فالكذبُ عملٌ مَرذولٌ، وصِفةٌ ذميمةٌ، وخِصلةٌ مِنْ خِصالِ النفاقِ، وشُعبةٌ مِنْ شُعبِ الكُفرِ.

والكذِبُ هو إخبارٌ بخِلافِ الواقعِ، سَواءٌ كانَ بالقولِ، أو بالفِعلِ، أَوْ بالإشارةِ، أَوْ بالكِتابةِ، أو غيرِ ذلِكَ.

والكذِبُ وَظيفةٌ، وهيَ وَظيفةُ الكذَّابِ، فالكذَّابُ وَظيفتُه قلبُ الحقائِقِ، وتَزييفُ الوقائِعِ، وبيعُ الوهمِ.

والكذَّابُ لا يَميلُ إليهِ ولا يُجالِسُه إلَّا مَنْ شاكَلَه، فالنفوسُ الأَبيَّةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والفِطَرُ السويَّةُ والصادِقونَ لا يُحِبُّون الكاذبَ؛ لذا قالَتِ العربُ قديمًا: «مَنْ قَلَّ صِدقُه قلَّ صَديقُه» فلا يُصادِقُه إلَّا مَنْ شاكَلَه، كما قيلَ: «وطيرُ السماءِ على شَكْلِه يَقَعُ».

والكذَّابُ مِنْ أعظمِ المصائِبِ في الأُمَّةِ، وبالأخصِّ إذا كانَتْ حوائجُ الأُمَّةِ ومَصالحُ الأُمَّةِ عندَه بينَ يَديْهِ؛ لذا قيلَ في الأمثالِ والحِكَمِ: «لا تَطلُبِ الحوائجَ مِنْ كذَّابٍ، فإنَّه يُقرِّبُها وإنْ كانَتْ بَعيدةً، ويُبعِدُها وإنْ كانَتْ قَريبةً».

وكانَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَكتبُ إلى المَسؤُولينَ عندَه وإلى عُمَّالِه رسائلَ مَحفوظةً إلى اليومِ، يَكتُبُ فيها لهذا العامِلِ: «إيَّاكَ أَنْ تَستعينَ بكذوبٍ، فإنَّكَ إنْ تُطعِ الكذوبَ تَهلِكْ»[1].

والكذِبُ له في واقِعِنا وفي مُجتَمَعاتِنا وفي تَعامُلاتِنا له صورٌ مُتعدِّدةٌ، ومِنْ صُورِه:

الصُّورة الأولى: الكذِبُ على اللهِ، والكذبُ على رسولِ اللهِ ﷺ.

فالإنسانِ الَّذي يَقولُ للشيءِ الحلالِ: هذا حرامٌ، هذا كاذبٌ على اللهِ، الَّذي يَقولُ للشيءِ الحرامِ: هذا حَلالٌ، هذا كاذبٌ على اللهِ، والدليلُ نَقرؤُه

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق رقم (١٤١).

جميعًا في سورةِ النحلِ يَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

فهذا الَّذي يُغيِّرُ الشرعَ، ويَتلاعَبُ بالشرعِ ليُرضِيَ فُلانًا، أو يُرضِيَ فُلانةً مِنْ أَجلِ بعضِ مَصالحِ الدُّنْيا، وبعضِ فُتاتِها، ومِنْ أَجلِ أَنْ يُقرَّب ويُدنَى فيَتلاعَبُ بالأحكامِ ويَقولُ: هذا يَجوزُ، وهذا مُمكنٌ، وهذا جائِزٌ. وهو يَعلمُ يَقينًا حُرمةَ ذلكَ، فإنَّه يَتقوَّلُ على اللهِ كذبًا، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأنِ هَؤلاءِ الَّذين يَكذِبونَ على اللهِ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠].

كَذا الَّذي يَكذبُ على رَسولِ اللهِ ﷺ ويَقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ، وهو يَكذبُ، أو لا يَعلمُ أَنَّه يَكذبُ، وإنَّما ابتُلينا في مِثلِ هذه الأزمِنةِ المُتأخِّرةِ بهذِه الوَسائلِ الَّتي هي نِعمةٌ فجعَلْناها نِقمةً، يَأتيهِ الخبرُ ويَقولُ له المُرسلُ: انشُرْ هذا الخبرَ، هذا حديثٌ عَنْ رسولِ اللهِ، وهو حديثٌ كذِبٌ، أو حديثٌ موضوعٌ، أو حديثٌ مُنكَرٌ، فيَنشُرُه؛ خاصَّةً إذا كَتَبَ المُرسِلُ: أمانةٌ في رقبتِكَ إلى يومِ القِيامةِ أَنْ تُرسِلَ هذا الأمرَ!.

قالَ حبيبُنا ﷺ في حديثِ المُغيرةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ البُخاريِّ-: «إِنَّ

كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]، فلا تَقُلْ: قال رَسولُ اللهِ. وأنتَ لا تعلَمُ، ولا تُرسِلْ هذا الحديثَ وأنتَ لا تَعلمُ صِحَّته ولا يَضُرُّكَ شيئًا، لكنِ الضررُ الكبيرُ لو أَرسَلْتَه وهو كذِبٌ على رسولِ اللهِ ﷺ.

وبعضُ أصحابِ البِدَعِ وما أَكثرَهُم! يَعلَمون أنَّ هذا الحديثَ كذِبٌ ولكِنْ يَقولونَ: نُريدُ أَنْ يَنصلِحَ حالُ الأُمَّةِ، سُبحانَ اللهِ! يَقولُ بعضُهم: أَعلمُ أنَّ هذا الكلامَ غيرُ صَحيحٍ، وأعلمُ أنَّ هذا في دائِرةِ البِدَعِ، وأَعلمُ أنَّ هذا لم يَفعَلْه رسولُ اللهِ ﷺ! لكِنْ حتَّى نُصلِحَ حالَ الأُمَّةِ نَرُدُّها عَنْ غيِّها وضَلالِها.

وأَقولُ: سبحانَ اللهِ! بالكذبِ على رسولِ اللهِ ﷺ الذي يقولُ: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» هذه الصورةُ الأُولى الكذِبُ على اللهِ ورسولِه.

الصورةُ الثانيةُ: الكذِبُ في البيعِ والشراءِ.

فالكذبُ عندَ الَّذي يَبيعُ، والكذبُ عِندَ الَّذي يَشتري، والأحاديثُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم: في مقدمة الصحيح، باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤).

في ذلكَ كَثيرةٌ جِدًّا، منها ما رَواهُ الإمامُ أحمدُ في (مُسندِه) مِنْ حديثِ أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: يَقولُ ﷺ: «اليَمِينُ الكَاذِبَةُ» يَحلِف يَقولُ: واللهِ العَظيمِ، إنَّني أُعطِيتُ فيها كذا، واللهِ العظيمِ إنَّها سَليمةٌ، واللهِ العظيمِ إنَّني اشتَرَيْتُها بكذا. وهو يَكذِبُ، قال: «اليَمِينُ الكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» يَعنِي: ستَذهَب السِّلعةُ، فهذا العقارُ الَّذي كذَبْت أنَّه صالحٌ سيَذهَبُ سيَشتَريه المِسكينُ، فهذا «اليَمِينُ الكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ» ولكِنْ «مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ»، وفي رِوايةٍ: «مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ»[1].

يَقولُ حبيبُنا ﷺ في حديثِ أَبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ مُسلمٍ-: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ» يَعنِي: يَشهدُ زورًا باليَمينِ، يَقولونَ له: نُريدُ منكَ أَنْ تَشهدَ أنَّ فُلانًا تُوفِّيَ عَنْ زوجةٍ واحِدةٍ. وهو مُتوفًّى عَنْ زَوجتَيْنِ، قالوا: اشهَدْ شهادةَ زورٍ. فيَشهدُ، يَقولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ» يَعنِي: بالحلِفِ كاذبًا «فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» قالَ قائلٌ: يا رَسولَ اللهِ، وإِنْ كان شيئًا يسيرًا؟ قالَ: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[2] وإِنْ كان عودَ مِسواكٍ ، أَوجبَ اللهُ له النارَ

(١) مسند أحمد (٢/ ٢٣٥)، وأخرجه أيضا البخاري: كتاب البيوع، باب ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾، رقم (٢٠٨٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع، رقم (١٦٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم، رقم (١٣٧).

وحرَّمَ عليه الجَنَّةَ.

ويَقولُ حبيبُنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثِ حَكيمِ بنِ حزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ البُخاريِّ- قالَ: «**البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ**» يَعنِي: البائِع والمُشتَري «**مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[(١)].

وفي (صحيحِ مُسلمٍ) يَقولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، قالَ أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رَسولَ اللهِ خابوا وخسِروا، مَنْ هُم يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: «**المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ**»[(٢)].

والأحاديثُ في ذلِكَ كثيرةٌ، وهيَ صورةٌ مِنْ صُورِ الكذِبِ.

الصورةُ الثالِثةُ: الكذبُ لإضحاكِ الناسِ.

وقديمًا كانَ المجلسُ صغيرًا يُضحِكُ العشَرةُ الَّذين معَه، والآنَ يَكذبُ الكذبةَ فتَبلغُ الآفاقَ؛ ليُضحِكَ مُتابِعيه مِئتَيْ أَلْفٍ أو ثلاثِ مِئةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما، رقم (٢٠٧٩)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ألفٍ عبرَ مواقِعِ التواصُلِ، فيَكذِبُ في قولِه، ورُبَّما يَكذِبُ في تَغريدتِه، أَوْ يَكذِبُ في مَقطَعٍ تَمثيليٍّ فقَطْ ليُضحِكَ الناسَ.

قالَ حبيبُنا ﷺ: «وَيْلٌ» هذه الويلُ الأُولَى «لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ»[1]، يَتكرَّرُ الوعيدُ بالويلِ ثلاثَ مرَّاتٍ لهذا الإنسانِ الَّذي يَقولُ: نُريدُ أَنْ نَضحَكَ ونوسِّع صُدُورنا! يُقالَ لَهُ: اضحَكْ وامزَحْ لكِنْ لا تَكذِبْ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ يَقولُ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَهُ!».

قالَ بعضُ العُلماءِ: «وَيلٌ: وادٍ في جهنَّمَ لو سُيِّرَت فيه جِبالُ الدُّنيا لذابَتْ مِنْ حَرِّه» عُقوبةً لهذا الإنسانِ الَّذي يَكذبُ ليُضحِكَ فلانًا، سواءٌ في مجلِسٍ أو في غيرِه منَ المَواقِعِ.

الصورةُ الرابِعةُ: الحديثُ بكُلِّ ما يَسمَعُ، وكلِّ ما يَقرَأُ.

وكلِّ ما تَقَعُ عليه عينُه يُحدِّثُ بِهِ، فلا يَتأكَّدُ مِمَّا يَقولُ، ولا يُفكِّرُ هَلْ هُناكَ مَصْلحةٌ أَصلًا مِنْ هذا الكلامِ حتَّى أقولَه وإِنْ كانَ صحيحًا.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحبيبُنا ﷺ يَقولُ: «كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا» سمَّاه كذِبًا «أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[(١)]، فلا تُحدِّثْ بكلِّ ما تَسمَعُ، ولا تَغترَّ أَنْ تَكتبَ في بِدايةِ رِسالتِكَ: حسبَ ما وصَلَني. فهذا لا يَرفعُ عنكَ الحرَجَ، ولا يَرفَعُ عنكَ الإثمَ، هذا الَّذي نَأخُذُه ثُمَّ نُرسِلُه قد يَمَسُّ أعراضَ الآخَرينَ، وقَدْ يَمسُّ أمنَ البِلادِ، وقَدْ يَضُرُّ بالمُجتمَعِ، فلِماذا تُرسِلُه؟ ولماذا تُريدُ أَنْ يَكونَ لكَ السبقُ؟!

خاصَّةً في هذه الأزمِنةِ المُتأخِّرةِ، وهَذه النفوسُ المَشحونةُ، وهُناكَ مَنْ يَشحنُ هذه النفوسَ ويُريدُ لها الاضطرابَ، ويُريدُ لها أَنْ تَعيشَ في الفوضَى، يَختلِقُ بعضَ الرسائِلِ غيرَ صَحيحةٍ، فتَأتيهِ فيُرسِلُها، فأَقولُ: لا تُرسِلْها، دَعْها تَنتَهي عِندكَ، وتَموتُ بينَ يديكَ، فـ«كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

الصورةُ الخامِسةُ: الكذبُ في الانتِسابِ إلى غيرِ الآباءِ.

وهي صُورةٌ مِنْ صوَرِ الكذبِ، أَنْ يَقولَ: أنا ابنُ فلانٍ. أو أَنْ يَقولَ: هذا ابني. أو أَنْ يَقولَ: أنا مِنْ قبيلةِ كذا، أو هذا مِنْ قبيلتي.

فالانتِسابُ إلى غيرِ الآباءِ وإلى غيرِ العوائلِ صُورةٌ من صُوَرِ الكذِبِ،

(١) أخرجه مسلم: في مقدمة الصحيح، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم (٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ابتُلِينا بها في هَذه الأزمِنةِ المُتأخِّرةِ على مَرأًى ومَسمعٍ مِنْ صاحبِ القَرارِ الَّذي يَفرحُ بهذه الفوضَى، أَنْ تَتلاعَبَ الناسُ بالأنسابِ، فيُصبِحُ عندَنا بعدَ جِيلَيْن أو ثلاثةِ أجيالٍ أنسابٌ ضائعةٌ، وهذه مُصيبةٌ، والسكوتُ عنها اليومَ مُصيبةٌ، وصاحبُ القرارِ حينَما يَسكتُ يَتحمَّلُ الإثمَ، فإذا سأَلْتَني: ما هو الإِثمُ؟

قُلتُ: الأحاديثُ في ذلكَ كثيرةٌ وكلُّها تَخلعُ القلبَ:

الحَديثُ الأوَّلُ:

في (مُسندِ الإمامِ أحمدَ): يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»، يَدخلُ في ذلكَ المسؤولُ الَّذي يَسمحُ بهذا القرارِ «وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ قَدْرِ سَبْعِينَ عَامًا، أَوْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًّا»[1] مِنْ سَبعينَ عامًا لم يَرِحْ رائحةَ الجَنَّةِ! فهذا الَّذي يأخذُ بعضَ الأطفالِ مَجهولِي الهُويةِ ويَنسُبُهم إلى نفسِه، ويَقولُ: فلانُ بنُ فلانٍ. أو يَنتسِبُ إلى قَبيلةٍ ليسَ منها يَشمَلُه هذا الحديثُ.

الحَديثُ الثَّاني:

في (صحيحِ البُخاريِّ) يَقولُ نبيُّنا ﷺ -وهو خطيرٌ-: «مَنِ ادَّعَى

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧١)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ فَالجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»[١] نظَرْتُمُ الخطورةَ «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ» كأَنْ يَشهدَ أو يَقولَ: هذا صاحِبُنا. فتَختلطُ الأنسابُ وتَضيعُ الأنسابُ.

الحديثُ الثالثُ:

قالَ ﷺ -وهذا حَديثٌ خطيرٌ في (سُننِ ابنِ ماجَهْ) من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُما-: «مَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ» والبعضُ قَدْ يَتحايَلُ على قوانينِ البلادِ، ويَدخُلُ باسمِ عمِّه على أنَّه أبوهُ، أو يَدخلُ باسمِ خالِه على أنَّه أبوهُ، ويَتحايلُ على هذه القوانينِ المَوْجودةِ. قالَ: «مَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٢]، يَعيشُ في هذه اللعنةِ المُتتابِعةِ مِنَ اللهِ ومَلائكتِه والناسِ أَجمَعينَ.

إِذَنِ: الكذبُ صورُه مُتعدِّدةٌ، والعاقلُ مَنْ نأَى بنَفْسِه عَنْ جميعِ هذه الصورِ، وسأَلَ اللهَ الإِعانةَ على أَنْ يَكونَ منَ الصادِقينَ.

o

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٢٦- ٤٣٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه، رقم (٦٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٨)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من ادعي إلى غير أبيه، رقم (٢٦٠٩).

(٢٨)

الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ

o

نِداءٌ إلى كلِّ مَكروبٍ ومَلهوفٍ ومَحزونٍ.

نِداءٌ إلى كلِّ مَريضٍ ومُصابٍ ومُبتلًى، إلى أهلِ الحاجاتِ والكُرباتِ والآهاتِ.

نِداءٌ إلى مَنْ ضاقَتْ عليه السبُلُ، وأُغلِقَتْ دونَه الأبوابُ.

إلى هَؤلاءِ جميعًا أقولُ:

يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

إلى هؤلاءِ جميعًا أَقولُ:

يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

إلى هَؤلاءِ جميعًا أقولُ:

يَقولُ رسولُ الهُدَى ﷺ الَّذي لا يَنطقُ عنِ الهَوَى: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ**

فَاقَةٌ» أَيْ: حاجةٌ وعوزٌ «فَأَنْزَلَها بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَها بِاللهِ فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»[(١)].

حديثُنا يَتواصَلُ في جوامعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا هنا ما جاءَ في (سُننِ أبي داودَ) مِنْ حديثِ النعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقولُ ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»[(٢)].

فالدُّعاءُ عِبادةٌ تَتقرَّبُ فيها إلى اللهِ، فكُلَّما قُلتَ: يا اللهُ، وسأَلْتَ حاجتَكَ، وطلَبْت رغبتَكَ، فأنتَ مُتلبِّسٌ بعِبادةٍ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وللدُّعاءِ أسبابٌ:

■ **منها: أنَّه يُستدفَعُ به البلاءُ، ويُرَدُّ به القضاءُ**، كيفَ لا، ورَسولُ اللهِ ﷺ يَقولُ: «لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الهم في الدنيا، رقم (٢٣٢٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه بنحوه: أحمد (١/ ٤٠٧)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، رقم (١٦٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم (٢١٣٩)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَلْ يقولُ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاءِ»(١).

■ **ومِنها أنَّ الدعاءَ عندَ اللهِ عظيمٌ**، فاللهُ إذا سمِعَ صوتَكَ تَدعو وأنتَ مُتأوِّهٌ منيبٌ، هذا عندَ اللهِ أمرٌ عظيمٌ؛ لذا يَقولُ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ»(٢).

فاللهُ يُحبُّ أَنْ يَسمعَ صوتَنا وأنينَنا، يَرَى ضعفَنا وافتِقارَنا فليسَ شيءٌ أكرمُ على اللهِ من الدعاءِ.

■ **ومِنها أنَّ العبدَ إذا أَعرضَ ولَمْ يَدعُ اللهَ يغضَبُ عليه اللهُ**، فالَّذي يَستكبِرُ عنِ الدعاءِ ويشعرُ أنَّه في غِنًى عنِ الدعاءِ يَغضبُ عليه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ يَعنِي: دُعائِي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

ونبيُّنا ﷺ يَقولُ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(٣)، فالمَخلوقُ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، الدعاء، رقم (٣٣٧٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، الدعاء، رقم (٣٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالمَخلوقُ إذا سأَلْتَه مرَّةً ثُمَّ مرةً ثُمَّ الثالِثةَ يَضجَرُ منكَ ويَغضبُ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّما سمِعَ صوتَكَ تَدعو يَفرحُ بذلِكَ.

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْـتَ سُـؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[1]

فارفَعْ صوتَكَ بالدُّعاءِ فقُلْ: يا اللهُ، في جميعِ شأنِكَ، في أمرِ دُنياكَ، وفي أمرِ آخِرتِكَ، قُلْ: يا اللهُ. في الأمورِ العَظيمةِ، وفي الأمورِ الَّتي هي دونَ ذلكَ قُلْ: يا اللهُ.

وانظُرْ إلى إرشادِ أُمِّنا عائِشةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا، إنَّه فِقهُ الدعاءِ الَّذي نَحتاجُه جميعًا، تقولُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهَا: «سَلُوا اللهَ التيسيرَ في كلِّ شيءٍ، حتَّى الشِّسعِ في النعلِ، فإنَّهُ إِنْ لَمْ يُيسِّرْهُ اللهُ لَمْ يَتيسَّرْ»[2] حتَّى في هذا الخيطِ الَّذي في النعالِ سَلوا اللهَ التيسيرَ فيه؛ فإنَّه إِنْ لَمْ يُيسِّرْه اللهُ لم يَتيسَّرْ.

فالدعاءُ هو أَشبهُ ما يَكونُ في يدِكَ كالسِّلاحِ، وفي يدِكَ الأُخرى كالدواءِ، ففي يدِكَ سِلاحٌ ودواءٌ، سلاحٌ تُدافعُ به القضاءَ قبلَ أَنْ يَنزلَ،

(١) ذكره الخطابي في العزلة (ص:٦٦) وقال: أنشدني الخزيمي. وانظره غير منسوب في: شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٦١)، وتفسير القرطبي (٥/ ١٦٤)، وفيض القدير للمناوي (١/ ٥٥٦).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد [وجادة عن أبيه] في الزهد (ص:١٦٦، رقم ١١٣٠)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨١).

ودواءٌ تعالجُ به القضاءَ بعدَما نزلَ.

ولابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ كعادتِه قيِّمٌ في كتابِه (الجوابِ الكافِي) يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والدُّعاءُ مِنْ أنفعِ الأَدويةِ، وهو عدوُّ البلاءِ، يَدفعُه، ويعالجُه، ويمنعُ نُزولَه، ويرفعُه، أو يُخفِّفُه إذا نزلَ، وهو سِلاحُ المؤمنِ»[1].

وهو أيسرُ ما يَكونُ، فلا تَحتاجُ إلى أبوابٍ تَفتحُها، ولا إلى وسائِطَ بينَكَ وبينَ اللهِ، ولا إلى رشاوٍ أبدًا.

فقُلْ: (يا اللهُ)، فإذا كنتَ في أيِّ مكانٍ، في المسجِدِ أو في البيتِ، في معملِكَ أو على فِراشِكَ قُلْ: (يا اللهُ).

ثُمَّ اعلَمْ أنَّ الدعاءَ مُنذُ أَنْ تَبدأَ بِهِ فإنَّكَ في عبادةٍ، والأجورُ تُفتحُ عليكَ، سواءٌ استُجيبَ هذا الدعاءُ أو لَمْ يُستَجَبْ، فأنتَ في عِبادةٍ؛ لذا يَقولُ ﷺ -كما في حديثِنا الذِي نتكلَّم عنه-: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**» فإذا تَعبَّدْتَ اللهَ بالدعاءِ فكُنْ مُخلصًا، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩].

وفي موضِعٍ آخرَ يَقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) الجواب الكافي (ص:١١).

فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر:٦٥].

وإذا دعَوْتَ فارفَعْ يدَكَ رفعَ المُتذلِّلِ المنكسِرِ الخاضِعِ الذليلِ لرَبِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبالِغْ في الرفعِ، فارفَعْ يدَكَ وأظهِرْ حاجتَكَ، وأظهِرْ فقرَكَ وافتِقارَكَ للغنِيِّ سبحانه، ليرَى ضعفَكَ وحاجتَكَ.

يقولُ نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»[(١)] ستُملَأُ هذه الأكفُّ لكِنِ ارفَعْها وقُلْ: يا اللهُ. سواءٌ كنتَ في الناسِ أو في خَلوتِكَ ارفَعْ يديكَ وبالِغْ في الرفعِ، فقَدْ كانَ نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبالِغُ في الرفعِ حتَّى يُرَى بَياضُ إبطَيْه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثالِثُ هذه الوَصايا: إذا دعَوْتَ اللهَ فامدَحْه، فاللهُ يُحِبُّ المدحَ، «**وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ**»[(٢)] هكذا جاءَ في (صحيحِ البُخاريِّ)؛ ولذلِكَ مدحَ نَفْسَه، واقرَأِ القرآنَ ستجدُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يمدَحُ نفسَه، واللهُ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، رقم (٤٦٣٤)، ومسلم: كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يحبُّ المدحَ، وليسَ شيءٌ أحبَّ إليهِ المدحُ منَ اللهِ، أَثْنِ عليه بينَ يدَيْ حاجتِكَ وقُلْ: يا اللهُ، يا رحمنُ، يا رحيمُ، يا لطيفُ، يا ودودُ.

دخلَ نبيُّنا ﷺ المسجدَ -وهذا حديثٌ عجيبٌ عظيمٌ- فإذا برجُلٍ يُصلِّي في التشهُّدِ وهو يَدعو وقدِ ارتفَعَ صوتُه فسمِعَه النبيُّ ﷺ يقولُ في دُعائِه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ؛ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»[1]، فقدِّمْ بينَ يدَيْ دُعائِكَ ثناءً على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

رابعُ هذه الوَصايا: ادْعُ اللهَ وأنتَ موقِنٌ بالإجابةِ، لا تَقُلْ: أُجرِّبُ اللهَ. لكِنِ ادعُ اللهَ وأنتَ موقنٌ بالإجابةِ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ في الحديثِ القدسيِّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[2] إِنْ ظنَّ خيرًا فلَهُ، وإِنْ ظنَّ شرًّا فلَهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٩)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٩٣-١٤٩٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٥)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٧)، من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقولُ ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[(١)].

وخامِسُ هذه الوصايا: إذا دعوتَ وانتهَيْتَ مِنْ دعائِكَ فلا تَنسَ أَنْ تُصلِّيَ على النبيِّ ﷺ الَّذي علَّمَنا وأرشَدَنا وأنقَذَنا، فإذا ختَمْتَ دُعاءَكَ صلِّ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالدعاءُ مَحجوبٌ، حتَّى تصلِّيَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يَقولُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ وأَرضاهُ: «كلُّ دعاءٍ مَحجوبٌ حتَّى يُصلَّى على محمَّدٍ وآل محمَّدٍ ﷺ»[(٢)].

تَنبيهانِ فيما يَتعلَّقُ بالدعاءِ -وهُما عظيمانِ-:

أمَّا التنبيهُ الأوَّلُ:

فاحذَرْ يَا أيُّها الأب أَنْ تَدعوَ على أَحَدٍ مِنْ أولادِكَ بالهِلاكِ، بَلْ نَحذرُ جميعًا أَنْ نَدعوَ على أنفسِنا، أو على أموالِنا بالهَلاكِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ يَقولُ كما جاءَ في حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ أبي داودَ-: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٧٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٤٧٤).

عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ»[(١)].

ففي حالةِ غضَبٍ تَدعو على ولَدِكَ فيَهلِك، في حالةِ غضَبٍ تَدعو على شيءٍ مِنْ أموالِكَ فيَهلِك، في حالةِ غضَبٍ رُبَّما دعوتَ على نفسِكَ فتَهلِك، ولكِنِ ادعُ لنَفسِكَ ولأولادِكَ، فقَدْ قالَ ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ»[(٢)].

التنبيهُ الثاني:

لنَحذَرْ دعوةَ المظلومِ، ولْنَحْذَرْ أَنْ نقعَ في ظلمِ الآخَرين فتَرتفعَ الأكفُّ تَدعو علينا ونحنُ في غفلةٍ، حتَّى لو كانَ هذا المظلومُ كافرًا يَهوديًّا نصرانِيًّا هندوسيًّا بوذيًّا فدعوَتُه مُستجابةٌ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «اتَّقُوا

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله، رقم (١٥٣٢). وأخرجه أيضا مسلم: كتاب الزهد، باب حديث جابر الطويل، رقم (٣٠٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب، رقم (١٥٣٦)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الوالدين، رقم (١٩٠٥)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم، رقم (٣٨٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا»[١]، فكيفَ إذا كانَ المظلومُ صالِحًا؟ فكيفَ إذا كانَ هذا المظلومُ وليًّا مِنْ أولياءِ اللهِ؟

قالَ نبيُّنا ﷺ -كما في (صحيحِ البخارِيِّ)-: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[٢].

وعندَ الطبرانيِّ يقولُ ﷺ: «وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: أَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»[٣].

وعندَ الحاكمِ في (مُستدركِه) مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يقولُ ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارٌ»[٤].

فكما أنَّ دُعاءَكَ مُستجابٌ ومُرغَّبٌ فيهِ، فالمظلومُ مُرغَّبٌ لهُ أيضًا أنْ يَدعوَ على مَنْ ظلَمَهُ.

وفي التاريخِ والسِّيَرِ كَمْ مِنْ حُكمٍ أزيلَ بدَعْوةِ مَظلومٍ! وكَمْ مِنْ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، المظلوم، رقم (٢٤٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء رقم (١٣١٥)، وأخرجه أيضا أحمد (٢/ ٣٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) مستدرك الحاكم (١/ ٢٩).

غنيٍّ افتقَرَ بدَعوةِ مَظلومٍ! وكَمْ مِنْ صحيحٍ اعتَلَّ بدَعوةِ مَظلومٍ! فلْيَحذَرِ الإنسانُ.

وكما قيلَ:

لَا تَظْلِمَـــنَّ إِذَا مَـــا كُنْـــتَ مُقْتَـــدِرًا

فَـــالظُّلْمُ تَرْجِـــعُ عُقْبَـــاهُ إِلَى النَّـــدَمِ

تَنَـــامُ عَيْنَـــاكَ وَالمَظْلُـــومُ مُنْتَبِـــهٌ

يَـــدْعُو عَلَيْـــكَ وَعَـــيْنُ اللهِ لَـــمْ تَـــنَمْ[1]

o

(١) انظر: التبصرة لابن الجوزي (ص:٩٢)، والكبائر للذهبي (ص:١٠٥)، غير منسوب.

(٢٩)

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ

o

يَتواصلُ حديثُنا في هذِه السِّلسلةِ المباركةِ، معَ حديثِنا قبلَ الأخيرِ في هذِه السِّلسلةِ مِنْ جوامعِ كلِمِه ﷺ، وحديثُنا هو ما جاءَ في (سُننِ التِّرْمذيِّ) مِنْ حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»(١).

يُخبرُ نبيُّنا ﷺ عَنْ تغيُّرِ الأزمانِ، وأنَّه يحصلُ فيها ما يُؤثرُ على الدِّينِ مِنْ أنواعِ الفِتنِ، فسمَّى نبيُّنا ﷺ هذه الأيَّامَ: أيامَ الصبرِ، فقالَ كما جاءَ في (صحيحِ ابنِ حبَّانَ): «فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ كَقَبْضٍ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»(٢).

وملامحُ هذه الأيامِ وملامحُ ذاكَ الزمانِ الَّذي يُخبِرُ عنهُ نبيُّنا ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، رقم (٢٢٦٠).

(٢) صحيح ابن حبان رقم (٣٨٥)، وأخرجه أيضا أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾، رقم (٤٠١٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَكمُنُ في أمرَيْنِ: كثرةِ الفِتنِ، وكثرةِ التنازُلاتِ والانتِكاساتِ.

والفِتنُ إذا كثُرَت أخطَرُ ما تَكونُ على دِينِ المرءِ، فتُحرِّفُه عَنْ دِينِه، والفِتنُ ليسَ بالضَّرورةِ أَنْ تكونَ في الحروبِ، أو تَكونُ في الفَوضَى والقتلِ، نعَمْ هذه الصورةُ مِنْ أخطرِ صُورِ الفِتنِ، لكِنِ الفقرُ فِتنةٌ، والغِنى فِتنةٌ، إقبالُ الدُّنيا على بعضِنا فِتنةٌ، وإدبارُها على بعضِنا فِتنةٌ، والعافِيةُ قَدْ تكونُ فِتنةً، والمرَضُ قَدْ يكونُ فِتنةً.

لكِنِ الَّذي يُشيرُ إليهِ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ على وجهِ الخُصوصِ ما يَحصلُ منَ الهرجِ -أَيْ: كثرةِ الفِتنِ والقتلِ- لذا يَقولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَتَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**»[1] أَيْ: كلَّما كانَ حُضورُكَ في هذه الفِتنةِ أقلَّ فقَدْ نِلتَ الخَيريةَ.

فالمُشاركةُ في هذه الفِتنِ ليسَتْ مُتساويةً، فالساعِي فيها غيرُ الماشِي، والماشِي فيها غيرُ القائمِ، والقائمُ فيها غيرُ القاعدِ، وتَحصلُ في ذلكَ الزمانِ تَقلُّباتٌ وتَنازُلاتٌ، فترَى بعضَ القُدْواتِ فإذا به يَتنازلُ عَنْ كثيرٍ منَ القِيمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، رقم (٧٠٨١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمبادِئ الَّتي كانَ يُنادِي بها، وهذا مِنْ أخطرِ الفِتنِ على الفردِ، يَقولُ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُذكِّر عَنْ بعضِ هذه الصوَرِ والنماذجِ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ كانَتْ عندَه الآياتُ البيِّناتُ ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

هاهُنا يقولُ نبيُّنا ﷺ: «الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»، ولعلَّكَ تَتَساءَلُ ما هي الوسائلُ الَّتي تُعينُ على الصبرِ أيامَ الفِتنِ؟

فأَقولُ لكَ:

١ - الإقبالُ على اللهِ:

فإذا كثُرَتِ الفتنُ فأقبِلْ على اللهِ، وتوغَّلْ في هذا الإقبالِ، واجعَلْ حياتَكَ كلَّها للهِ الوحدِ الأحدِ سبحانه، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أواخِرِ سورةِ الأنعامِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٤]، فأقبِلْ على اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بكُلِّيَّتِكَ، فلا مُثبِّتَ إلَّا هوَ، ولا عاصمَ إلَّا هوَ سبحانه.

يَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه والخِطابُ للأُمَّةِ مِنْ بعدِه: ﴿وَلَوْلَآ أَن

ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

واعلَمْ -أيُّها المبارَكُ- إذا لم تَكُنْ منَ المُقبلين على اللهِ في حالِ الرخاءِ فأَصعبُ ما يَكونُ عليكَ أَنْ تُقبِلَ عليه في حالِ الشِّدةِ.

تَنبَّهْ أخِي إذا لم تَعرِفِ الطريقَ إلى اللهِ في الرَّخاءِ فيَصعبُ عليكَ مَعرفتُه في حالِ الشِّدَّةِ؛ فتَتوهُ، ورُبَّما أخَذَتْكَ أقدامُكَ إلى طرقٍ لا تُؤدِّي إلى اللهِ؛ لتَلاطُمِ أمواجِ الفِتنِ.

٢- الإقبالُ على كتابِ اللهِ:

قراءةً وحِفظًا وتَأمُّلًا وتَدبُّرًا وعمَلًا؛ فإنَّه مِنْ أعظَمِ المُعيناتِ على الصبرِ في أيَّامِ الفِتنِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾، قالَ اللهُ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢].

فالَّذي لا يَعرفُ القرآنَ إلَّا جُملةً واحِدةً في رمضانَ ثُمَّ يَهجرُه في بقيَّةِ العامِ هذا صعبٌ عليه الصبرُ أيامَ الفِتنِ؛ لكِنِ الَّذي يَقرؤُه مُفرَّقًا، في كلِّ يومٍ لهُ وِردٌ فهذا مِنْ أعظمِ المُعيناتِ على الصبرِ؛ لذا يَقولُ ﷺ في حديثِ أبي شُريحٍ الخُزاعيِّ يَقولُ: «فَإِنَّ هَذَا القُرْآنَ سَبَبٌ» والسببُ هو

الحبلُ المتينُ «طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»[١].

٣- إذا كثُرَتِ الفِتنُ فأَقبِلْ على العبادةِ:

لأنَّها مِنْ أعظمِ المُعيناتِ على الصبرِ، فالعبادةُ أيَّامَ الفِتنِ لها مِيزةٌ؛ لذا امتدَحَ نبيُّنا ﷺ العبادةَ والعابدَ أثناءَ الفِتنِ قالَ: «عِبَادَةٌ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»[٢] في أجرِها كأجرِ الهِجرةِ إلى النَّبيِّ ﷺ.

ما أَدرَكْنا ذاكَ الزمانَ حتَّى نَكونَ منَ المُهاجِرين، ولكنَّكَ إذا فُتِنْتَ فأكثِرْ منَ العِبادةِ؛ فعِبادةٌ في الهرجِ كهِجرةٍ معَ النبيِّ ﷺ.

بَلْ قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يُؤكدُ على هذه الوَسيلةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ يَعنِي الصلاةَ والزكاةَ وقِراءةَ القُرآنِ والبِرَّ والإِحسانَ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:٦٦].

٤- أَنْ تَرفعَ يديكَ وتَقولَ: يا اللهُ.

وقد ذكَرْنا طرفًا منها فيما تقدَّم، فلا عاصمَ إلَّا اللهُ، ولا مُنجِّيَ إلَّا اللهُ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٤٦١)، وابن حبان رقم (١٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٨، رقم ١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج، رقم (٢٩٤٨)، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا لم يَعرِفِ العبدُ ربَّه في أثناءِ الفِتنِ متى يَعرِفه؛ لذا قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[١]؛ لذا كانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَقولُ كما جاءَ في (سُننِ التِّرْمذيِّ): «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[٢].

ولمَّا جاءَهُ الأحزابُ مِنْ كلِّ مكانٍ وحاصَروا المدينةَ قامَ ﷺ معَ الصحبِ الكرامِ يَحفرُون الخَندقَ، وهو يَقولُ ويَرتجزُ ﷺ -يَرفعُ صوتَه والصحابةُ يَسمَعون-:

«وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا * وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا * وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ العِدَا قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا»[٣].

تَعلَّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي (مُصنَّفِ ابنِ أبي شَيبةَ) يَقولُ أبو هُريرةَ رَضِي اللهُ تعَالَى عَنْهُ: «تَكُونُ فِتنةٌ لا ينُجِّي منها إلَّا دعاءٌ كدعاءِ الغَريقِ»[(١)].

وفي سُورةِ الأنعامِ يَقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فِتنة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُريدُ أَنْ يَسمعَ أصواتَ الأُمَّةِ ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن﴾ ولكِنَّهم لم يَتضرَّعوا ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

فالإقبالُ على اللهِ، والإقبالُ على القرآنِ، والإقبالُ على الدعاءِ، والإقبالُ على العملِ الصالحِ هيَ مِنْ أعظمِ الوسائلِ الَّتي تُعينُ على الصبرِ في أيَّامِ الفِتنِ.

٥- الالتِفافُ والانضِمامُ إلى الفِئاتِ الصالِحةِ الصابِرةِ العارِفةِ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إنَّ مِنْ الوسائِلِ المعينةِ على الصبرِ في أيَّامِ الفِتنِ الانخِراطَ في تلكَ

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢١/ ٣٥٢).

البيئاتِ الصالِحةِ تُؤثِّرُ في صبرِكَ، وتُعينُكَ على ذلكَ، ولا تَظُنَّ أنَّنا في غنًى عَنْ بعضِنا البعضِ، إلى درجةِ أنَّ النبيَّ ﷺ خاطَبَه ربُّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى قالَ له -وهوَ الرسولُ النبيُّ المؤيَّدُ ﷺ- يُرشِدُه ربُّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى هَذِه الوسيلةِ، والأصلُ أنَّ الأُمَّةَ هي الَّتي تَلتَفُّ حولَ النبيِّ ﷺ، وتَستمِدُّ منه هذه القوةَ، ولكِنْ يَأتِي هذا التوجيهُ لتَتربَّى الأُمَّةُ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنَبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ أَيْ: صبِّرْ نفسَكَ في البَقاءِ معَ هذه الفئةِ الصالِحةِ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨].

هذه الوسائلُ أرشدَ إليها الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كِتابِه الكريمِ، ونبيُّنا ﷺ؛ لتَأخُذَ بها الأُمَّةُ في حالِ الرخاءِ، وأشدُّ ما تَكونُ في حالِ الشِّدةِ، حمانا اللهُ وإيَّاكُمْ منَ الفِتنِ.

o

(٣٠)

لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ

o

هكذا على مدَى أكثَرَ مِنْ سبعةِ أشهُرٍ كانَ حديثُنا في جوامعِ كلِمِه ﷺ، ونَختمُ هذه السِّلسلةَ المباركةَ بالحديثِ الثلاثينَ، وهوَ ما جاءَ عنهُ ﷺ في (سُننِ النَّسائِيِّ): أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ**»[1]، فإذا دخلَ الحسدُ في قلبِ العبدِ المُؤمنِ أثَّرَ تأثيرًا كبيرًا في إيمانِه، ورُبَّما كانَ السببَ الرئيسَ في إخراجِ هذا الإيمانِ.

قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النسا:٥٥].

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم (٣١٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذا تَأمَّلْنا سُنَّةَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَدْنا هذا الإرشادَ، ووجَدْنا هذا التوجيهَ، وهذا البيانَ، ففي (صَحيحِ البُخاريِّ) يَقولُ ﷺ في حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١).

فسمَّاهُ ﷺ بالداءِ، مرضٍ عُضالٍ، حينَما يُبتلَى المرءُ بالحسدِ فإنَّه مِنْ أخطرِ الأدواءِ، قالَ ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمُ الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»(٢).

ويَأتِي هذا الحسدُ، وهذا الداءُ العضالُ، وهذا المرضُ؛ فأوَّلُ ما يُؤثِّرُ يُؤثِّرُ في دِينِكَ، قالَ: «**هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**» أَيْ: تَذهبُ بالدِّينِ مِنْ أساسِه.

لذا قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديثِ البابِ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ**».

فإذا خلَتِ المُجتمَعاتُ منَ الحسدِ عاشَتْ بخيرٍ، يقولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (٦٠٦٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس، رقم (٢٥٦٣).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٠)، من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما جاءَ عندَ الطبرانيِّ في (مُعجمِه الكبيرِ) قالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا»[١].

ومِنْ تَعريفاتِ الحسدِ ما قالَهُ الراغبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالَ: «الحسدُ هو تَمنِّي زوالِ نعمةٍ مِنْ مُستحِقٍّ لَها، ورُبَّما كانَ معَ ذلكَ سَعيٌ في إزالتِها»[٢]

والحاسدُ يَعيشُ هذه الحالةَ منَ التَّمنِّي أَنْ تَزولَ النِّعمةُ مِنْ فلانٍ، وأَنْ تَزولَ النِّعمةُ مِنْ فلانٍ، ورُبَّما غلا في حسَدِه فسعَى في إزالةِ هذه النعمةِ، قالَ: «ورُبَّما كانَ معَ ذلكَ سعيٌ في إزالتِها».

والحسدُ أوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ به في الأرضِ، حينَما تَحرَّكَت نوازعُ الشرِّ في أحَدِ أبناءِ آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وخرجَ قابيلُ حاسِدًا لأخيهِ هابيلَ فسعَى عليه بالقتلِ، فالحاسدُ قَدْ يَغلو إلى درَجةِ الوقوعِ في جَريمةِ القتلِ.

ولأنَّنا نَعيشُ في مُجتمَعاتٍ ويُخالطُ بعضُنا بعضًا، والعربُ تَقولُ: «ما خَلا جسَدٌ مِنْ حسَدٍ» فإذا أَرَدْتَ أَنْ تَحفظَ نفسَكَ مِنْ عينِ الحاسدِ -والناسُ يُعجَبُ بعضُهم ببعضٍ، وتتحركُ نفوسُهم لما عِندَ غيرِهم- وأَنْ تحميَ نفسَكَ مِنْ عينِ الحاسدِ، ومِنْ نفسِ الحاسدِ، ومِنْ شرِّه إذا

(١) المعجم الكبير (٨/ ٣٠٩، رقم ٨١٥٧)، من حديث ضمرة بن ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (ص:٢٣٤).

حسدَ، فخُذْ هذه الوسائلَ الأربَعَ:

الوسيلةُ الأُولى:

أرشَدَ إليها نبيُّنا ﷺ؛ فقالَ في حديثِ مُعاذِ بنِ جبلٍ عندَ الطبرانيِّ في (مُعجمِه الكبيرِ) قالَ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الحَوَائِجِ بِالكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ**»(١).

فإنِ استَطَعْت أَنْ تُخفيَ بعضَ النِّعمِ الَّتي يُمكنُ إخفاؤُها عَنْ عينِ الحاسدِ فافعَلْ، وإلَّا فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، لكِنَّكَ إذا استَطَعْتَ أَنْ تُخفيَ بعضَ ما يُمكنُ إخفاؤُها عَنْ عينِ الحاسدِ فافعَلْ.

وهُنا أُنبِّهُ إخواني على هذهِ اللَّوْثةِ الَّتي وقعَ فيها كثيرٌ منَ الناسِ أنَّهم أَصبَحوا ليسَ لَهُم خُصوصيةٌ، وأصبحَ يُرِي الناسَ ما يَحصلُ في بيتِه، وما يَحصلُ على فِراشِ الزَّوْجيةِ بينَه وبينَ أهلِه، ورُبَّما أَرَى الناسَ ما يَأكلُ وما يَشربُ؛ فقبلَ أَنْ يَتقدَّمَ إلى وَليمةِ الطعامِ صوَّرَها وبثَّها، وقبلَ أَنْ يَتمتعَّ ببعضِ المَلاذِّ صورَّها ونشَرَها، ورُبَّما صوَّرَها بعضُ أبنائِه أو زَوجُه،

(١) المعجم الكبير (٢٠/ ٩٤، رقم ١٨٣). وأخرجه أيضا أبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٦)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٢٢٨).

ثُمَّ تَقَعُ هذه الصورةُ في عينِ فقيرٍ مُحتاجٍ، أو جائعٍ يَعيشُ في مَسغَبةٍ، وهُوَ يَرَى هذه الولائِمَ بينَ يديكَ؛ فيَقَعُ منه الحسدُ عليكَ، فتكونُ بذلكَ قَدْ خالَفْت هذا المنهجَ الربَّانيَّ: «اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الحَوَائِجِ بِالكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ».

لذا قالَتِ العرَبُ: «إذا سرَّكَ أَنْ تسلَمَ منَ الحاسدِ فغَمِّ عليهِ أمرَكَ» هذه الوسيلةُ الأُولى.

الوسيلةُ الثانيةُ:

حصِّنْ نفسَكَ بأعظمِ الحُصونِ وهو ذِكْرِ اللهِ؛ فإنَّه أعظمُ ما يُتحصَّنُ به، وقَدْ دلَّنا نبيُّنا ﷺ إلى أعظمِ الحُصونِ؛ فقالَ في حديثِ عُثمانَ كما جاءَ عندَ البُخاريِّ في كِتابِه (الأدَبِ المُفرَدِ): قالَ عثمانُ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْهُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ»[1] دعاءٌ لا يأخذُ منكَ أكثرَ مِنْ نِصفِ دَقيقةٍ: «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ

(١) الأدب المفرد رقم (٦٦٠)، وأخرجه أيضا أحمد (١/ ٧٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح، رقم (٣٣٨٨)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، رقم (٣٨٦٩).

«شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» يُكرِّرُها ثلاثَ مرَّاتٍ يُحفظُ بحِفْظِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ خبيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرَجْنا في ليلةٍ مَطيرةٍ وظلمةٍ شَديدةٍ نَطلبُ رَسولَ اللهِ ﷺ يُصلِّي لَنا، فَأَدركْتُه، فقالَ: «قُلْ» فلَمْ أَقُلْ شيئًا، ثُمَّ قالَ: «قُلْ» فلَمْ أَقُلْ شيئًا، ثُمَّ قالَ: «قُلْ» قُلتُ: ما أقولُ؟ قالَ: «قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ تَكْفِكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[1] إنَّه إرشادُ مَنْ لا يَنطقُ عنِ الهَوَى ﷺ.

إذَنْ غمِّ النِّعمَ الَّتي عندَكَ عَنْ عينِ الحاسدِ، وتَحصَّنْ بأعظَمِ الحُصونِ الذِّكْرِ.

الوَسيلةُ الثالثة:

لا تَشتغِلْ بحسَدِ الحاسدِ حتَّى لا تَعيشَ الوهمَ؛ لأنَّ بعضَ الناسِ لا يَتحرَّكُ ولا يَتنعَّمُ بنِعمِ اللهِ عليه؛ لوهمٍ يَعيشُه أنَّ الناسَ مِنْ حولِه يَحسُدونَه، وهذا أخطرُ منَ الوقوعِ في الحسَدِ؛ حينَما يَعيشُ الإنسانُ في الوهمِ، فدَعْكَ منَ الحاسدِ، وقَدْ قيلَ قديمًا:

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم رقم (٥٠٨٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٧٥)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، رقم (٥٤٢٨).

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُودِ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ[1]

فلا تَلتفِتْ إلى هذا، ولا تَشتغِلْ بهِ، هو يَعيشُ في همٍّ وفي حَسرةٍ، يقولُ الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمِعتُ أعرابيًّا يَقولُ: «ما رَأَيْتُ ظالمًا أشبَهَ بمَظلومٍ مثلَ الحاسِدِ؛ فهوَ في حُزنٍ دائمٍ، وفي عقلٍ هائمٍ، وفي حَسرةٍ لا تَنقضِي»[2]، فيَكفيكَ أنَّ الحاسدَ يَعيشُ في حالةِ همٍّ في وقتِ سُرورِكَ، وفي حالةِ حُزنٍ وحَسرةٍ في حالِ فرحِكَ، فلا تَشتغِلْ بهِ.

الوَسيلةُ الرابِعةُ:

أرشَدَ إليها الربُّ الكريمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي الإحسانُ إلى الحاسِدِ، أحسِنْ إليهِ فهذا يُقلِّلُ مِنْ شرِّه، ويُطفِئُ مِنْ نارِ الشرِّ في نفسِه، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

أَسأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُعيذَني وإيَّاكُم مِنْ شرِّ الحاسدِ إذا حسَدَ.

---

(١) لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص:٣٨٩).
(٢) انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص:٥)، والفوائد المنتقاة للصوري (ص:٤٧)، وزاد المسير لابن الجوزي (١/ ١٠١).

إنْ كان فيما تَقدَّمَ تَوجيهٌ لِحمايةِ أنفُسِنا مِنْ عينِ الحاسدِ، فإنِّي أَقولُ لِمَنْ تَتحرَّكُ في نفسِه نوازعُ الشرِّ ولِمَنْ يَرَى في نفسِه أنَّه يقعُ في الحسدِ أحيانًا: إذا كنتَ تَرَى في نفسِكَ أنَّكَ رُبَّما حسَدْتَ آخرَ، أو تحرَّكَتْ نوازعُ الحسدِ في نفسِكَ؛ لأنَّ الحسدَ في نفوسِنا موجودٌ، وهذا غير مؤاخَذٍ عليه العبدُ، وإنما المؤاخذةُ إذا حسَدَ، فإذا تَحرَّكَتْ هذه النوازعُ فلِكَيْ تَصرِفَ نوازعَ الشرِّ عَنْ نفسِكَ أُوصيكَ بوَصايا:

الوصيةُ الأُولى:

لا تَلتَفِتْ إلى نِعمِ اللهِ على غيرِكَ، ولا تَشتغِلْ بذلِكَ، ولا تَشتغِلْ بما عندَ فُلانٍ، وبالنعمةِ الَّتي أنعَمَ اللهُ بها على فلانٍ، بلِ اشتغِلْ بنعَمِ اللهِ عليكَ أنتَ، هذا هو إرشادُ النبيِّ ﷺ، يَقولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[1].

فإذا كُنتَ ستَلتفِتُ إلى النعمِ الَّتي في يَدِ غيرِكَ فإنَّك ستَتعبُ؛ لأنَّ هذا لا يَنتَهي، ولكِنِ اشتَغِلْ بما عندَكَ، واشتغِلْ بهذه النِّعَمِ الكثيرةِ الَّتي في يدِكَ فإنكَ ستَجِدُ راحةً وطُمأنينةً وسَكينةً.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٣/ ٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الوَصيةُ الثانيةُ:

إذا رأَيْتَ ما يُعجِبُكَ عندَ غيرِكَ فبَرِّكْ، وقُلْ: ما شاءَ اللهُ تبارَكَ اللهُ، يَقولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -كما جاءَ في (سُننِ ابنِ ماجَهْ) مِنْ حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ**»؛ لأنَّ الحاسدَ رُبَّما قتَلَ بيَدِه أو بعَيْنِه أو بلِسانِه «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ بِالبَرَكَةِ**»[1]، فلْتَقُلْ لهُ: بارَكَ اللهُ لكَ في ذلكَ، ما شاءَ اللهُ. سواءٌ أَسمَعْتَه أو لم تُسمِعْه، قُلتَه في نفسِكَ أو قُلتَهُ عَلانيةً، برِّكْ على صاحِبِكَ؛ فإنَّ ذلكَ يُطفِئُ نوازعَ الشرِّ، وخطرَها الَّتي في نَفسِكَ.

إذَنْ حينَما نَعودُ إلى حديثِنا وهو قولُه ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ**» نُدرِكُ تَمامًا خُطورةَ الحسدِ.

o

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الطب، باب العين، رقم (٣٥٠٩).

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

تقديم ٥
١- مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ٩
بلاغة النبيِّ ﷺ من أَبرزِ مَظاهرِ عظمتِه ٩
الفائدة الأولى: كل الناسِ في طريقِهم إلى اللهِ يَتَّخِذون مَطايا ١٠
الفائدة الثانية: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلَقَ الخَلْقَ وجعَلَهم في تبايُنٍ ١١
الفائدة الثالثة: في هذا الدينِ لا مُحاباةَ ولا مُجامَلةَ ١٢
الفائدة الرابعة: أن المحمودَ والمَمدوحَ مَن حَمِدَه اللهُ ورسولُه ومدَحَه ١٣
الفائدة الخامسة: بهذا الدِّينِ يَسودُ الناسُ ١٤
٢- ما نقَصَ مالُ عبدٍ من صدَقة ١٧
الصدَقة تَزيد المال ١٨
الصدَقة سبَبٌ رئيسٌ في مَحْو الذُّنوب ٢٢
٣- الدِّينُ النَّصيحةُ ٢٥
النَّصيحةُ حقٌّ لكلِّ مُسلمٍ على غيرِه منَ المُسلمينَ ٢٥
النصيحةُ شأنُها عظيمٌ ٢٥

النصيحةُ هي عمَلُ الأنبياءِ والمُرسَلينَ ٢٦
لماذا النَّصيحةُ؟ ٢٨
٤- اسمَحْ يُسمَحْ لكَ ٣٤
التسامحُ دُرَّةُ الخِصالِ الحميدةِ ٣٤
لماذا نتَسامح؟ ٣٥
٥- أَمسِكْ عليكَ لِسانكَ ٤٤
اللسانُ أخطرُ أعضاءِ الجِسمِ ٤٤
النجاة تَكونُ بإمساكِ اللِّسانِ ٤٥
لماذا لا تَكونُ النجاةُ إلَّا بإمساكِ اللِّسانِ؟ ٤٨
٦- مَنْ يُحرَمِ الرفقَ يُحرَمِ الخيرَ كلَّه ٥٣
كلُّ شيءٍ يَدخلُ فيه الرفقُ يَزينُ ٥٤
ميادينُ الرفقِ مُتعدِّدةٌ ٥٥
الميدان الأول: الرفق معَ المخالفِ ٥٥
الميدان الثاني: رِفقُ القائدِ برَعيَّتِه ٥٧
الميدان الثالث: الرفقُ بالنفسِ ٥٨
الميدان الرابع: الرفقُ بالضُّعَفاءِ ٦٠
٧- تَعلَّموا من أَنسابِكم ما تَصِلون به أَرحامَكم ٦٣
صِلةُ الرحِمِ ضَرورةٌ شرعيةٌ ٦٣

آثار قطيعة الرحم ٦٥
الأثرُ الأولُ: الإصابةُ باللَّعنةِ والصممِ والعَمَى ٦٥
الأثَر الثاني: عدمُ قَبولِ العملِ ٦٦
الأثر الثالث: قاطع الرحم تُصيبُه العقوبةُ في الدُّنْيا قبلَ الآخِرةِ ٦٧
ثمار صلة الرحم ٦٨
الثمَرةُ الأُولى: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُباركُ لكَ في الأعمالِ ٦٨
الثمرة الثانية: الواصل يَصِلُه اللهُ ٦٩
الثمرة الثالثة: أَعجَل الطاعاتِ ثوابًا هي صِلةُ الرحِمِ ٦٩
الثمرة الرابعة: مَغفرةُ الذُّنوبِ ٧٠
٨- ويُعجِبُني الفألُ الحسَنُ ٧١
ما أحوجنا إلى التفاؤل ٧١
أركان التفاؤل ٧٤
الركن الأول: اليقينُ بأَنَّ المُقدَّرَ كائِنٌ لا مَحالةَ ٧٤
الركن الثاني: اليقينُ بأنَّ الدُّنْيا دارُ ممرٍّ لا مَقرٍّ ٧٥
الركن الثالث: اليقينُ بأنَّ لكلِّ حالٍ عبوديةً ٧٥
الركن الرابع: ابتَعِدْ قدرَ الإمكانِ عنِ اليائِسين القانِطِين ٧٦
الركن الخامس: تَفاءَلوا بالخيرِ تَجِدوه ٧٨
٩- لا يَدخلُ الجَنَّةَ لحمٌ نبَتَ مِنْ سُحتٍ ٨٢

عظَّمَ اللهُ شأنَ المال ٨٢
خوف سلَف الأُمَّةِ مِنَ الحرامِ، والحذر مِمَّا فيهِ شُبهةٌ ٨٤
أسباب أكل الحرام ٨٦
السبب الأول: عدمُ الحياءِ منَ اللهِ ٨٦
السبب الثاني: البحث عن الكَسبِ السريعِ ٨٧
١٠- لا إيمانَ لِمَنْ لا أَمانةَ لَهُ ٩٠
ارتِباطٌ وثيقٌ بينَ الإيمانِ والأمانةِ ٩١
آثار ضياع الأمانة ٩٣
الأثر الأول: ضَعفُ الإيمانِ ٩٣
الأثر الثاني: فشُوُّ آفةِ النفاقِ ٩٣
الأثر الثالث: اختِلالُ المفاهيمِ ٩٤
١١- مَن لا يَرحمُ لا يُرحَمُ ٩٧
الرحمة بيَدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ٩٧
مِنْ موجباتِ الرحمةِ ١٠٠
الموجب الأول: تَحقيقُ الإيمانِ والتَّقوى ١٠٠
الموجب الثاني: طاعةُ الرسولِ ﷺ ١٠١
الموجب الثالث: الرحمةُ بالخَلقِ ١٠١

الموجب الرابع: على قدرِ ما تَرحَم تُرحَمُ ١٠٤
الموجب الخامس: الاجتِماعُ على كِتابِ اللهِ ١٠٤
الموجب السادس: الصبرُ على البلاءِ..... ١٠٥
١٢ - أَكثِروا مِنْ قولِ: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله ١٠٦
الأذكار الشرعية مكانتها ومنزلتها في الدين ١٠٦
معنى «لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» ١٠٧
فضائل «لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» ١٠٨
الفضل الأول: سبَبٌ في تَكفيرِ الذنوبِ ١٠٨
الفضل الثاني: كنزٌ مِنْ كنوزِ الجَنَّةِ ١٠٩
الفضل الثالث: مِنْ غِراسِ الجَنَّةِ ١٠٩
الفضل الرابع: بابٌ مِنْ أبوابِ الجَنَّةِ ١١٠
«لا حولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ» تَرتبطُ بِنا ارتِباطًا وَثيقًا، في صُبْحنا ولَيلِنا .. ١١١
١٣ - نِعمتانِ مَغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ الناسِ..... ١١٥
الوقتُ رأس مالِ الإنسانِ ١١٥
أسباب الاهتمام بالوقت والحرص عليه ١١٧
السبب الأول: لأنَّ الأوقاتَ قليلةٌ ١١٧
السبب الثاني: لأنَّ ما مضَى مِنْه لا يَعودُ..... ١١٨

السبب الثالث: لأنَّ القليلَ مِنه عندَ اللهِ كثيرٌ ١١٩
السبب الرابع: لأنَّه سريعُ الانقضاءِ ١٢٢
١٤ - أوَّلُ صلاحِ هذِه الأُمَّةِ باليَقينِ ١٢٣
اليقينُ زادُ الصالِحينَ ١٢٣
ثمراتُ اليَقينِ ١٢٦
الثمرة الأولى: قوَّةُ الإيمانِ ١٢٦
الثمرة الثانية: اليقينُ دليلٌ على الإتيانِ بأفضلِ الأعمالِ ١٢٨
الثمرة الثالثة: مَنْ حقَّقَ اليقينَ نالَ السُّؤددَ، والرِّيادةَ، والتَّمكينَ في الأرضِ ١٢٨
الثمرة الرابعة: اليقينُ سببٌ لاستِجابةِ الدُّعاءِ ١٢٩
الثمرة الخامسة: الصبرُ والاحتِسابُ ١٢٩
الثمرة السادسة: التوفيق لحُسنِ الجَوابِ في القبرِ ١٣٠
الثمرة السابعة: أهلَ اليَقينِ هُمْ أهلُ الجَنَّةِ ١٣١
١٥ - إنَّ الرِّزقَ ليَطلُب العبدَ كما يَطلُبه أجَلُه ١٣٢
الرِّزق منَ القضايا المُهمَّة الَّتي تَشغَل بالَ الإنسانِ ١٢٣
مفاتيح الرزق ١٣٤
المفتاح الأول: مِفتاحُ الطاعةِ ١٣٤
المفتاح الثاني: مِفتاحُ العَطاءِ ١٣٥

المفتاح الثالث: حُسْنُ التوكُّلِ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٣٦
المفتاح الرابع: مِفتاحُ الاستِغْفارِ..... ١٣٧
المفتاح الخامس: كَفالةُ الضُّعفاءِ والمَساكينِ والمُعوزين ١٣٨
المفتاح السادس: الدُّعاءُ ١٣٩
١٦ - إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ . ١٤١
أصلٌ في عقيدةِ المسلِمِ أَنْ يُخلصَ عمَلَه للهِ وحدَه ١٤١
خطوات الوصول إلى مقام الإخلاص ١٤٣
الخُطوةُ الأُولى: الاستعانةُ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٤٣
الخُطوةُ الثانيةُ: أَداءُ الفرائضِ ١٤٥
الخُطوةُ الثالثةُ: تَنقية القلبِ ومُجاهدته وتَنظيفه ١٤٥
الخُطوةُ الرابعةُ: مُجاهدةُ النفسِ ١٤٦
الخُطوةُ الخامِسةُ: كِتمانُ الحسَناتِ..... ١٤٩
١٧ - مَنْ صمَتَ نَجا ١٥١
الصمتُ هو الفَضيلةُ الغائِبةُ في زمَنٍ كثرُ فيه الكلامُ..... ١٥١
الصمت أجملُ ما يَتجمَّلُ به الخلائقُ..... ١٥٣
الصمتُ مرتبط بالإيمانِ ١٥٤
كيفية الوصول إلى خلق الصمت..... ١٥٤

الوَسيلةُ الأُولى: اقرَأْ في سِيَرِ سلفِ الأُمَّةِ ١٥٦
الوسيلة الثانية: التأمُّلُ في عاقبةِ وخطورةِ الكلام ١٥٨
١٨ - إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ ١٦١
الغُلوُّ مرَضٌ قديمٌ عانَتْ مِنْ وَيلاتِه الأُممُ ١٦١
مظاهِر الغُلوِّ وصُوره ١٦٤
المظهر الأول: إلزامُ النفسِ أوِ الآخَرين بعِباداتٍ ليسَتْ منَ الدِّينِ ١٦٤
المظهر الثاني والثالث: الغُلوُّ في المدحِ أوِ الذمِّ ١٦٧
المظهر الرابع: الترفع على الغير واحتقارهم ١٦٩
المظهر الخامس: استباحةُ دِماءِ المُسلمينَ ١٧٠
١٩ - أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ١٧٣
حقائق لا بُدَّ أَنْ تَكونَ حاضِرةً في أذهانِنا ١٧٥
الحَقيقةُ الأُولى: الموت حقٌّ على جميعِ الخَلقِ ١٧٥
الحقيقةُ الثانِيةُ: للموتِ أجَلًا لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ ١٧٧
الحقيقةُ الثالِثةُ: لا يُمكِنُ الفِرارُ منَ الموتِ ١٧٨
الحَقيقةُ الرابعةُ: لا يَعلمُ بالموتِ ولا بوَقتِهِ ولا بمَكانِه إلَّا اللهُ ١٧٨
الحَقيقةُ الخامِسةُ: قَدْ يَكونُ في الموتِ راحةٌ للمُؤمِنِ ١٧٩
٢٠ - القبرُ أوَّلُ منازِلِ الآخِرةِ ١٨٣

القبرُ أعظمُ واعِظٍ ١٨٣
الفرق بينَ المؤمِنِ الصالحِ وبينَ الكافِرِ الطالِحِ في القبر ١٨٤
نماذج لأعمال تكونُ سببًا في عذابِ القبرِ ١٨٧
النموذجُ الأوَّلُ: الوِشايةُ والنميمةُ ١٨٧
النموذجُ الثاني: السرِقةُ ١٨٧
النموذجُ الثالثُ: عدم الوفاء بالدين ١٨٨
النجاةُ مِنْ عذابِ القبرِ بالعملِ الصالحِ ١٨٩
٢١- لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ١٩٢
أَهمِّيَّة الإيمانِ بالقدَرِ ١٩٤
الإيمان بالقدَرِ قائِمٌ على أربَعةِ أُصولٍ ١٩٤
الأصل الأول: الإيمانُ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلمُ ما هوَ كائِنٌ ١٩٤
الأصل الثاني: الإيمانُ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ كتَبَ في اللوحِ المَحفوظِ
ما هوَ كائِنٌ إلى قيامِ الساعةِ ١٩٥
الأصل الثالث: الإيمانُ بمَشيئةِ اللهِ الشامِلةِ ١٩٧
الأصل الرابع: الإيمانُ بأنَّ اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ ١٩٨
٢٢- مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ ٢٠١
الحثُّ على الإحسانِ إلى الجارِ ٢٠١
من حُقوقِ الجارِ على الجارِ ٢٠٤

الحق الأول: الإحسانُ إليه بكُلِّ صورِ الإحسانِ ٢٠٤
الحق الثاني: تعاهُدُه بالعَطيَّةِ ٢٠٥
الحق الثالث: حمايةُ عرضِه ومالِه ٢٠٦
الحق الرابع: أَنْ يَكفَّ الأذَى عَنْه ٢٠٧
الحق الخامس: أَنْ يَصبِرَ على أَذاهُ ٢٠٩
٢٣- أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الخُشُوعُ ٢١٢
الترغيبُ في الخشوعِ في الصلاةِ ٢١٣
كيفَ أَخشعُ في صلاتِي؟ ٢١٥
الوَسيلةُ الأُولى: استعِدَّ للصلاةِ ٢١٦
الوَسيلةُ الثانية: اطمَئِنَّ فيها ٢١٦
الوَسيلةُ الثالثة: إذا قُمتَ في صَلاتِكَ وقبلَ أَنْ تُكبِّرَ تَذكرُ الموتَ ٢١٦
الوَسيلةُ الرابعة: تَدبَّرْ ما تَقرَأُ وما يُقرَأُ عليكَ ٢١٧
الوَسيلةُ الخامسة: نَوِّعْ في أذكارِ ما تَقرَؤُه وفي السُّوَرِ الَّتي تَقرَؤُها ٢١٨
الوَسيلةُ السادسة: أَنْ تَستحضِرَ وتَستشعِرَ الأجرَ المُترتِّبَ على خُشوعِكَ في الصلاةِ ٢١٩
٢٤- مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى المَسْجِدِ فَهُوَ زَائِرُ اللهِ ٢٢٠
مَوائدُ الإكرامِ لِمَنْ جاءَ إلى المسجدِ ٢٢٢

المائِدةُ الأُولى: النورُ التامُّ يومَ القيامةِ ٢٢٢
المائِدةُ الثانيةُ: مَحوُ الذنوبِ والخَطايا ٢٢٢
المائِدةُ الثالِثةُ: الملائِكةُ تُسخَّرُ لكَ..... ٢٢٣
المائِدةُ الرابعةُ: أجرٌ كأجرِ الحاجِّ المحرِمِ وكأجرِ المُعتمِرِ ٢٢٥
المائِدةُ الخامسة: منْ جاءَ إلى المسجدِ وقد فاتَتْه الصلاةُ كتَبَ اللهُ لهُ أجرَ الجماعةِ..... ٢٢٥
٢٥- أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلاحُ ذَاتِ البَيْنِ ٢٢٧
فضل الإصلاح بينَ الناسِ..... ٢٢٧
من ميادين الإصلاحِ ٢٣٠
الإصلاحُ بينَ الراعِي والرعِيَّةِ..... ٢٣٠
الإصلاحُ بينَ المُتخاصِمَيْن..... ٢٣٢
الإصلاحُ بينَ الزوجِ وزوجِه..... ٢٣٣
الإصلاحُ الَّذي يَقَعُ عندَ تَخاصُمِ الورَثةِ..... ٢٣٣
٢٦- الدُّنيا حلوةٌ خضِرةٌ ٢٣٥
بَيان حَقيقةِ الدُّنيا..... ٢٣٥
ثلاثة محاذير لمن أحب الدنيا وتعلق بها ٢٤١
المَحذورُ الأوَّلُ: همٌّ دائمٌ وفَقرٌ لازِمٌ وحسرةٌ لا تَنقَضي..... ٢٤١

المحذورُ الثاني: كانَ ذلكَ الحب عَلى حِسابِ دِينِه ٢٤١
المَحذورُ الثالثُ: احذَرْ أَنْ تَجعلَ الدنيا لكَ غايةً..... ٢٤٣
٢٧- إِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ ٢٤٤
الكذبُ عملٌ مَرذولٌ، وصِفةٌ ذميمةٌ..... ٢٤٤
من صور الكذب ٢٤٥
الصورةُ الأُولى: الكذِبُ على اللهِ ورسولِه ﷺ..... ٢٤٥
الصورةُ الثانيةُ: الكذِبُ في البيعِ والشراءِ ٢٤٧
الصورةُ الثالِثةُ: الكذبُ لإضحاكِ الناسِ..... ٢٤٩
الصورةُ الرابِعةُ: الحديثُ بكُلِّ ما يَسمَعُ ٢٥٠
الصورةُ الخامِسةُ: الكذبُ في الانتِسابِ إلى غيرِ الآباءِ ٢٥١
٢٨- الدُّعاءُ هو العِبادةُ..... ٢٥٤
أسباب الدعاء ٢٥٥
وصايا في الدعاء ٢٥٧
الوصية الأولى: ادْعُ اللهَ في جميع شأنِكَ ٢٥٧
الوصية الثانية: إذا دعَوْتَ فارفَعْ يدَكَ رفعَ المُتذلِّلِ ٢٥٩
الوصية الثالثة: قدِّمْ بينَ يدَيْ دُعائِكَ ثناءً على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٢٥٩
الوصية الرابعة: ادْعُ اللهَ وأنتَ موقِنٌ بالإجابةِ ٢٦٠

الوصية الخامسة: أَنْ تُصلِّيَ على النبيِّ ﷺ بعد الدعاء ٢٦١
تنبيهان..... ٢٦١
التنبيه الأول: احذَرْ أَنْ تَدعوَ على أَحَدٍ مِنْ أولادِكَ..... ٢٦١
التنبيه الثاني: احذر دعوةَ المظلومِ..... ٢٦٢
٢٩- يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ ٢٦٥
تغيُّر الأزمانِ وكثرة الفِتنِ..... ٢٦٦
الوسائلُ الَّتي تُعينُ على الصبرِ أيامَ الفِتنِ ٢٦٧
١- الإقبالُ على اللهِ..... ٢٦٧
٢- الإقبالُ على كتابِ اللهِ ٢٦٨
٣- إذا كثُرَتِ الفِتنُ فأَقبِلْ على العبادةِ..... ٢٦٩
٤- أَنْ تَرفعَ يديكَ وتَقولَ: يا اللهُ..... ٢٦٩
٥- الالتِفافُ والانضِمامُ إلى الفِئاتِ الصالِحةِ الصابِرةِ ٢٧١
٣٠- لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ..... ٢٧٣
الحسد الداءُ العضالُ ٢٧٤
أربع وسائل للحماية من الحسد ٢٧٦
الوسيلة الأولى: غمٌّ بعض النعم عَنْ عينِ الحاسدِ..... ٢٧٦
الوسيلة الثانية: حصِّنْ نفسَكَ بذِكْرِ اللهِ..... ٢٧٧

الوسيلة الثالثة: لا تَشتغِلْ بحسَدِ الحاسدِ ٢٧٨
الوسيلة الرابعة: الإحسانُ إلى الحاسِدِ ٢٧٩
وصايا لصرف نوازعَ الشرِّ عَنْ النفسِ ٢٨٠
الوصية الأولى: لا تَلتَفِتْ إلى نِعمِ اللهِ على غيرِكَ ٢٨٠
الوصية الثانية: إذا رأَيْتَ ما يُعجِبُكَ عندَ غيرِكَ فبَرِّكْ ٢٨١
فهرس الموضوعات ٢٨٣

o

www.islamic-invitation.com